سلسلة كنوز الحضارة

تاريخ الإسلام
فى
المغرب العربى

إعــداد

د. عصام محمد فكري علي   د. إبراهيم جابر السيد

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دار الجديد للنشر والتوزيع

٩٠١.٩
ع ٠ ع

علي ، عصام محمد فكري .

سلسلة كنوز الحضارة / عصام محمد فكري علي.{واخ}.-ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع.

٣١٢ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .

تدمك : 6 - 659 – 308 – 977 – 978

١. الحضارة – تاريخ .

أ – علي ، عصام محمد فكري (معد مشارك) .

رقم الإيداع : ٢٨٨٣ .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دسوق – شارع الشركات– ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز
هاتف– فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥–٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣
E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com
الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع
تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر
هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣
محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣
E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

الفهـرس

المقدمـة

لقد أنبعث فى صدر الإسلام رجال يفخر بهم الزمان، وكما أسسوا النفوس الكبار والعباقرة العظام أستطاعوا أيضا أن يؤسسوا البلاد والمدن والحصون والقلاع التى يفخر بها المسلمون ختى اليوم، نخاطب ذلك القطاع العريض من المجتمعات على اختلافها والذين لا يعرفون إلا لندن وباريس ونيويورك نحاول أن نذكرهم بالمدن التى أسسها المسلمون الأوائل بقدر ما أتيح لهم آنذاك من قدرة وقوة ومتعة ونظام وعمارة لا تزال أصابعها تؤثر إلى اليوم فى دنيا الناس، نريد أن يعرف الناس تاريخ الإسلام فى المغرب العربى بمثل هذه النية الصالحة أسس سلفنا الصالح رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين بلادهم، فى حين تجد تلك البلاد التى تنمو نمواً حثيثاً بمر الدهور، إنما هو أمر طبيعى لتطور الزمن، فما أفخر بلاد الغرب اليوم إلا تراكم لجهود غير مرتبة، لم تبنى على نيات صالحة كما هو الحال فى بلادنا، ومدننا الإسلامية فى الأندلس خير شاهد على ما أقول والتى لا تزال شاخصة فى سماء (أسبانيا) بعض معالمها حتى اليوم رغم ما أصابها من تشويه وطمس متعمد وغير معمد من عوادى الزمان.

الفصل الأول
الآلهة التي كانت تعبد في المغرب القديم قبل الإسلام

عرفت بلاد المغرب القديم التي تتضمن المغرب الأقصى والجزائر وتونس وحدة جغرافية اقتضتها مجموعة جبال الأطلس ووحدة جنسية لكونها عمرها الأهالي، الذين أطلقت عليهم تسميات مختلفة في المصادر التاريخية، التي تتميز بقلتها وندرتها. إلا إذا استثنيا البقايا المادية لتلك الحضارة الغابرة التي عرفها المغرب القديم، فذكر المصريون أهالي شمال إفريقيا بـ "مشاوس" كما أن هناك تسمية أخرى أطلقها السكان المحليون على أنفسهم، وهي كلمة "أمازيغ" وتعني النبل والشهامة، وساهم الإغريق والرومان "البربر" وهي كلمة يطلقونها على الشعوب الخارجون على محيط الحرارة الإغريقية والرومانية. كما سموا بالليبيين والنوميديين نسبة إلى كلمة نومادوس *Nomados* الرومانية وتعني الرحال المتنقلون.

فبالإضافة إلى الاختلاف في اسم سكان شمال إفريقيا اختلف المؤرخون كذلك في أصلهم وهناك كتابات كثيرة في هذا الشأن. فالمؤرخون العرب في العصر الوسيط قالوا أن البربر من أصل يمني أي من العرب العاربة. ونفس التأويل سار عليه مؤرخو الاستعمار الفرنسي في القرن الماضي وبداية القرن، فأخذوا يؤكدون على أن الامازيغ أوربيو الأصل. وكان وراء هذا الموقف أهداف سياسية محضة. لكن خلال الأربعين سنة الماضية فقد عمل الباحثون بجد، واستغلوا ما توفرت لهم من الإمكانيات الإركيولوجية. والانتروبولوجية واللسانيات في إيجاد الأصل الحقيقي لسكان المغرب القديم .

ولقد نتج عن هذه الأبحاث القول أن أصل سكان المغرب القديم له صلة وثيقة بالإنسان الذي استقر بهذه المنطقة منذ ما قبل التاريخ. ومن خلال هذه النتيجة نستنتج أن الوطن الأصلي للأمازيغ هو الموطن الذي نبتوا فيه منذ مائة قرون خلت.

ولقد تطرق العديد من الباحثين الأجانب بمختلف تخصصاتهم إلى دراسة كل ما يتعلق بسكان المغرب القديم، محاولة منهم لتحديد حضارة هذا الشعب والتعريف بها. ويأتي اختيارنا لموضوع "الآلهة التي كانت

تعبد بالمغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني" لكي نساهم ولو بشكل بسيط نتوفر عليه من معرفة متواضعة في إظهار ما يمكن إظهاره من نقاط تساهم بشكل أو بآخر في بعث موضوع أصل سكان المغرب القديم وحضارتهم ودياناتهم.

إن أهمية الموضوع وتباين الرؤى بشأنه، كانت من بين الأسباب التي دعتنا لاختيار البحث فيه، فضلا عن رغبتنا في إثراء معارفنا حول المعتقدات الدينية المحلية لبلاد المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني، كل هذا شجعنا على المضـي في اقتحام مجاهيل الموضوع، على الرغم من الصعاب التي اكتنفت طريقه. ولعل من بين أهم الإشكالات التي طمح البحث لمناقشتها، **واقتراح إجابات لها:**

ما هي المعتقدات الدينية المحلية لبلاد المغرب القديم والالهة التي كانوا يعبدونها اثناء الاحتلال الروماني؟ وهل هذه الآلهة تخصهم أم هي مستوردة؟

ولما كانت طبيعة الموضوع هي من يملي نوع المنهج المعتمد، فقد ارتأينا أن من الأنسب لموضوع بحثنا هذا أن نجمع فيه بين عدد من المناهج المتكاملة، فأعملنا المنهج التاريخي بصدد سرد الأحداث والوقائع، والمنهج التحليلي لما يستدعي الآمر تحليل النصوص والكشف عن مكنوناتها، والمنهج المقارن على اعتبار تعدد الروايات واختلافها حول المسالة الواحدة.

واستنادًا لما جاءت به الدراسات التاريخية خاصة التي تناولت تاريخ الشعوب القديمة وحضارتها. **حاولنا تقسيم موضوعنا هذا إلى مبحثين:**

المبحث الأول: حاولنا فيه التطرق إلى الفكر الديني في بلاد المغرب القديم والآلهة التي كانت تعبد آن ذاك والاحتلال الروماني !. أما المبحث الثاني: فتمحور حول الآلهة الرومانية التي كانت تعبد ببلاد المغرب القديم!

المبحث الأول

الفكر الديني في بلاد المغرب القديم
والاحتلال الروماني

المطلب الأول: نبذة عن الاحتلال الروماني لبلاد المغرب:

قبل التطرق إلى الاحتلال الروماني نعرج إلى شبه الجزيرة الايطالية التي نشأت بها روما على يد الأخوين رومولوس و يموس حسب الأسطورة، فقام رومولوي بقتل ريموس وإنشاء قرية باسمه، وأخذت تستقر بها جماعات إغريقية وترسيكية من آسيا الصغرى وتحولت بذلك إلى مدينة فدولة قوية أخذت تتوسع على شبه جزيرة ايطاليا وتوحد قبائلها، ومر نظامها السياسي بثلاث مراحل: ملكي " ٧٥٣ – ٥٠٩ ق م " جمهوري، " ٥٠٩ – ٢٧ ق م "، إمبراطوري " ٢٧ – ٤٧٦ م".

وبوصولها إلى شواطئ المتوسط تعرفت على حضارات جديدة كانت تسيطر على المنطقة هما الإغريقية والقرطاجية، وبعد حروب طويلة مع هذه الأخيرة والتي عرفت بالحروب البونية " ٢٦٤ – ١٤٦ ق م "أين تمكنت من الإطاحة بقرطاجة وحلت مكانها وبالسواحل الغربية للمتوسط، ويمكن تقسيم تاريخ المغرب القديم على عهد الاحتلال الروماني إلى ثلاث مراحل أساسية:

العهد الجمهوري " ١٤٦ – ٢٩ ق م "، والعهد الإمبراطوري الأول " ٢٩ – ٢٤٤ ق م "، والعهد الإمبراطوري الثاني " ٢٤٤ – ٤٢٩ ق م " ففي المرحلة الأولى قامت روما بتدمير قرطاجة نهائيـًا، إذ قامت بزرع أرضها ملحا وتحويل أهلها عبيدا والاستيلاء على ممتلكاتها أين أصبحت تسمى بالمقاطعة الإفريقية.

وخلال قرن من الزمن " ١٤٦ – ٤٦ ق م " استولت روما على اوتيكا ولبدة وجزء من نوميديا بعد حرب يوغرطة بقيادة قيصر، حيث أقام مقاطعة ثانية تسمى إفريقيا الجديدة، وبعد وفاة ملك موريتانيا " بوخوس ٣٣ ق م " ولم يترك وريثا للعرش قامت روما بضمها إليها

وفي المرحلة الثانية ووصول أغسطس إلى الحكم، عين على موريتانيا أحد المغاربة وهو يوبا الثاني " ٢٥ – ٢٣ ق م "وحكم بعده ابنه بطليموس حليف الشعب الروماني ضد بلده تاكفريناس " ١٧ – ٢٧ م " لكن هذا الولاء لم يشفع له حيث اغتاله كاليكولا " ٤٠ م "وبوفاته تم إلحاق موريتانيا بروما بعد تقسيمها إلى قيصرية " شرشال " و طنجية " طنجة ، و ليلي ". وعملت روما أثناء هذه الفترة على تطبيق سياسة جديدة هي

مصادرة الأراضي من المغاربة وتحويلها إلى ملكية عمومية لروما تحت اسم أراضي الأعداء المهزومين ورحلت أصحابها إلى الجبال والصحاري مثل قبائل الموسولامي المستقرة بالشمال القسنطيني وتحولت إلى قبائل بدو رحل بالصحراء . وقامت روما بمسح كل الأراضي وأعادت تقسيمها إلى مربعات يصل الواحد إلى " ٥٠.٢٣ هكتار " وفتحت مزايدة للبيع والإيجار والمصلحة وبذلك يمكن القول أن الأراضي المغاربية أصبحت مقسمت إلى : أراضي ملكية لروما، أراضي خاصة بالأباطرة، أراضي لأعضاء مجلس الشيوخ والكنيسة والفرسان، أراضي للجنود المسرحين، أراضي للمستوطنين. ولتدعيم وتعزيز هذه السيطرة قامت بإنشاء خطوط عسكرية عرفت بخطوط الليمس والذي أقيم ما بين القرنين الأول والثالث ميلادي، لحماية مصالحها من القبائل الجبلية (المور) والصحراوية (الجيتول) ومع هذه الخطوط العسكرية والتقسيم الكامل للأراضي أصبحت روما تسيطر على بلاد المغرب بكامله ضمن ما يعرف بسياسة رومنة الأراضي التي تعدته إلى رومنة الحياة الإنسانية من إدخال اللغة اللاتينية وفرض الديانة الرومانية

المطلب الثاني: الفكر الديني في بلاد المغرب القديم:

من الصعب معرفة تفاصيل تهم المعتقدات الدينية لسكان المغرب القديم بصورة واضحة، وذلك قبل وصول التأثيرات الخارجية حيث لا يوافينا المتخصصون في عصور ما قبل التاريخ بمعلومات تمكننا من معرفة أكثر بتلك الطقوس التي يمارسها سكان المغرب القديم. إذ تقتصر هذه المعطيات على الطقوس الجنائزية. فما نعرفه عن الحياة الدينية لسكان المغرب القديم هو مجرد إشاعات حيث يشير المؤرخون إلى أن البربر كانوا يدينون بالديانة الإحيائية.

لقد واكب المغرب القديم باقي الحضارات، باستبدال الصيد والقطف والترحال بالإنتاج والاستقرار والزراعة وتدجين الحيوانات، أدى كل هذا إلى اعتقاده بوجود قوى خفية تحيط به وهذا راجع إلى قصر نظره للكون والحياة على مسببات الظواهر الطبيعية والى الفائدة التي تقدمها له فجعل من الشمس والقمر والكهوف والرياح والمياه عبادة له.

عمومـًا عرف سكان المغرب القديم خلال مراحل تطور فكرهم الديني نفس الخطوات التي مر بها الإنسان بصورة عامة. انطلاقـًا من ظاهرة الاعتقاد في وجود قوى خفية تتحكم في مصيرهم إلى بعض الظواهر الدينية التي يختلط فيها السحر بالدين كالانيمة والفيتشية وصولا إلى اعتقادهم في كون الطبيعة مليئة بالأرواح الخيرة والشريرة والجن،

لدرجة أن كل حركة من الحركات من مظاهر الطبيعة وراءها روح من الأرواح، مما جعل المغاربة القدماء يمعنون التأمل في صيرورة كوكب الشمس والقمر والنجوم وفي هذا التحرك شرقًا وغربًا، ليلاً ونهارًا.

أما أصل هذه العبادة فهو محل اختلاف بين الإغريق المختصين في تقديس الكواكب وبين المصريين والفينيقيين ودليلهم في ذلك وجود أشكال القرص بمصر والساحل الفينيقي لكن عجز الديانات التوحيدية (اليهودية، المسيحية، الإسلام) في القضاء على هذا المعتقد دلالة على جذورها المحلية المغاربية.

والجدير بالإشارة هنا التذكير بدور الموت والفنا وطرقه في ظهور عقيدة الإيمان بوجود حياة أخرى وبفكرة الخلود واللحود ومحتوياتها توحي بوجود فكرة الخلود لدى سكان المغرب القديم والتي برزت معها عبادة الموتى والأسلاف، التي ستتحول بالتدريج إلى عبادة الملوك. كما عرف سكان المغرب القديم بدورهم عبادة مظاهر قوى الطبيعة التي اعتبرت مرحلة أساسية مرت منها كل الشعوب. وتتمثل هذه القوى في الجبال والكهوف والأحجار والماء والنجوم والكواكب والأشجار أو في المغارات والأماكن.

غير أن كل المصادر القديمة أجمعت على أن أولى عبادات المغاربة كانت الشمس وهذا ما ذهب إليه هيروديت وهذا لفائدتها – الدفء والإنارة – باستثناء قبائل الاترانتس "الجيتول" بالصحراء الذين كانوا يلعنونها لأشعتها المحرقة، عكس الليبيون في الشمال الذين يقدمون لها الأضاحي – قبائل النسامون المستقرون حول بحيرة تريتون - وبهذه المرحلة عرف الفكر الديني لسكان المغرب القديم ، تطورا نوعيا انتقل به إلى مستوى ظهور ما يعرف بالأرباب.

المطلب الثالث: نماذج الأرباب لسكان المغرب القديم الأصلية:

اعتمادًا على نصوص هيروديت وديودور الصقلي ورحلة حانون وصاحب رحلة سكيلاكس أصبح من المؤكد أن فكرة وجود أرباب لسكان المغرب القديم أصيلة اقتبسها الإغريق بعد ذلك، بل ويؤكد ديودور الصقلي أن "الأرباب ولدت في بلادهم وهو رأي يتفق عليه الإغريقيون ويؤكده أشهر شعائرهم (هوميروس) وإذا عدنا إلى التاريخ هيرودوت الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد فنجده يذكر أن سكان المغرب القديم الذين كانوا يعتقدون في الربة اتينا يقول "غير ان القاطنين منهم عند البحيرة الشريتونية يقربنون لاتينا خاصة من بعدها لثريثون و بوزيدون

وهذا ما يؤكد بان هذه الأرباب امازيغية في الأصل، إلا أننا لا تدري هل هذه الأسماء المعروفة بها في بلاد الإغريق هي نفسها التي كانت تعرف بها في بلاد المغرب القديم أم أن هذه الأسماء تخفي أسماءها الأصلية التي لا نعرف عنها أي شيء لحد الآن.

والشيء المؤكد لدينا هو انه في القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل كان سكان المغرب القديم يهجدون أربابا ثلاثة بل ويقيمون حفلا سنويا للربة "أثينا" تنقسم فيه عذاراهم فريقين يحارب احدهما الآخر بالحجارة والهراوات وبهذا على حد قولهم يظهر إجلالهن على نمط الأسلاف نحو تلك الربة الوطنية التي ندعوها نحن أثينا وتعتبر الفتيات اللائي يمتن متأثرات بجراحهن.

ويلاحظ أن هذه الشعيرة عن صراع طقوس ذي طابع ديني مرتبط بمعبود أمازيغي وان الهدف من هذه الصراعات الطقوسية العمل بطريقة عنيفة على طرد الأمراض والشرور والآثام، التي تسكن جسمي المصارعين، هذا فضلاً عن تجديد المقدس بتطهير الجسم من الذنوب والأخطاء التي تراكمت طيلة السنة بمعنى آخر طرد الماضي بشره على الخصوص.

ويجب التذكير أن بوزيدون وترثون يمثلان مكانة شرفية إذ يذكران ضمن المجموعة الثالثة من الأرباب الشاهدة على قسم جنيبعل. وبجانب الأرباب الثلاثة التي ذكرها هيرودوت هناك أرباب امازيغية كثيرة أخرى منها الربة "ثانيت" والربة "إفريقيا" والربة "اوليسوا". والأرباب طباكاكس" وكورزيل وأمون وانزار ومجموعة من الأرباب المعروفة بالأرباب المورية كالأرباب المذكورة في لوحة بابا وأرباب مجية وغيرها.

وهناك أرباب كان تعتقد أنها مكرية كامون وأزيس وتفنوت وسباووخ وأش. يظهر أنها أمازيغية الأصلوهذا ما سنحاول توضيحه من خلال تعريفنا ببعض هذه الأرباب.

- الرب آمون وتانيت:

إذا انطلقا من حاضرنا، نلاحظ أن الإنسان في العالم القروي خاصة الذي يرى الغنم لا يزال يبجل ويحترم بل ويقدس قرون كبش الأضحية والنذور، ويحتفظ بها في بيته اعتقادا منه أنها تدفع عنه وتقيه شر النظرة والعين. يبدو أن هذا المعتقد من بقايا رواسب العقيدة الأمازيغية العنيفة الخاصة بتقديس وبتبجيل الكبش والتي تعتبر النقوش والرسوم الصخرية من أقدم الوثائق التي تشير إليها. ولكن لماذا الكبش؟

لان الكبش يعتبر من أكثر الحيوانات شبقا وسهوانية، وقد اختير للدلالة على القدرة التناسلية المخصبة مثل الثور. ويتعلق به رمز الخصوبة ويوصف بأنه رمز القمح.

ويبدو أن أمون وهو من اكبر الآلهة عند البربرالذي يرمز له بالكبش كان يعتبر الرب الرئيسي الأمازيغي. وقد أكدت النصوص وجوده منذ القرن السادس قبل الميلاد والى غاية العهد البيزنطي. وهناك من يعتقد بان وجود الشعوب الأخرى، فهو يقابل بعل حمون البوني وزيوس اليوناني. أما أصله فقد تم الاختلاف حوله.

فقد قيل بأنه من أصل مصري وهناك من يقول انه أمازيغي، وسنحاول مناقشة هذين الرأيين لقد كان من المسلمات لغاية بداية هذا القرن. أن مصر هي التي كانت وراء انتشار من عبودتها عبر شمال إفريقيا كما أن الأكباش المتوجة أو المحاطة رؤوسها بهالة، والنحوت على النقوش الصخرية في جبال الأطلس، كانت رغم البعد الجغرافي قد ربطتن بكل بساطة بالإله المصري أمون بطيبة، والذي كان "هنري باص" قد عثر اسمه تحت شكل "امان" الذي تعني السيد.

وقد تحول آمون الالاه الكبش الى الاه شمس بعد امتزاجه مع "رع" واخذ يفرض سيطرته من منطقة الى اخرى، منتجها من الشرق تالى الغرب الى أن هيمنت عبادته على كل شمال إفريقيا. هذا الافتراض أصبح مقبولاً الى غاية القرن العشرين لأنه اتضح ان الكبش المتوج لا يمكن ان يكون هو كبش آمون – رع، لأنه وبكل بساطة ان الكبش المتوج المنحوت في النقوش الصخرية أقدم بكثير من آمون رع. ويعود الى مرحلة من العصر الحجري الحديث. كما أن الباحث "كسيل *Gsell*" كان في البداية يدافع عن الفرضية القائلة بالأصل المصري لعبادة الكبش الأمازيغي في الجزء الأول من كتابه "التاريخ القديم لشمال افريقيا" بينما تخلى عنها في الجزء السادس من نفس الكتاب.

وهذا يعني أن قيدوم مؤرخي شمال افريقيا الذي يعود الكثير من الباحثين إلى افتراضه وفرضياته قبل لأول مرة بان يعترف بأن عبادة الكبش الأمازيغي لا علاقة له بعبادة أمون المصرية.

إضافة إلى النقوش الصخرية المتعلقة به فقد وجدت في كل من، معبد الحفرة – قسنطينة – وجد به ٢٨١ نصب لأمون، (وهيبون، دلس، شرسال، تيبازة) ، كل هذه المناطق تنتمي إلى المملكة النوميدية، وهذا دليل أخر على مغاربيته، وكان الإله أمون عند المغاربة ، يعتبر الها للخير وخلود الروح والشمس.

أما تجسيده فكان على شكل شيخ يجلس على العرش ويمسك بكبش، وصورة أخرى لإنسان على رأسه قرص الشمس بمدخل المعبد وكأنه سيد للمعبد.

وتظهر مكانة أمون عند النوميد من خلال صك عملة بوعد من الرومان "سنة ٤٩ ق م" وشم على الوجه الأول يوبا الأول مكافأة لمساعدته لقوات بومي ضد قيصر والوجه الثاني صورة للإله أمون الكبش وبين قرنيه قرص الشمس.

- **الالهة تانيت:**

كانت الآلهة تانيت تشكل زوج الهي مقدس مع قرينها أمون لدى المغاربة، وكانت رمز للأمومة والخصوبة ويعود تمسك المغاربة بآلهة أنثى إلى قيمة المرأة في المجتمع القبلي واتخاذها رمزا للخصوبة أما أصل هذه الآلهة فهي محل اختلاف أيضا بين الأصل القرطاجي أو المغاربي غير ا ناهل الاختصاص يؤكدون على مغاربيتها، ويقال أن بداية انتشارها ببلاد المغرب يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

وقام الفينيقيون بنشر عبادة تانيت في بداية الأمرين على شكل دمى جميلة تهدى للأطفال المغاربة. إلا أن المؤرخ "خزعل الماجدي" يقر بان أصل هذه الآلهة بربريا فتبناها القرطاجيون وتقابلها عند الفينيقيون الخصوبة عشترتولعل تمسك المغاربة برمزها إلى يومنا هذا من خلال الابريم الفضي الذي تستخدمه المرأة في لباسها والوشم على جبهة المرأة هو خير دليل على جذورها المغاربية.

المبحث الثاني

الآلهة الرومانية التي كانت تعبد ببلاد المغرب القديم

المطلب الأول:المعتقدات الرومانية ببلاد المغرب القديم:

عرف الرومان الديانة الوثنية كغيرهم من الأمم حيث مرت بأربع مراحل رئيسية:

- المرحلة البدائية: وتمثل تعدد الآلهة (الأكل، الشرب، الجبال)، وكانت عبادة عائلية وكان في اعتقادهم أنهم بقدر ما يزداد عدد الآلهة بقدر ما يضمنون لأنفسهم الخير، ويبعدون الشر والأذى.
- المرحلة الثانية: دخول المعابد والطقوس في حياة الرومان.
- المرحلة الثالثة: نتيجة الانتصارات والتوسع الخارجي، تأثرت بالديانات الأخرى على غرار المصرية والإغريقية والقرطاجية.
- المرحلة الرابعة: تذمر العامة من تعدد الآلهة وعبادة الإمبراطور وظهور المسيحية.

المطلب الثاني: الآلهة الرومانية ببلاد المغرب القديم:

كانت أولى الآلهة التي عرفها الرومان منماوالية وهي المعروفة بالآلهة فيستا، ويسهر أفراد العائلة على خدمتها ثم بدأت في الانتشار لتصبح اجتماعية واختلفت الديانة الرومانية وتنوعت بين الآلهة المعنوية أو الروحانية كالخير والشر والسلم والنصر والحرب والآلهة السماوية ابولون، جونون، جوبيترلقد تنوعت الآلهة الرومانية بالمغرب القديم بين الأصلية والهة ذات أصول شرقية نسبتها إلى نفسها بعدما شعرت بحاجة إلى قناعة فكرية وجمالية لم توفرها لها الآلهة الأصلية.

إضافة إلى كونها جسر لمحور الآلهة من الشرق إلى الغرب وذلك عن طريق جيشها الذي كان متعدد الأصول وبذلك تبنتها وأعطتها اسم رومانيا.

المطلب الثالث: الآلهة الرومانية الشرقية:

- الإله ساتورن: يعتقد أن أصله إغريقي كرونوس بعدما فر من اليونان، واستقر بروما، وكان مختصا بالزراعة والعواصف والخصوبة واسمه مشتق من كلمة "*SATA*" وتعني الأرض المزروعة

وكانت صورة الإله ساتورن على شكل شيخ ملتحي ذو شعر طويل، ورأسه مغطى بتاج ويمسك بيده اليمنى حربة وأمامه كبش فداء . ولقد وجدت له أثار كثيرة بمعبد الحفرة (سيرتا) ويعتقد انه عبد بها من طرف الجالية الايطالية وكذا أثار بمدينة جميلة تعود إلى القرن "٣م

ويمكن القول أن سبب الانتشار الواسع لعبادة الإله ساتورن لدى المغاربة لعدة أسباب:

- ✓ فرض القوة من طرف السلطات الرومانية
- ✓ اعتبره المغاربة خليفة لبعل حمون القرطاجي وأمون المغاربي، باعتباره اله للزراعة التي كان ماسينيسا يحث عليها.

❖ الآلهة ديانا: هي نفسها الآلهة أرتميس الإغريقية وقامت روما بنقل تماثيلها وتبنتها وتعتبر آلهة للقمر وحامية للنساء وراعية للغابات والصيد وكانت تمثل بامرأة على عربة ترمي بسهم ووصلت الى المغرب مع بداية الاحتلال حيث وجد لها آثار بتبسة وشرشال.

❖ الإله باكوس: هو في الأصل الإله الإغريقي ديونيسيوس إله الكروم والخمر، ثم حوله الرومان إلى باكوس، وصور على شكل رجل عار يمسك بعنقود عنب ووجدت له تماثيل عديدة بالمغرب سواء على قطع نقدية أو نقوش حجرية في كل من خنشلة وتيمقاد وجميلة .

❖ الآلهة سيبلي: والمعروفة بالأم الكبرى، جاءت من أسيا الصغرى عام "٢٠٤ ق م" وانتشرت بسرعة في روما والمغرب القديم، وكانت عبادتها سرية.

المطلب الرابع: الآلهة الرومانية الأصلية:

❖ ثلاثي الكابيتول: كان لكل حضارة ثلاثي مقدس يعتبر حاميا لها، فالمصـريون عرفوا بإزيس واوزير وحورس، والإغريق بهيرا، اثينا، زيوس، وعند الرومان نجد جونون، منيرفا، جوبيتر، وانتشرت عبادة الثلاثي بأغلب المدن الرئيسية بروما. ووصلت عبادة الثلاثي إلى بلاد المغرب القديم مع الاحتلال الروماني، فمدينة تيمقاد بنيت على شرفه وكذلك مدينة صبراتة التي وجد بها معبد عبارة عن ثلاث حجرات، كل حجرة ترمز لإله الذي شيد خلال القرن الأول (م)

❖ الإله جوبيتر: يعتبر سيد الآلهة الرومانية وذلك لتعدد وظائفه، فهو اله البشر والسماء والطقس والزمن والبرق والمطر. ويعتبر الإله جوبيتر حامي روما والمشرف على حروبها وجالب النصر لها - في معركة قيصر ضد يوبا الأول طلب الجنود مباركة اله النصر

جوبيتر- وكان شعاره اللون الأبيض، لذا وجب على الكهنة ارتداء الأبيض، وكذا القرابين صوفها يكون أبيض، ويغلق المعبد أثناء فترة السلم وفي حالة الحرب يخرج الإله مع الجيش إلى المعارك، وأهم مناطق عبادته ببلاد المغرب نذكر: جنوب الأوراس (معبد القنطرة) الذي أقامه الإمبراطور كركلا، ومدينة و مدينة سيتيفيس، وكل المدن الرومانية.

- ❖ الإله مارس: هو اله مختص بالحرب الى جانب جوبيتر، ويرمز له برمح مقدس، وهو خاص بالمحاربين، ولا يجوز للعامة زيارة معبده إلا في شهر مارس[٧٢]، وجد له آثار بمدينة سيتيفيس التي بنيت على شرفه " ٦٩ – ٩٨ م "، وكذا مدينة لامباسيس.

وورد اسم الإله مارس في المعاهدات الرومانية مع القرطاجيين والإغريق، وتراجعت مكانته بعد انهزام روما أمام حنبعل " ٢١٦ ق م "، فامتنعوا عن زيارته وتقديم القرابين له وهذا حسب رواية المؤرخ تيت – ليف .

- ❖ الإله نبتون: من الآلهة الرومانية المعروفة، فهو اله المياه والملاحة والبحر، ويقابل عند الإغريق الإله بوزيدون وداجون الفينيقي، ومعابده جلها قرب الينابيع والعيون، تقام له احتفالات بشهر جويلية، وله آثار ببجاية، سيرتا (الجزائر)، قفصة (تونس).
- ❖ عبادة الإمبراطور: لقد عرف الرومان عبادة أو تاليه الملك مع رومولوس مؤسس روما، الذي يعتقد بأنه ابن الإله، واله أحفاده من بعده الى غاية " ٥٠٩ ق م " – قيام الجمهورية الرومانية– وبدأت عبادة الإمبراطور مع أغسطس وذلك لأعماله الجليلة التي قدمها لروما، ممثلة في إعادة العبادة الروحانية لمظاهر الطبيعة، وحارب الآلهة الأجنبية وتكون عبادة الإمبراطور بعد مماته، حيث يجتمع مجلس الشيوخ ويقرر رفعه إلى مصاف الآلهة وهذا بعد دراسة انجازاته وأعماله.

أما ببلاد المغرب القديم فكان يقام على شرفه الاحتفالات في الساحات العامة على شكل مآدب للفقراء لدلالة على سماحة الإله (الإمبراطور). وحضور المغاربة لم يكن عن قناعة وإيمان بهذه العبادة بل لشدة الجوع والحاجة، **وأهم المناطق التي اله فيها هي :**مملكة شرشال التي كانت بزعامة يوبا الثاني، حيث قام بصنع تمثال لأغسطس من الرخام الأبيض وفرضه على السكان كإله، وهذا اعتراف بالجميل، ومدينة قورينة أين عثر على كلمة أغسطس منقوشة على معبد، ومدينة جيينس (تونس) حيث وجد رأس تمثال لأغسطس.

الأسرة السيفيرية : ألهت هذه الأسرة التي تظم سبتيم سيفار " ١٩٣ – ٢١١م "، وزوجته جوليا ابنة كاهن حمص، وابنه كركلا " ٢١١ – ٢١٧ م " لمنجزاتهم في خدمة روما، وباعتبار سبتيم سيفار من أصل مغاربي (لبدة) اثر على المغاربة لدرجة التقديس، نجده في بناء المعابد والتماثيل بمدينة لبدة وكويكول (جميلة) وجاء بعده أحفاده كركلا وسيفار الكسندر " ٢٢٢ – ٢٣٥ م " اللذان ألها.

وفي الأخير يمكن القول بان عبادة الإمبراطور كانت منحصرة في المدن الرومانية فقط ببلاد المغرب القديم ولم تصل إلى المدن النوميدية، حتى الذين تأثروا بها أما لمصلحة ناو فرضت عليهم بالقوة.

العالم الإسلامي

انتشار الإسلام:

في غضون نصف قرن من وفاة النبي، كان الإسلام قد انتشر في ثلاث قارات .الإسلام ليس كما يتصور البعض في الغرب، ودين السيف كما أنها لم تنتشر في المقام الأول عن طريق الحرب.إلا أنها كانت داخل المملكة، حيث شكل خام من أشكال عبادة الأصنام وكانت متفشية، التي تم نشر الإسلام المتحاربة ضد تلك القبائل التي لم تقبل الرسالة من الله - في حين لم أجبر المسيحيين واليهود لتحويل. خارج السعودية كما أصبحت الأراضي الشاسعة التي احتلتها الجيوش العربية في فترة قصيرة مسلم ليس بالقوة من السيف ولكن عن طريق النداء الذي والدين الجديد .كان الإيمان بإله واحد والتركيز على رحمته التي جلبت أعداد كبيرة من الناس إلى حظيرة الإسلام.ولم الدين الجديد لا إكراه الناس على تحويل .واصلت العديد من البقاء اليهود والمسيحيين وحتى يومنا هذا وجدت المجتمعات مهم من أتباع هذه الأديان في الأراضي مسلم.

وعلاوة على ذلك، ولم يقتصر انتشار الإسلام إلى توسعها في وقت مبكر خارقة خارج السعودية. خلال قرون في وقت لاحق تبنت الأتراك الإسلام سلميا كما فعل عدد كبير من الناس في شبه القارة الهندية والعالم الذي يتحدث لغة المالاي. في أفريقيا أيضاً، وقد انتشر الإسلام خلال القرنين الماضيين حتى في ظل سلطة الاقوياء من الحكام الاستعمارية الأوروبية. اليوم الإسلام في ازدياد مستمر، ليس فقط في افريقيا ولكن أيضا في أوروبا وأميركا حيث يشكل المسلمون الآن أقلية بارزة.

الخصائص العامة للإسلام

كان مقدرًا للإسلام أن يصبح دين العالم وخلق الحضارة التي امتدت من نهاية واحدة من الكرة الأرضية إلى أخرى .بالفعل خلال الخلافة للمسلم في وقت مبكر، لأول مرة العرب، ثم الفرس ووضع في وقت لاحق الأتراك على وشك خلق حضارة الإسلامية الكلاسيكية .في وقت لاحق، في القرن الثالث عشر، وأصبح كل من افريقيا والهند مراكز كبير من الحضارة الإسلامية، وأنشئت بعد ذلك الممالك قريبا مسلم في العالم الماليزية الاندونيسية في حين المسلمين الصينيين وازدهرت في جميع أنحاء الصين.

عالمية الدين:

الإسلام هو دين لجميع الناس من كل ما العرق أو الخلفية أنها قد تكون .هذا هو السبب في أن الحضارة الإسلامية تقوم على وحدة وطنية والتي تقف تماما ضد أي تمييز عنصري أو عرقي .احتضنت هذه رئيسي الجماعات العرقية والإثنية والعرب والفرس والأتراك والأفارقة والهنود والصينيين والماليزيين بالإضافة إلى العديد من وحدات أصغر الإسلام وساهمت في بناء الحضارة الإسلامية .وعلاوة على ذلك، كان لا يعارض الإسلام إلى التعلم من الحضارات السابقة ودمج العلم بها، والتعلم، والثقافة في العالم وجهة نظرها الخاصة، طالما أنها لا تعارض مبادئ الإسلام .قدمت كل مجموعة إثنية وعرقية والتي اعتنقت الإسلام مساهمتها في حضارة واحدة الإسلامية التي ينتمي الجميع .وكان الكثير من التأكيد على معنى الأخوة والأخوات أن تغلبت على جميع التجهيزات والمعدات المحلية لعرق معين أو قبيلة، أو لغة - والتي أصبحت خاضعة للأخوة العالمية والأخوة في الإسلام.

يسمح للحضارة العالمية وبالتالي خلق من قبل الإسلام الناس من خلفيات عرقية متنوعة للعمل معا في زراعة مختلف الفنون والعلوم. على الرغم من أن الحضارة الإسلامية كان عميقا، وشارك حتى غير مسلم "أهل الكتاب" في النشاط الفكري الذي ينتمي الى ثمار الجميع. كان المناخ العلمي يذكرنا الوضع الحالي في الولايات المتحدة حيث العلماء ورجال ونساء التعليم من جميع أنحاء العالم وتنشط في تطوير المعرفة التي هي ملك الجميع.

في الحضارة العالمية التي أنشأها الإسلام نجح أيضا في تنشيط العقل والفكر من الناس الذين دخلوا صفوفه. ونتيجة لذلك من الإسلام، وأصبح العرب الرحل من حاملي شعلة العلم والتعلم. الفرس الذين كانوا قد خلق حضارة عظيمة قبل ظهور الإسلام ومع ذلك أنتج أكثر من ذلك بكثير العلم والتعلم في العصر الإسلامي من قبل. يمكن أن يكون هو نفسه قال من الأتراك والشعوب الأخرى التي اعتنقت الإسلام. وكان دين الإسلام نفسه مسؤولا ليس فقط لخلق حضارة عالمية فيه الناس من خلفيات عرقية مختلفة وشارك كثير، لكنها لعبت دورا مركزيا في تطوير الحياة الفكرية والثقافية على نطاق لم يسبق له مثيل. بالنسبة لبعض ٨٠٠ سنة ظلت اللغة العربية لغة رئيسية الفكرية والعلمية في العالم. خلال القرون التالية لظهور الإسلام، وحمل السلالات الحاكمة مسلم في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي شاهدا على ازدهار الحضارة الإسلامية والفكر. في الواقع كان

يحجب هذا التقليد من النشاط الفكري الوحيد في بداية العصر الحديث نتيجة لضعف الإيمان بين المسلمين جنبا إلى جنب مع الهيمنة الخارجية. واليوم وقد بدأ هذا النشاط من جديد في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي الآن أن المسلمين قد استعادت استقلالها السياسي.

لمحة تاريخية عن الإسلام

- الخلفاء الراشدين:

عند وفاة النبي، وأبو بكر، الصديق للنبي والذكور البالغين أول من أسلم، وأصبح الخليفة. حكمت أبو بكر لمدة عامين على أن يخلفه عمر الذي كان الخليفة لمدة عشر سنوات، وخلال حكمه انتشر الإسلام على نطاق واسع في الشرق والغرب قهر الإمبراطورية الفارسية وسوريا ومصر .كان عمر الذين ساروا مشيًا على الأقدام في نهاية الجيش مسلم في القدس، وأمرت حماية المواقع المسيحية .عمر كما أنشأت وزارة الخزانة أول العامة والإدارة المالية المتطورة .أسس العديد من الممارسات الأساسية للحكومة الإسلامية.

"وخلفه عمر بواسطة عثمان الذي حكم البلاد لمدة حوالي اثني عشر عاما خلال الوقت الذي واصلت التوسع الإسلامي. ومن المعروف أيضا منصب الخليفة الذي كان على النص النهائي لنسخ القرآن الكريم وإرسالها إلى أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي. وبدوره نجح من قبل علي المعروف حتى يومنا هذا لخطبه البليغة والرسائل، وأيضا لشجاعته. مع وفاته جاء حكم الخلفاء "الراشدين"، الذي عقد مكانة خاصة من الاحترام في نفوس المسلمين، وإلى نهايته.

- الخلافة الأموية:

كانت الخلافة الأموية أنشئت عام ٦٦١ على أن تستمر لنحو قرن من الزمن .خلال هذا الوقت أصبحت دمشق عاصمة للعالم الإسلامي التي تمتد من الحدود الغربية من الصين إلى جنوب فرنسا .ليس فقط لم الفتوحات الإسلامية تواصل خلال هذه الفترة من خلال شمال أفريقيا إلى إسبانيا وفرنسا في الغرب، وإلى السند وآسيا الوسطى وراء النهر في الشرق، ولكن تم إنشاء المؤسسات الأساسية الاجتماعية والقانونية في العالم الإسلامي التي تأسست حديثًا.

العباسيين:

تحولت العباسيين، والذي نجح الأمويين، عاصمة لبغداد التي وضعت في وقت قريب الى مركز لا تضاهى في المعرفة والثقافة، فضلاً عن قلب الإدارية والسياسية للعالم واسعة.

حكموا لأكثر من ٥٠٠ سنة ولكن تدريجيًا قوتها تراجعت وبقيت الحكام فقط رمزي إضفاء الشرعية على مختلف السلاطين والأمراء الذين تمارس القوة العسكرية الفعلية. أخيرا تم إلغاء الخلافة العباسية عندما هولاكو، الحاكم المغولي، القبض على بغداد عام ١٢٥٨، وتدمير جزء كبير من المدينة بما في ذلك المكتبات التي لا تضاهى.

في حين استبعد العباسيين في بغداد، وعدد من السلالات القوية مثل الأيوبيين، الفاطميون والمماليك مقاليد السلطة في مصر وسوريا وفلسطين. وأعرب عن قلق أهم حدث في هذا المجال بقدر ما العلاقة بين الإسلام والعالم الغربي كانت سلسلة من الحروب الصليبية التي أعلنها البابا والتي اعتنقها الملوك الأوروبية المختلفة. كان الغرض، على الرغم من أن السياسية، ظاهريا لاعادة الاستيلاء على الأراضي المقدسة والقدس وخاصة بالنسبة للمسيحية. على الرغم من أنه كان في بداية تم تعيين بعض النجاح، وحكم الأوروبية المحلية في أجزاء من سوريا وفلسطين، المسلمون سادت أخيرا في عام ١١٨٧ وصلاح الدين، القدس، القائد العظيم مسلم استعادت وهزم الصليبيين.

- شمال افريقيا واسبانيا:

عندما العباسيين القبض على دمشق، واحد من الأمراء الأمويين هرب وجعل الرحلة الطويلة من هناك الى اسبانيا للحكم الأموي وجدت هناك، لتبدأ بذلك العصر الذهبي للإسلام في إسبانيا .تأسست قرطبة عاصمة وسرعان ما أصبح أكبر مدينة في أوروبا، ليس فقط في عدد السكان ولكن من وجهة نظر في الحياة الثقافية والفكرية. حكم الأمويين أكثر من قرنين من الزمن حتى ضعفت وحلت محلها الحكام المحليين.

في هذه الأثناء في شمال أفريقيا، السلالات المحلية المختلفة التي عقدت حتى التأثير في سلالتي البربرية قوي نجح في توحيد الجزء الأكبر من شمال أفريقيا وكذلك اسبانيا في القرون الثاني عشر والثالث عشر. بعدهم وحكموا هذه المنطقة مرة أخرى من قبل السلالات المحلية مثل *Sharifids* من المغرب الذي لا يزال يحكم في ذلك البلد. أما بالنسبة

لاسبانيا نفسها، واصلت القوة مسلم في طريقها الى الزوال حتى هزمت آخر سلالة مسلم في غرناطة عام ١٤٩٢ وبذلك ما يقرب من ٨٠٠ عامًا من حكم مسلم في إسبانيا إلى نهايتها.

- وبعد الغزو ***Mangol:***

دمرها المغول في الأراضي الشرقية من الإسلام، وحكمت من صحراء سيناء إلى الهند لمدة قرن .لكنهم سرعان ما تحول إلى الإسلام، وأصبح يعرف باسم ايل .*Khanids* وبدوره نجح من قبل تيمورلنك ونسله الذي جعل سمرقند عاصمة لهم وحكمت ١٣٦٩-١٥٠٠ .تأخير الارتفاع المفاجئ من تيمور تشكيل وتوسيع الامبراطورية العثمانية ولكن سرعان ما العثمانيين أصبحت القوة المهيمنة في العالم الإسلامي.

الامبراطورية العثمانية

من أصول متواضعة وارتفعت الأتراك للسيطرة على كامل الأناضول وحتى أجزاء من أوروبا .في ١٤٥٣ اعتقل محمد الفاتح القسطنطينية ووضع نهاية للإمبراطورية البيزنطية .احتل العثمانيون الكثير من أوروبا و *eastem*بأكمله تقريبا من العالم العربي، والمغرب وموريتانيا فقط في الغرب واليمن، وحضرموت وأجزاء من شبه الجزيرة العربية ما تبقى خارجة عن إرادتهم .وصلوا للسلطة ذروتها مع سليمان القانوني الذي وصلت جيوش المجر والنمسا.ابتداء من القرن ١٧ مع صعود القوى الأوروبية وروسيا في وقت لاحق*Westem* ، بدأت سلطة العثمانيين في طريقها الى الزوال .لكنها ظلت مع ذلك*قوة* لا يستهان بها حتى الحرب العالمية الأولى عندما هزموا من قبل الأمم .*Westem* قريبًا اكتسبت بعد ذلك كمال أتاتورك السلطة في تركيا، وألغت ستة قرون من حكم العثمانيين في عام ١٩٢٤.

فارس

في حين أن العثمانيين كانوا المعنية في الغالب مع الجبهة *westem* من امبراطوريتهم، إلى الشرق في بلاد فارس وجاءت سلالة جديدة تسمى الصفويين الى السلطة في ١٥٠٢ .أنشئت الصفويين دولة قوية خاصة بهم والتي ازدهرت لأكثر من قرنين من الزمان، وأصبح يعرف لازدهار الفنون .وأصبحت عاصمة لهم، أصفهان، واحدة من أجمل المدن مع مساجدها مزينة بالبلاط الأزرق والبيوت الرائعة .وضع الغزو الأفغاني من ١٧٣٦ حدا للحكم الصفوي، وعلى استعداد لاستقلال أفغانستان التي

وقعت *fommally* في القرن ١٩ .سقطت بلاد فارس نفسها الى *tummoil*حتى نادر شاه، الفاتح الماضي الشرقية، وتوحيد البلاد، وحتى غزا الهند .ولكن كان حكم السلالة التي وضعتها له لم يدم طويلا .سلالة زند استغرق قريبا أكثر من أن أطاح به القاجاريين في ١٧٧٩ الذي جعل طهران عاصمة لهم وحكمت حتى عام ١٩٢١ عندما كانوا في المقابل يحل محله البهلوية.

الهند

أما بالنسبة للهند، ودخلت الإسلام في شرق الأرض من نهر اندوس سلميا .اكتسب المسلمون تدريجيا السياسي على السلطة في بداية القرن وقد١٣ *th*في وقت مبكر .ولكن جاء هذه الفترة التي اتسمت التوسع في كل من الإسلام والثقافة الإسلامية إلى نهايتها مع الاستيلاء على جزء كبير من الهند في عام ١٥٢٦ بواسطة بابور، أحد الأمراء التيموريين .أسس الإمبراطورية المغولية القوية التي تنتج الحكام الشهيرة مثل أكبر، جهانجير وشاه جهان والتي استمرت على الرغم من الارتفاع التدريجي للسلطة البريطانية في الهند، حتى عام ١٨٥٧ عندما ألغيت رسميا.

ماليزيا واندونيسيا

بدأ الإسلام أبعد الشرق في العالم الملايو، في الانتشار في القرن الثاني عشر في سومطرة *northem* وكانت الممالك *establishd* مسلم قريبا في جاوا وسومطرة وماليزيا البر الرئيسى .على الرغم من الاستعمار في العالم لغة الملايو، نشر الإسلام في تلك المنطقة التي تغطي الحالي اندونيسيا اليوم، وماليزيا، و *Phililppines*جنوب وجنوب تايلاند، و لا تزال مستمرة في شرق جزر أبعد.

أفريقيا

بقدر ما *concemed* أفريقيا، دخل الإسلام إلى شرق أفريقيا في بداية العصر الإسلامي لكنها ظلت محصورة في الساحل لبعض الوقت، إلا أن يصبح السودان والصومال على حد سواء تدريجيا المعربة وتأسلمت .ورأى غرب أفريقيا وجود الإسلام عن طريق التجار من شمال أفريقيا الذين سافروا مع قوافلهم الإبل جنوب الصحراء الكبرى .بحلول القرن ١٤ كان هناك بالفعل سلطنات مسلم في مجالات مثل مالي وتمبكتو في غرب أفريقيا وهرار في شرق أفريقيا قد أصبح مقعدًا من *leaming* الإسلامية.

اخترقت تدريجيا الإسلام على حد سواء الداخلية وجنوبا. ظهرت أيضا شخصيات كاريزمية الكبرى الذي ألهم مقاومة شديدة ضد الهيمنة الأوروبية. ولم عملية أسلمة أفريقيا لم تتوقف خلال الفترة الاستعمارية،ولا تزال حتى اليوم وكانت النتيجة أن معظم الأفارقة هم الآن من المسلمين حمل على التقليد الذي كان عمليا ما دام التاريخ في بعض مناطق أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى والإسلام نفسه .

الإسلام في الولايات المتحدة

يكاد يكون من المستحيل على التعميم حول المسلمين الأميركيين: المتحولين، والمهاجرين وعمال المصانع، والأطباء، وكلها تجعل مساهمتها في مستقبل أميركا.يتم توحيد هذا المجتمع المعقد من الايمان المشترك، ترتكز على شبكة البلاد من ألف مسجد.

كانوا مسلمين الوافدين في وقت مبكر في أميركا الشمالية. في القرن الثامن عشر كانت هناك عدة آلاف منهم، يعملون كعبيد في مزارع. هذه المجتمعات في وقت مبكر، وقطع من التراث وعائلاتهم، فقد لا محالة على هويتهم الإسلامية مع مرور الوقت. اليوم كثير من المسلمين الأميركيين من أصل أفريقي تلعب دورا مهما في المجتمع الإسلامي.

في القرن التاسع عشر، ومع ذلك، شهدت بدايات تدفق العرب المسلمين، ومعظمهم استقر في المراكز الصناعية الكبرى حيث كانوا يعبدون في غرف مستأجرة.شهد مطلع القرن العشرين وصول العديد من المسلمين مائة ألف من أوروبا *Eastem*: افتتح أول مسجد الألبانية في ولاية ماين في عام ١٩١٥، والبعض الآخر وسرعان ما تبعه، ومجموعة من المسلمين البولندية افتتح مسجد في بروكلين في عام ١٩٢٨.

في عام ١٩٤٧ تم تأسيس مركز إسلامي واشنطن خلال فترة ولاية الرئيس ترومان، وكانت مجموعة منظمات وطنية عدة حتى في الخمسينات. وشهدت الفترة نفسها من إنشاء مجتمعات الأخرى التي كانت تعيش في نواح كثيرة على غرار الإسلام. وفي الآونة الأخيرة، دخلت العديد من أعضاء هذه الجماعات حظيرة العقيدة مسلم. اليوم هناك ما يقرب من خمسة ملايين مسلم في الولايات المتحدة.

أعقاب الفترة الاستعمارية

في ذروة التوسع الاستعماري الأوروبي في القرن ١٩، وكانت معظم دول العالم الإسلامي تحت الحكم الاستعماري باستثناء مناطق قليلة مثل قلب الامبراطورية العثمانية وبلاد فارس وأفغانستان واليمن وأجزاء معينة من السعودية .ولكن حتى هذه المناطق تحت النفوذ الأجنبي، أو في حالة من العثمانيين، تحت التهديد المستمر .بعد الحرب العالمية الأولى مع انهيار الامبراطورية العثمانية، وأصبح عدد من الدول العربية مثل العراق مستقلة، تم إنشاؤها أخرى مثل الأردن وكيان جديد وحتى الآن تم تكليف أي من دول أخرى مثل فلسطين وسوريا ولبنان أو تحولت إلى المستعمرات الفرنسية . أما عن السعودية، وكان في هذا الوقت الذي أصبحت المملكة العربية السعودية الموحدة في نهاية المطاف .وأما بالنسبة لأجزاء أخرى من العالم الإسلامي، ومصر التي كانت تحكمها سلالة محمد علي منذ القرن التاسع عشر أصبحت أكثر استقلالية ونتيجة لسقوط الدولة العثمانية، وتحولت تركيا إلى جمهورية علمانية مصطفى كمال أتاتورك، والبهلوية وبدأت سلالة فصلا جديدا في بلاد فارس حيث اسمها عادت إلى شكلها التقليدي الشرقي من ايران .لكنه بقي معظم بقية العالم الإسلامي تحت الحكم الاستعماري.

إلا أنه بعد الحرب العالمية الثانية، وتقطيع أوصال الإمبراطورية البريطانية والفرنسية والهولندية والاسبانية أن بقية العالم الإسلامي على استقلالها .في العالم العربي، وأصبح لبنان وسوريا مستقلة في نهاية الحرب كما فعلت ليبيا و *shaykdoms*في جميع أنحاء الخليج وبحر العرب من قبل عام ١٩٦٠ .كان لدول شمال أفريقيا من تونس والمغرب والجزائر لخوض حرب صعبة و، في حالة الجزائر، طويلة وممتدة لنيل حريتهم التي لم تأت حتى بعد عقد من الزمن من أجل تونس والمغرب، وبعد عقدين من الزمن من أجل الجزائر .فقط لم فلسطين لم تصبح مستقلة ولكن تم تقسيم في عام ١٩٤٨ مع تأسيس دولة اسرائيل.

الهنـد

في الهند وشارك المسلمون في حركة الحرية ضد الحكم البريطاني جنبا إلى جنب مع الهندوس، وعندما جاء الاستقلال في نهاية المطاف في عام ١٩٤٧، وأنهم كانوا قادرين على خلق وطنهم، وباكستان، التي خرجت الى حيز الوجود من أجل الإسلام، وأصبحت الدولة الاكثر عددا للسكان على الرغم من مسلم بقي كثير من المسلمين في الهند .في عام ١٩٧١، ومع ذلك، اندلعت شطري الدولة حتى، شرق باكستان أصبحت *Bengladesh*.

الشرق الأقصى

الشرق أبعد من ذلك، أن الاندونيسيين اكتسبت أخيرا استقلالها من الهولنديين والملايو لهم من بريطانيا .في سنغافورة كان أول جزء من ماليزيا لكنه فصل عام ١٩٦٣ لتصبح دولة مستقلة .مستعمرات صغيرة لا تزال قائمة في المنطقة، واستمرت في البحث عن استقلالهم، ومملكة بروناي استقلالها مؤخرا في عام ١٩٨٤.

أفريقـيا

في أفريقيا بدأت البلدان أيضا كبير مع السكان مسلم كبير أو أغلبية مثل نيجيريا والسنغال وتنزانيا للحصول على استقلالها في عام ١٩٥٠ وعام ١٩٦٠ وكانت النتيجة أنه بحلول نهاية العقد الحالي من أجزاء ٦٠ في أكثر من العالم الإسلامي، وتم تشكيل في وطنية مستقلة لدول .كانت هناك، مع ذلك، والاستثناءات.فشلت الولايات مسلم في الاتحاد السوفياتي للحصول على الحكم الذاتي أو الاستقلال .ويصدق الشيء نفسه على سينكيانج (يطلق عليها تركستان *Eastem*من قبل الجغرافيين مسلم)، بينما في إريتريا وجنوب الفلبين حركات الاستقلال مسلم لا تزال مستمرة.

الولايات الوطنية

في حين أن العالم الإسلامي قد دخل في العالم الحديث في شكل دولة وطنية، تبذل محاولات مستمرة لخلق تعاون أوثق داخل العالم الإسلامي ككل، وإلى تحقيق قدر أكبر من وحدة وطنية .وينظر الى هذا ليس فقط في اجتماعات رؤساء مسلم من دولة، وإنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي (منظمة الدول الإسلامية) مع الأمانة العامة الخاصة بها، ولكن أيضا في خلق المؤسسات التي تتعامل مع كل من العالم الإسلامي .بين أهم هذه العناصر هو مسلم رابطة العالم Rabitat)قناة العالم الإسلامي) ومقرها في مكة المكرمة .السعودية لديها في

الواقع لعبت دورا محوريا في إنشاء وصيانة مثل هذه المنظمات.

إحياء و*Reassertation* من الإسلام

لم يكن المسلمون يرغبون في الحصول على استقلالها السياسي فقط .كما أعربوا عن رغبتهم في تأكيد هويتهم الدينية والثقافية .ابتداء من القرن ١٨ ظهرت المصلحين مسلم على المشهد الذي سعى لتأكيد تعاليم الإسلام، وإصلاح المجتمع على أساس من تعاليم الدين الإسلامي .وكانت واحدة من أولى بين هذه المجموعة عبد محمد بن عبد الوهاب، الذي أتى من شبه الجزيرة العربية، وتوفي هناك عام ١٧٩٢ .وقد أيد هذا المصلح من قبل محمد بن سعود، مؤسس الدولة السعودية الأولى .مع هذا الدعم كان عبد محمد بن عبد الوهاب قادرة على نشر تعاليمه، ليس فقط في السعودية بل وحتى خارج حدودها إلى الأراضي الإسلامية الأخرى حيث إصلاحاته يواصل بنفوذ حتى يومنا هذا.

في تأكيد *Islamic* القرن ١٩ أخذت عدة أشكال مختلفة بدءا من حركة المهدي في السودان و*Sanusiyyah* في أفريقيا الشمالية التي خاضت الحروب ضد المستعمرين الأوروبيين، إلى الحركات التعليمية مثل تلك التي علي كره في الهند تهدف إلى *reeducate* المسلمين. في مصر والتي، بسبب من جامعة الأزهر، لا يزال حتى يومنا هذا المركزية للتعليم الإسلامي، وعدد من المصلحين يبدو، كل معالجة بعض جوانب الفكر الإسلامي. وكانت بعض القلق أكثر مع القانون، والاقتصاد آخرين، وبعضها الآخر للتحديات التي تفرضها الحضارة الغربية مع العلم القوية والتكنولوجيا. وشملت هذه جمال الدين الأفغاني الذي أشاد في الأصل من بلاد فارس لكنه استقر في القاهرة والذي كان بطل عظيم من الإسلام، لعموم، وهذا هو حركة لتوحيد العالم الإسلامي سياسيا وكذلك دينيا. تلميذه، محمد عبده، الذي أصبح رئيس الجامعة الأزهر. وكان أيضا مؤثرة جدًا في الفقه الإسلامي والفكر. وكان أيضا من تأثير كبير تلميذه

السوري، رشيد رضا، الذي عقد موقف أقرب إلى أن عبد 'الوهاب وقفت لتطبيق صارم للشريعة الإسلامية. ومن أشهر هؤلاء المفكرين هو محمد إقبال، الشاعر والفيلسوف المتميز الذي يعتبر أبا لباكستان.

إصلاح المنظمة

وعلاوة على ذلك، والنفوذ الغربي بدأ سيتوغل في الألياف للمجتمع الإسلامي، والمنظمات نمت تدريجيا حتى كان هدفها إصلاح المجتمع في الممارسة العملية على أسس إسلامية ومنع علمانية لها .وشملت هذه الاخوان مسلم (إخوان، والمسلمين) التي تأسست في مصر والتي لها فروع في دول عديدة مسلم، وجماعة الاسلامية I-من باكستان التي أسسها المودودي مولانا مؤثر .وكانت هذه المنظمات السلمية عادة، وسعت لإعادة تأسيس النظام الاسلامي من خلال التعليم.خلال العقدين الماضيين، ومع ذلك، نتيجة للإحباط كثير من المسلمين في مواجهة الضغوط القادمة من خارج عالم علماني، يسعى البعض إلى رفض الجوانب السلبية للفكر والثقافة الغربية والعودة إلى مجتمع إسلامي أساس تماما على تطبيق الشريعة آه .' اليوم في كل بلد مسلم وهناك تحركات قوية للحفاظ على ونشر تعاليم الدين الإسلامي .وبالفعل في بلدان مثل القانون السعودي الإسلامية السعودية يجري تطبيقها في واقع الأمر هو السبب وراء التنمية والازدهار والاستقرار في البلاد .في بلدان أخرى حيث لم يتم الشريعة الإسلامية يتم تطبيقها، ومع ذلك، وينفق معظم هذا الجهد من الحركات الإسلامية في تحقيق إمكانية التطبيق الكامل لأحكام الشريعة الإسلامية بحيث لا يمكن للدولة يتمتع الازدهار جنبا إلى جنب مع وفاء للدين شعبها .ويجب على أي حال ليست رغبة واسعة النطاق للمسلمين بتطبيق القانون الديني للإسلام والتطبيقية لتأكيد قيمهم الدينية والهوية الخاصة بها يمكن مساواته مع الانفجارات العنيفة الاستثنائية التي موجودة ولكن عادة ما يتم التعامل فيها بشكل مثير، واتخاذها للخروج من نسبة من وسائل الإعلام في الغرب.

التربية والعلوم في العالم الإسلامي

في السعي الى العيش بنجاح في العالم الحديث، في الاستقلال وفقا لمبادئ الشريعة الإسلامية، وقد تم التركيز على البلدان مسلم على قدر كبير من أهمية دور التعليم وأهمية العلم والتكنولوجيا اتقان الغربية .بالفعل في القرن ١٩، وضعت بلدان مسلم معينة مثل مصر وتركيا العثمانية وبلاد فارس مؤسسات التعليم العالي حيث كانت تدرس العلوم والطب مودم خاصة .خلال هذه المؤسسات التعليمية على جميع المستويات القرن انتشرت في جميع أنحاء العالم الإسلامي .وتدرس كل العلوم تقريبا بدءا من الرياضيات إلى علم الأحياء، وكذلك مختلف مجالات التكنولوجيا الحديثة في هذه المؤسسات وأنتجت بعض العلماء ملحوظا من قبل العالم الإسلامي، من الرجال والنساء الذين مجتمعة في كثير من الأحيان التعليم في هذه المؤسسات مع التدريب في الغرب.

في أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي هناك، مع ذلك، الشعور بأن لا بد من توسيع المؤسسات التعليمية، وأيضا لديها معاييرها تحسنت إلى مستوى أفضل المؤسسات في العالم في مختلف مجالات العلوم وخصوصا والتكنولوجيا. في نفس الوقت هناك وعي الذي يجب أن يستند *leaming* النظام التعليمي تمامًا على المبادئ الإسلامية ونفوذ أجنبي القيم الثقافية والأخلاقية والأعراف، لدرجة أن كانت سلبية، سوف تتضاءل. لعلاج هذه المشكلة تم عقد عدد من المؤتمرات الدولية التربوية الإسلامية، وجهت أول واحد في مكة المكرمة في عام ١٩٧٧، والمفكرين قبل كل شيء في العالم الإسلامي معا لدراسة وتأمل في مسألة العلاقة بين الإسلام والعلم الحديث . هذا هو عملية مستمرة والتي هي في مركز الاهتمام في كثير من أنحاء العالم الإسلامي، ومما يدل على أهمية الأسئلة التعليمية في العالم الإسلامي اليوم.

تأثير العلوم الإسلامية، والتعلم وبناء على الغرب:

أقدم جامعة في العالم التي لا تزال تعمل هو ١١٠٠ عاما الجامعة الإسلامية في مدينة فاس، المغرب، والمعروفة باسم القرويين .أثرت هذا التقليد القديم للتعليم الإسلامي في الغرب إلى حد كبير من خلال إسبانيا .في هذه الأرض حيث المسلمون والمسيحيون واليهود يعيشون في معظم الأحيان بسلام لقرون عديدة، وبدأت الترجمات التي يتعين اتخاذها في القرن ١١ *th* معظمها في توليدو من الأعمال الإسلامية إلى اللغة اللاتينية في كثير من الأحيان عن طريق وسيط من علماء اليهود ومعظمهم يعرفون اللغة العربية، وغالبًا ما وكتب في اللغة العربية .نتيجة لهذه الترجمات، من خلال الفكر الإسلامي وأصبح الكثير من الفكر

اليوناني المعروف للمدارس الغربية والغربية للتعليم بدأت تزدهر. وكان يحتذى به حتى النظام الإسلامي التعليمية في أوروبا وحتى يومنا هذا الكرسي مصطلح في جامعة يعكس الكرسي العربية (حرفيًا مقعد) على أي مدرس كان يجلس لتدريس طلابه في المدارس الدينية (مدرسة للتعليم العالي .(كما *civillization* الأوروبي نما وصلت الى ارتفاع العصور الوسطى، لم يكن هناك مجال للتعلم أو شكل من أشكال الفن، وعما إذا كان من الأدب أو الهندسة المعمارية، حيث لم يكن هناك بعض التأثير من الإسلام الحالي .أصبح التعليم الإسلامي في هذا الطريق جزء لا يتجزأ من الحضارة الغربية حتى لو كان مع ظهور عصر النهضة، والغرب ليس فقط ضد تحول ماضيها في القرون الوسطى فحسب، بل أيضا تسعى لنسيان علاقة طويلة انه كان مع العالم الإسلامي، واحد الذي كان على أساس الاحترام الفكرية على الرغم من المعارضة الدينية.

الختـــــام

العالم الإسلامي لا يزال حتى اليوم أرض واسعة تمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ، مع وجود مهم في أوروبا وأمريكا، والرسوم المتحركة من تعاليم الإسلام، والسعي لتأكيد هويتها الخاصة .على الرغم من وجود القومية والايديولوجيات العلمانية مختلف في وسطهم، والمسلمين يرغبون في العيش في العالم الحديث ولكن من دون تقليد أعمى ببساطة والطرق المتبعة من قبل الغرب .العالم الاسلامي يرغب في العيش في سلام مع الغرب وكذلك في الشرق ولكن في الوقت نفسه لا أن تهيمن عليها .كان يرغب في تكريس مواردها وطاقاتها لبناء حياة أفضل لشعبها على أساس من تعاليم الإسلام، وليس لتبديد موارده في أي صراعات داخلية أو خارجية .وهو يسعى في النهاية إلى خلق فهم أفضل مع الغرب ويجب أن يفهم على نحو أفضل من قبل الغرب .يمكن أن مصائر العالم الإسلامي والغرب لا يمكن فصلها تماما، وبالتالي ما هي الا في فهم بعضنا البعض بشكل أفضل أنها يمكن أن تخدم شعوبها بمزيد من النجاح وكذلك المساهمة في تحقيق حياة أفضل للبشرية جمعاء .

الفصل الثانى

تاريخ المغرب العربى

يرجع تاريخ المغرب إلى العصور السحيقة وتعاقبت عليه حضارات الآشوليون والموستيرية، العاتيرية، الإيبروموريزية، الموريتانية الطنجية، حتى الفتح الإسلامي بالقرن الأول هجري زمن الخلافة الأموية حيث ضم المغرب وشمال أفريقيا إلى الخلافة الأموية في دمشق وبعد سقوط الأمويين أستقل بالمغرب الأدارسة وتنازعوا النفوذ في شماله مع خلفاء بني أمية في الأندلس.

حضارات فترة ما قبل التاريخ:

لقد عرف المغرب خلال فترات ما قبل التاريخ تعاقب عدة حضارات:

- العصر الحجري القديم:

الحضارة الآشولية: تعود بقايا هده الحضارة إلى حوالي ٧٠٠.٠٠٠ سنة وأهم الاكتشافات تمت بمواقع مدينة الدار البيضاء(مقالع طوما وأولاد حميدة، وسيدي عبد الرحمان (منطقة تقع جنوب الدار البيضاء)...). الأدوات الحجرية الخاصة بهده الحضارة تتكون من حجر معدل، حجر ذو وجهين....

- العصر الحجري الأوسط

الحضارة الموستيرية: عرفت هده الحضارة في المغرب بين حوالي ١٢٠.٠٠٠و ٤٠.٠٠٠ سنة ق.م ومن أهم المواقع التي تعود إلى هده الفترة حيث نذكر موقع جبل "يعود" والذي عثر فيه على أدوات حجرية تخص هذه الفترة (مكاشط...) وكذلك على بقايا الإنسان والحيوان.

الحضارة العاتيرية: تواجدت هذه الحضارة في المغرب بين ٤٠.٠٠٠ سنة و ٢٠.٠٠٠سنة وهي حضارة خاصة بشمال إفريقيا وقد عثر عليها في عدة مستويات بعدة مغارات على الساحل الأطلسي: دار السلطان ٢ ومغارة الهرهورة والمناصرة ١و٢....

- العصر الحجري الأعلى:

الحضارة الإيبروموريزية: ظهرت هده الحضارة في المغرب وأوروبا منذ حوالي ٢١.٠٠٠ سنة وتميزت بتطور كبير في الأدوات الحجرية والعظمية. أهم المواقع التي تخلد هده الفترة نجد مغارة تافوغالت والتي تقع في نواحي مدينة بركان.

العصر الحجري الحديث:

يلي هدا العصر من الناحية الكرونولوجية الفترة الإيبروموريزية وقد تواجد في المغرب حوالي ٦٠٠٠ سنة ق م. تتميز هذه الحضارة بظهور الزراعة واستقرار الإنسان وتدجين الحيوانات وصناعة الخزف واستعمال الفؤوس الحجرية... في المغرب هناك عدة مواقع عثر فيها على هده الحضارة ونذكر مثلاً: كهف تحت الغار وغار الكحل ومغارات الخيل ومقبرة الروازيالصخيرات....

- عصر المعادن:

يرجع هذا العصر إلى حوالي ٣٠٠٠ سنة ق.م وأهم مميزاته استعمال معدني النحاس ثم البرونز وأهم خصائصه ما يعرف بالحضارة الجرسية ثم حضارة عصر البرونز.

- العصر الكلاسيكي:

الفترة الفينيقية:

يرجع المؤرخ *Pline l'ancien* بدايات تواجد الفينيقيين بالمغرب إلى حوالي نهاية القرن الثاني عشر ق.م مع ذكر موقع ليكسوس كأول ما تم تأسيسه بغرب المغرب. لكن بالنظر إلى نتائج الحفريات الأثرية نجد أن استقرار الفينيقيين بالمغرب لا يتجاوز الثلث الأول من القرن الثامن ق.م. بالإضافة إلى ليكسوس نجد موكادور التي تعتبر أقصى نقطة وصلها الفينيقيين في غرب المغرب. الاكتشافات الأخيرة أغنت الخريطة الأركيولوجية الخاصة بهذه الفترة بالمغرب حيث تم اكتشاف عدة مواقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط. ومكان تواجدها هو مدينة العرائش الآن.

الفترة البونيقية:

في القرن الخامس ق م قام حانون برحلة استكشافية على طول شواطئ المغرب حيث قام بتأسيس عدة مراكز، التأثير القرطاجي يظهر بالخصوص في عادات الدفن وانتشار اللغة البونيقية. ومنذ القرن الثالث ق.م، مدينة وليلي الموريطانية كانت تخضع لحكم يشبه حكم قرطاج.

الفترة الموريتانية الطنجية:

أقدم ما ذكر حول الملوك الموريتانيين يعود إلى الحرب البونيقية الثانيةحوالي ٢٠٦ ق م وذلك حين وفر الملك باكا حماية للملك الأمازيغيماسينيسا تتمثل في ٤٠٠٠ فارساً. أما تاريخ المملكة الموريطانية فلم تتضح معالمه إلا مع نهاية القرن الثاني ق.م وذلك مع الاهتمامات التي

أصبحت توليها روما لهذا الجزء من أفريقيا. في سنة ٢٥ ق م، نصبت روما الملك يوبا الثاني على رأس المملكة. وبعد اغتيال" الملك بطليموس الأمازيغي" من طرف الإمبراطور كاليغولا سنة ٤٠ ق م تم إلحاق المملكة الموريتانية بالإمبراطورية الرومانية.

الفترة الرومانية:

بعد إحداث موريتانيا الطنجية، قامت روما بإعادة تهيئة لعدة مدن:تمودة، طنجة، تاموسيدة، زليل، بناصا، وليلي، شالة... كما قامت بإحداث عدة مراكز ذات أهداف عسكرية، وخلال هذه الفترة عرف المغرب انفتاحاً تجارياً مهما على حوض البحر الأبيض المتوسط. في سنة ٢٨٥ بعد الميلاد تخلت الإدارة الرومانية على كل المناطق الواقعة جنوب اللكوس باستثناء سلا وموكادور. مع بداية القرن الخامس الميلادي، خرج الرومان من كل مناطق المغرب.

الحضارات الإسلامية بالمغرب:

خلافاً لأقاليم وبلدان المشرق لم يكن فتح المغرب بالشيئ الهين، فقد استغرق الأمر نصف قرن من ٦٤٦م إلى ٧١٠م. وباعتناق المغاربة للإسلام ظهرت أولدولة إسلامية بالمغرب.

- الدولة الإدريسية:

بدخول المغرب تحت حكم الادارسة ظهرت بوادر انفصال هذا الإقليم عن الخلافة بالمشرق. عقب عدة محاولات تحققت هذه الرغبة بظهور أول دولة إسلامية بالمغرب هي دولة الأدارسة سنة٧٨٨م. وقد كان مؤسس هذه الدولة المولاي إدريس بن عبد الله المحض العلوي الهاشمي، الذي حل بالمغرب الأقصى فاراً من موقعة فخ قرب مكة (٧٨٦). استقر بمدينة وليلي حيث احتضنته قبيلة آوربة الأمازيغية ودعمته حتى انشأ دولته. هكذا تمكن من ضم كل من منطقة تامسنا، فزاز ثم تلمسان. اغتيل المولي ادريس الأول بمكيدة دبرها الخليفة العباسي هارون الرشيد ونفذت بعطر مسموم. بويع ابنه ادريس الثاني بعد بلوغه سن الثانية عشر. قام هذا الأخير ببناء مدينة فاس كما بسط نفوذه على وادي ام الربيعونواحي فاس بالمغرب.

- دولة المرابطين:

في حدود القرن الحادي عشر الميلادي ظهر في ما يعرف اليوم بموريتانيا مجموعة من الرحل ينتمون لقبيلتي لمتونة وجدالة واستطاع عبد الله بن ياسين، وهو أحد المصلحين الدينيين أن يوحد هاتين

القبيلتين وينظمهما وفق مبادئ دينية متخذا اسم المرابطين لحركته. وهكذا سعى المرابطون إلى فرض نفسهم كقوة فاعلة، وتمكنوا من إنشاء دولتهم عاصمتها مراكش التي أسسوها سنة ١٠٦٩م. بسط المرابطون سلطتهم على مجمل المغرب الحالي وبعض جهات الغرب الجزائري والأندلس ابتداء من١٠٨٦م.

- الدولة الموحدية:

في بداية القرن ١٢م تعاظم بالمغرب شأن المصلح الديني والثائر السياسيالمهدي بن تومرت. حيث استقر بقرية تنمل بجبال الأطلس الكبير جنوب شرق مراكش. ونظم قبائل مصمودة من حوله بغرض الإطاحة بدولة المرابطين التي اعتبرها زائغة عن العقيدة الصحيحة للإسلام، كما سمى أتباعه بالموحدين. استطاع الموحدون بقيادة عبد المومن بن علي من السيطرة على المغرب الأقصى كله بحلول سنة ١١٤٧م. كما تمكن من بسط نفوذه على شمال إفريقيا كلها والأندلس مؤسسا بذلك أكبر إمبراطورية بغرب المتوسط منذ الإمبراطورية الرومانية.

- الدولة المرينية:

ينحدر المرينيون من بلاد الزاب الكبير في الشرق الجزائري (السفوح الغربية لجبال الاوراس امتدادًا حتى منطقة المدية، ومعنى كلمة المرينيون: القبائل التي هلكت ماشيتها، وهم قبائل بدوية كان أول ظهور لهم كمتطوعين في الجيش الموحدي، واستطاعوا تشكيل قوة عسكرية وسياسية مكنتهم من الإطاحة بدولة الموحدين سنة ١٢٦٩م.

واستطاع المرينيون في عهد الأخوين أبو يحي عبد الحق(١٢٤٤-١٢٥٨ م) ثم أبو يوسف (١٢٥٨-١٢٨٦ م) أن يستولو على العديد من المدن، مكناس: ١٢٤٤ م، فاس: ١٢٤٨م. مع حلول سنة ١٢٦٩ م استطاعوا التخلص من آخر الموحدين في مراكش، وبدأوا بعدها في تنظيم جيش قوي حتى يمكنهم الاحتفاظ بالمناطق التي انتزعوها. خاضوا عدة حروب على أرض الأندلس في عهد أبو يعقوب يوسف (١٢٨٦-١٣٠٧ م)، توسعوا إلى الجزائر (الاستيلاء على وهران ومدينة الجزائر). عرفت الدولة أوجها أثناء عهدي أبو الحسن علي (١٣٣١-١٣٥١ م) ثم أبو عنان فارس (١٣٥١-١٣٥٨ م) وازدهرت حركة العمران. استطاع الأخير صد سلاطين عبد الواد والاستيلاء على عاصمتهم تلمسان، ثم واصل في غزواته حتى بلغ تونس واحتلها على حساب الحفصيين.

حكم المرينيون المغرب لمدة قرنيين لم يستطيعوا خلالها الحفاظ على الإرث الكبير الذي خلفه الموحدون. مما أجبرهم في نهاية الأمر على

توجيه اهتمامهم على الحدود الترابية للمغرب الأقصى. ستتميز نهاية حكمهم بانقسام المغرب إلى مملكتين: مملكة فاس ومملكة مراكش، إضافة إلى سقوط مجموعة من المدن في يد المحتل الإيبيري، كسبتة ١٤١٥م والقصر الصغير ١٤٥٨ وأصيلا وطنجة ١٤٧١ ومليلية ١٤٩٧،ومن بعدهم حكم المغرب الوطاسيون وتنحدر اصولهم أيضا من الشرق الجزائري.

منذ ١٣٥٨ م بدأت الدولة المرينية تتهاوى سريعًا. تولى الحكم سلاطين دون سن الرشد (١٣٥٨-١٣٧٤ م ثم ١٣٩٣-١٤٥٨ م) كانو بلا رأي، وضع هؤلاء تحت وصاية أقربائهم من الوطاسيين، كما قام أصحاب غرناطة بتولي دور الوصتية (١٣٧٣-١٣٩٣ م). آخر السلاطين عبد الحق (١٤٢١-١٤٦٥ م) استطاع أن يتخلص من أقربائه الوطاسيين بعد أن أقام لهم مذبحة كبيرة سنة ١٤٥٨ م. لم يدم الأمر على حاله وقام سكان فاس بثورة على المرينيين ثم صار أمر المغرب بعده في أيدي الوطاسيين.

- الدولة الوطاسية

الوطاسيون سلالة بربرية بدأ ظهورهم مع المرينيين حيث اقتسموا السلطة في المغرب الأقصى، فكان نصيبهم منطقة الريفومن هناك بدأ توسعهم حتى أطاحوا بدولة بني مرين، تولوا سنوات (١٣٥٨-١٣٧٥م) ثم (١٣٩٣-١٤٥٨م).

- الدولة السعدية

انطلقت حركة الشرفاء السعديين من جنوب المغرب تحديدا من مناطق درعة. وقد اتخذت شكل مقاومة جهادية ضد المحتل الإيبيري للمدن الساحلية. غير أن السعديين ما فتؤوا يتحولون إلى قوة عسكرية وسياسية تمكنت من فرض نفسها في غياب سلطة مركزية قوية قادرة على توحيد البلاد ودرء الاحتلال.

وقد ساعد في بروز دولة السعديين سلسلة الانتصارات المتلاحقة التي حققوها والتي كللت بدخولهم مراكش سنة ١٥٢٥م تم فاس سنة ١٥٥٤م. وقد كان هذا إيذانا بقيام حكم الدولة السعدية بالمغرب. لقد كان الانتصار المدوي للسعديين على البرتغال في معركة وادي المخازن (معركة الملوك الثلاث) سنة ١٥٧٨م بالغ الأثر على المغرب، حيث أعاد للمغرب هيبته في محيطه الجيوستراتيجي، كما مكنه من الاستفادة اقتصاديا خاصة في علاقته مع إفريقيا. كانت وفاة المنصور الذهبي سنة ١٦٠٣م إيذانا باندحار دولة السعديين بفعل التطاحن على السلطة بين مختلف أدعياء العرش.

الدولة العلوية:

النزاع السياسي الذي خلفه السعديون سيدوم ٦٠ سنة انقسم أثناءها المغرب الأقصى إلى كيانات سياسية جهوية ذات طابع ديني مثل إمارة تازرو والتبسوس. هكذا وابتداءا من سنة ١٦٦٤ ظهر الشريف المولى الرشيد بتافيلالت وانطلق في حملة عسكرية هدفها توحيد البلاد من التشرذم وتأسيس سلطة مركزية قوية، بسط مولى رشيد سلطته مؤسسا بذلك دولة العلويين. وقد كان على خلفه السلطان مولاي إسماعيل دور تثبيت سلطة الدولة الناشئة وفرض هيبتها. استمر عهد السلطان المولى إسماعيل ٥٠ سنة تمكن خلالها من بناء نظام سياسي للدولة. تولى السلاطين العلويون على الحكم متحديين أزمات متعددة داخلية وأخرى خارجية من أبرزها فرض الحماية الفرنسية على المغرب سنة ١٩١٢م. وبفضل التضحيات استعاد المغرب استقلاله سنة ١٩٥٦ معلنـًا عن ميلاد عهد جديد بالمغرب.

والمقصود بالمغرب هي المناطق التي تمتد من الحدود الغربية لمصر، وحتى شواطئ المحيط الأطلسي، سكنها البربر وسيطر عليها البيزنطيون، وقد احتل الرومان المغرب، ثم جاء الإسلام وتم الفتح في عصر عمر بن الخطاب ومَنْ بعده، وكان لفتنة عثمان بن عفان أثر في مواصلة الفتح، فبعد فتح مصر وليبيا، تم إنشاء مدن منها مدينة تونس ودار صناعة السفن بها، ومدينة القيروان، ثم ظهر عصر الولاة عصر التقلبات السياسية، ثم ظهرت الدول المحلية كالأغالبة الأدارسة والعُبيديين، وقد انتشر المذهب المالكي في المغرب الإسلامي.

ولم يستقر أمر ولاة إفريقيا في عصر بني أمية سيطر الخوارج الصفرية على المغرب الأقصى، وظهرت الإباضية في المغرب الأدنى والأوسط، وشهد العصر العباسي تقلص سلطة الخلافة على الولايات؛ وظهرت الفتنة الكبرى، فاستقلت الولايات الإفريقية وصارت دولاً مستقلة؛ مثل: دولة بني مدرار في سجلماسة، والدولة الرستمية في تاهرت، ودولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، ودولة الأغالبة في تونس.

وظهر المرابطون في صحراء موريتانيا، وكان من مبادئهم إبقاء عقيدة الأمة نقية، وتوحيد المغرب، وحماية الأمة من المفسدين، وحفظ الشريعة، وإعداد الأمة إعدادًا جهاديًّا، وكان من حكامها يوسف بن تاشفين فاستنجد به أمراء الطوائف بالأندلس، فمنحهم الله النصر في موقعة الزَّلاَّقة، وبعد سنوات ضَمَّ الأندلس إليه للحفاظ على المسلمين هناك.

وبعد عهد يوسف بن تاشفين ضعف المرابطون، لانغماسهم في الملذات، وانحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثي، والتعصب المذهبي، وحلول الجفاف بالأندلس والمغرب، وانتشار الأوبئة، وظهور الموحدين على يد محمد بن تومرت.

وعندما تولَّى أبو يوسف يعقوب الموحدي كان عهده العصر الذهبي لدولة الموحدين، ثم بدأ عصر الضعف من جرَّاء ظلمهم وسفكهم للدماء، وثورات الأعراب والأندلسيين عليهم، والنزاع على الخلافة بينهم، والانهيار العسكري، والانغماس في الشهوات، وتقلُّص الدولة في إفريقيا والمغرب والأندلس، فقامت دولة الحفصيين في تونس، ودولة بني عبد الواد في تلمسان، وحُكْم بني مرين في المغرب الأقصى، واحتل البرتغاليون شواطئ المغرب، فظهر السعديون بقيادة القائم بأمر الله، فأنهى حكم بني وطاس، وانتصر على البرتغاليين، وكان العثمانيون يدعمون السعديين، فأوقعوا بينهما، فضم العثمانيون المغرب الأقصى إليهم، وازداد النفوذ اليهودي في الدولة العثمانية، ومع ضعف الدولة العثمانية برزت الأسرة القرمانية في ليبيا.

وكان الاحتلال البرتغالي لتعقب المسلمين وتطويق العالم الإسلامي واستعانوا في ذلك بالحبشة فظهرت الكشوف الجغرافية وتلاها الاستعمار الأوربي للقارة، فظهرت المقاومة الإسلامية في مواجهة الاحتلال حتى نالت استقلالها؛ كما في ليبيا بقيادة الشيخ أحمد السنوسي ومعه الشيخ عمر المختار، والجزائر بقيادة محيي الدين الحسني، والمغرب بقيادة الشيخ الهبة ابن الشيخ ماء العينيين، وغيرهم.

<u>شمال إفريقيا والبربر:</u>

يرادف لفظ أو مصطلح "المغرب" اصطلاح "شمال إفريقيا"، والذي استعمله الجغرافيون والمؤرِّخون عند الحديث عن المناطق التي تمتد من الحدود الغربية لمصر، وحتى شواطئ المحيط الأطلسي.

وكانت بلاد المغرب الأدنى تضم برقة، وطرابلس وتمتد غربًا حتى بجاية أو تاهرت، وقاعدتها مدينة القيروان. أما بلاد المغرب الأوسط فتضم المنطقة الممتدة من تاهرت وحتى وادي ملوية وجبال تازة غربًا، وقاعدتها تلمسان وجزائر بني مزغنة. وأما المغرب الأقصى فيمتد من وادي ملوية وحتى مدينة أسفي على المحيط الأطلسي وجبال درن جنوبًا

✓ **وكان المغرب موطنًا لصنفين من البشر، هما:**

١. **البربر:** وهم أهل الإقليم.
٢. **البيزنطيون:** وهم المحتلون للإقليم، وكان تركزهم في المناطق الساحلية أكثر من وجودهم داخل البلاد.

يجب أن نتعرَّف بدايةً على صفات الشخصية البربرية؛ لكي نستطيع تفسير ما جرى في أحداث الفتح من مقاومة شديدة من قِبَل البربر للإسلام، ثم اندفاعة البربر بعد إسلامهم نحو الفتوح بكل قوة.

فالبربر يصفهم ابن خلدون بأنهم مرهوبو الجانب، شديدو البأس، تخلقوا بالفضائل الإنسانية من خلق وعز وكرم. ومفتاح شخصية هذا البربري هو تمسكه بحريته، يدافع عنها بإصرار، وتاريخه يُنبئ عن هذا، ومقاومته ضد الرومان والبيزنطيين نجحت أحيانًا في بعض المناطق، فتأسست على أساسها دويلات بربرية مستقلة، ولم يُثنِ البربر عن ثورتهم طوال فترة الثورة التضحياتُ بالروح والمال.

كما تشتمل قصة المغرب على عدة عصور؛ إذ كانت محتلة من قِبَل الرومان قبل الفتح الإسلامي، أما بعد ذلك فكان هناك عصر الفتح الإسلامي، والذي امتد من سنة ٢١هـ إلى سنة ٩٨هـ، بينما بدأ عصر الولاة من ٩٨هـ إلى ما بين ١٤٤ - ١٨٤هـ حسب اختلاف الولايات، ثم عصر الدول المحلية كالأغالبة، والأدارسة، والعُبيديين (الذين انتسبوا زورًا للسيدة فاطمة رضي الله عنها، وسموا أنفسهم الفاطميين)، ثم دولة المرابطين، فالموحدين، والدولة الحفصية، والرُّستمية، والمرينية وغيرها، حتى وقعت الدول المغربية تحت الاحتلال الأجنبي في القرن التاسع عشر.

ويُعتَبر عصر الفتح عصر جهاد دائم ومستمر، واجه فيه المسلمون انتفاضات البربر المستمرة بزعامة الكاهنة، كما واجهوا الروم، وانتصروا عليهم، حتى استقر الأمر للمسلمين، وقد تمَّ فتح المغرب - منذ بدايته حتى استقرار الإسلام به - خلال فترة حُكم عدد من الخلفاء، هم:

١. عمر بن الخطاب.
٢. عثمان بن عفان.
٣. علي بن أبي طالب.
٤. معاوية بن أبي سفيان.
٥. عبد الملك بن مروان.
٦. الوليد بن عبد الملك.

وكان القادة الكبار الذين تولوا تبعاته، هم:

أولاً: قادة فتح ليبيا:

١- عمرو بن العاص.
٢- عبد الله بن سعد بن أبي السرح.

٣- معاوية بن حديج.
٤- بسر بن أبي أرطاة العامري.
٥- عبد الله بن الزبير بن العوام.

ثانيًا: قادة فتح تونس:

١- عبد الملك بن مروان.
٢- رويفع بن ثابت الأنصاري.

ثالثًا: قادة فتح الجزائر:

١. أبو المهاجر دينار.
٢. عقبة بن نافع الفهري.
٣. زهير بن قيس البلوي.
٤. حسان بن النعمان الغساني.

رابعًا: قادة فتح المغرب:

١. عقبة بن نافع الفهري.
٢. حسان بن النعمان الغساني.
٣. موسى بن نصير اللخمي.

وكان عصر الولاة عصر تقلبات سياسية، وانتفاضات بربرية، ثم أتى عصر الدول المحلية التي انفصلت عن الخلافة العباسية، وكان منها دول شيعية، وأخرى خارجية، وثالثة سُنية.

تطلع أهل ليبيا للخلاص الإسلامي:

نبدأ قصة المغرب من عصر الفتوح؛ إذ سبق الفتح الإسلامي للمغرب إرهاصات وأحداث وقضايا سياسية، ونزاعات عرقية وثورات محلية في مدينتي برقة وطرابلس، كان لها أثر بالغ في تغيير مجريات الأحداث السياسية والدينية في المنطقة، وتهيئة نفوس أهالي ليبيا لقبول الإسلام؛ حيث إنهم كانت قد بلغتهم أخبار فتح المسلمين لبلاد الشام ومصر، فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي المسلمين من أولئك البيزنطيين وحكمهم الجائر التعسفي.

لذلك حاول نفر من أهالي ليبيا التمرد على نظام الإمبراطورية البيزنطية والخروج إلى ناحية مصر، حتى يلتقوا بقائد الجيوش المسلمة عمرو بن العاص رضي الله عنه، وكان يومئذٍ حاكم مصر، وما أن وصل هؤلاء النفر حتى أعلنوا إسلامهم ودخلوا في دين الله سبحانه، وأعطوا

ولاءهم لقيادة المسلمين بقيادة عمرو بن العاص، نيابة عن خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولما كان الحال في المغرب كذلك، فقد قرَّر عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يضع إستراتيجية أمنية وقائية لمصر من الناحية الغربية؛ حتى يأمن شرَّ الروم القاطنين ناحية برقة وطرابلس، بعد أن أمن فتوحاته الشامية، وذلك بفتحه الإسكندرية.

كما قرَّر عمرو بن العاص رضي الله عنه إرسال عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه في سنة ٢٢ هـ/ ٦٤٢م - على الأرجح بعد استئذان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه - كمقدمة استطلاعية لفتح المغرب، فافتتح عقبة زويلة صلحًا.

وفي نفس العام سار عمرو بن العاص بنفسه من مصر حتى بلغ برقة، وكانت تنزلها بعض بطون من قبائل لتوانة وزواغة، وكانت هذه القبائل ساخطة على البيزنطيين لما كانوا عليه من الظلم والعسف وجباية الضرائب منهم، فصالحوا المسلمين على الجزية، وكان أهلها يرسلون ما عليهم من الأموال إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث

وفي نفس السنة (٢٢ هـ/ ٦٤٢م) وصل عمرو بن العاص إلى مدينة أجدابية فافتتحها صلحًا على أن يدفع أهلها خمسة آلاف دينار، ولكن ما لبثوا على دفع الجزية إلا قليلاً، حتى أسلم معظم أهلها بعد أن رأوا من الفاتحين من العدالة والمساواة والصدق والأمانة والطهارة والعفة ما لم يروه من قبل في جيوش تلك الإمبراطوريات الهالكة.

بعد وفاة عمر رضي الله عنه تولى عثمان رضي الله عنه، وكان من أهم أعماله أنه عمل على توطيد نفوذ المسلمين في كثير من البلاد التي تمَّ فتحها من قبل، كما نجح ولاته في ضم مناطق جديدة إلى حوزة الدولة الإسلامية.

وحين تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه خلافة المسلمين عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر سنة (٢٦ هـ/ ٦٤٦م) وعقدها لعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وطلب عبد الله بن سعد بن أبي سرح الإذن من عثمان رضي الله عنه لاستكمال الفتوح في إفريقيا.

الفتنة تؤخر الفتوح الإفريقية:

كان لا بد أن تؤثر فتنة عثمان رضي الله عنه وما تلاها من أحداث في نشاط الفتوح الإسلامية؛ إذ لم يكن من الميسور للقادة والجند أن يستمروا فيما كانوا آخذين فيه من فتوح بعد أن شبت نيران هذه الفتنة، ولا شك أن الأمداد قد انقطعت عنهم، وتوقعوا أن تحول حروب الداخل دون إرسال الجند إلى الأطراف فتركوا ما بأيديهم، ولبث بعضهم حيث هو

ينتظر نتيجة الصراع المحتدم، وعاد البعض الآخر إلى الحجاز والشام ليسهم في هذه الأحداث .لقد شغل المسلمون عن إفريقيا والفتوح عامة بسبب فتنة عثمان رضي الله عنه ، ثم الحرب بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، ولم يتجدد نشاط الفتوح مرة أخرى إلا بعد استقرار الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ/ ٦٦١م.

نشطت حركة الفتوح خلال عصر الدولة الأموية، وبدأ المسلمون يمارسون دورهم الحضاري في النهضة بأمر البربر، مع ترسيخ الوجود الإسلامي في المغرب، **وقد كان من مظاهر ذلك:**

١. إنشاء المدن والعناية بها:

✓ بناء تونس:

اختط هذه المدينة القائد حسان بن النعمان الغساني عام ٨٢هـ؛ لتكون قاعدة عسكرية بحرية، ولتحول دون تكرار البيزنطيين الهجوم على قرطاجة عام ٧٨هـ .بنى حسان بن النعمان مدينة تونس على أنقاض قرية قديمة عرفت باسم ترشيش القديمة، وإنما سميت تونس في أيام الإسلام لوجود صومعة الراهب، وكانت سرايا المسلمين تنزل بإزاء صومعته، وتأنس لصوت الراهب، فيقولون: هذه الصومعة تؤنس؛ فلزمها هذا الاسم فسميت باسم تونس .واختط حسان تونس غربي البحر المتوسط بنحو عشرة أميال، فقام بحفر قناة تصل المدينة بالبحر لتكون ميناء بحريًّا ومركزًا للأسطول الإسلامي بعد أن أنشأ فيها صناعة المراكب، بخبراء في هذه الصناعة زوده بها والي مصر عبد العزيز بن مروان بناءً على توجيه الخليفة عبد الملك .وقد بنيت مدينة تونس طبقًا لأهداف سياسية إستراتيجية، وأهداف اقتصادية اجتماعية تبناها الخليفة عبد الملك.

أمّا الأهداف السياسية البعيدة المدى، فيتضح ذلك بوضع حد لاعتداءات الروم والمتمثلة بإغارتهم على الساحل الإفريقي، والسبيل الأمثل هو إيجاد قاعدة بحرية، وصناعة بحرية قادرة على إنشاء أسطوله مهمته صد العدوان الرومي بادئ الأمر، ثم الانتقال من مرحلة التصدي إلى الغزو والفتح فيما بعد، وقد تمثل تطبيق هذه المرحلة من قبل الخليفة عبد الملك فقام بالإيعاز لشقيقه والي مصر عبد العزيز بن مروان، لإرسال ألفي قبطي من مهرة الصناع لإقامة صناعة مراكب بحرية، وقام هؤلاء بالمهمة الموكلة إليهم خير قيام.

وأما الهدف الثاني: فيتمثل بإيجاد حياة اجتماعية بإيجاد المؤسسات القادرة على خدمة الأفراد، فأقام في المدينة المسجد الجامع، ودار الإمارة، وثكنات للجند للمرابطة، وأخذ يقوم بتدوين الدواوين، وتنظيم الخراج والعناية بالدعوة الإسلامية بين البربر، فقام بإرسال الفقهاء ليعلموهم اللغة

العربية والدين الإسلامي، وصارت المدينة معسكرًا حربيًّا في البداية، ومركز استيطان وإدارة لدعم الفتوحات، وأخيرًا مركزًا حضاريًّا ومركز إشعاع فكري وعلمي وثقافي.

وهكذا رسخ الخليفة عبد الملك بن مروان أقدام الدولة الأموية بتأسيس مدينة تونس، وقطع دابر الغارات البيزنطية بإيجاد مدينة إسلامية مرتبطة بالأهداف العليا للدولة .

✓القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب:

لم تبدأ الحياة العلمية المركَّزة إلا بعد تأسيس القيروان سنة ٥٠هـ، فسرعان ما أصبحت القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمته العلمية، منها انطلق الدعاة وإليها رحل طلاب العلم من الآفاق. ولا شك أن الصحابة الذين كانوا في جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود في مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء تأسيس القيروان ثمانية عشر صحابيًّا، وقد مكثوا فيها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها - ولا شك - نشر اللغة العربية، وتعليم القرآن والسنة في جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غيابًا طويلاً عن القيروان، أمّا في غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابيًّا، وسائر جيشه من التابعين.

ولقد استقطبت القيروان أعدادًا هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة: "فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبُرَ جمعُه، ودخل أكثر البربر في الإسلام ورسخ الدين، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة."

ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكرًا في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام، ولما جاء أبو المهاجر دينار لولاية إفريقيا تألَّف كُسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجًا ودعّم حسان بن النعمان - فيما بعد - جهود عقبة في نشر الإسلام بين البربر حيث خصّص ثلاثة عشر فقيهًا من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام، وواصل موسى بن نُصير هذه المهمة حيث: أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن، وأن يفقّهوهم في الدِّين، وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهًا لتعليم أهله.

إنشاء دار صناعة السفن بتونس:

عـزَّزت الدولـة الأمويـة القـوة العسـكرية بإنشـاء سـلاح البحريـة، وأقامت دارًا لصناعة السفن في تونس، وزودت هذه الدار بما يلزمها من المواد والصناع.

٢. التوسع في الصناعات الحربية:

توسـعت هذه الصـناعة فـي عهد عبد الملـك بـن مروان وفتح دارًا بتـونس لصـناعة السـفن الحربيـة، وكانـت نـواة تلـك الـدار ألـف عامـل متخصـص فـي صـناعة السـفن تـم نقلهـم مـن دار الصـناعة ـ المنطقـة الصناعية ـ بمصر، وقد تم وضع التنظيم اللازم وطريقة إمداد تلك الدار بالأخشاب من الغابات الإفريقية الداخلية، واختيار جماعات من البربر من سكان تلك المناطق للقيام بتلك المهمة، حيث هم أخبر الناس بمناطق وجود الأخشاب الجيدة الملائمة لتلك الصناعة.

وفي إرسال دار الصناعة بمصر لألف عامل ليكونوا نواة التصنيع بتونس، ما يدل على مدى تطور تلك الصناعة بمصـر وكبر حجمها. وفـي تطور لاحق لصناعة السفن الحربية بتونس، قام والـي تونس بتوسيع دار الصناعة بها؛ فشق قناة بين الميناء وبين المدينـة بطول اثنـي عشر ميلاً، وشكلت هذه القناة ما يماثل اليوم أحواض بناء السفن أو الأحواض الجافة وأصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكاني .

عصر الولاة:

عرف المغرب بداية عصر الولاة بدءًا من عام ٩٨هـ، والذي كان عصـر قلاقل واضطرابات، وقد بدأت تلك الاضطرابات بعدما اختـار سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبـي مسلم واليًا على إفريقيـة، وكان شديدًا كالحجّـاج، وأراد أن يسير فيهم سيرة الحجّـاج فـي أهل العراق؛ فكانـت النتيجـة أن قتلوه، ومن بعدها لم يستقر أمر ولاة إفريقيـة فـي عصـر بنـي أميـة، وشهد المغرب الفتنـة المغربيـة الكبرى التـي تضخمت فـي العصـر العباسي، حتى وصلت إلى استقلال الولايات الإفريقية، وإقامة دول مستقلة فيها.

لقد سيطر الخوارج على المغرب في أواخر عهد الدولـة الأمويـة، وسار إليهم محمد بن الأشعث فدخل إفريقيـة وفيها عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري يقاتل الخوارج.

فقد برزت الخوارج الصفرية فـي المغرب الأقصـى وسـيطرت عليه، وظهرت الإباضية في المغرب الأدنى والأوسط، وأخضعت أجزاءً واسعة لنفوذهـا، وكان عبد الرحمن بن حبيب يقاتل الخوارج عندما قامت الدولـة العباسية.

وفي عام ١٥٥هـ جاء يزيد بن أبي حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة واليًا على إفريقية فانتصر على الخوارج الإباضية والصفرية، واستطاع أن يفرض نفوذ العباسيين في المغرب قبل نهاية حكم المنصور، وبقي يزيد بن حاتم في المغرب حتى عام ١٧٠هـ.

ثم سادت الاضطرابات في إفريقية اعتبارًا من عام ١٧١ هـ/ ٧٨٧م بفعل خروج الخوارج وقادة الجند والبربر؛ فأرسل الرشيد هرثمة بن أعين واليًا على إفريقية، وأمره بقمع الانتفاضات وتوطيد الأمن، فنجح في مهمته ودخل القيروان وأمَّن الناس.

ويبدو أن الخلافات بين الفئات الإسلامية المتعددة كانت واسعة فتجددت القلاقل، ولم يتمكن هرثمة من رأب الصدع، فعزله الخليفة بناءً على طلبه في عام ١٨٠ هـ/ ٧٩٦م، كما لم يتمكن الولاة الذين جاءوا من بعده من السيطرة على الموقف، فاستغل إبراهيم بن الأغلب عامل إقليم الزاب (في الجزائر اليوم) هذه الأوضاع القلقة، وطلب من الخليفة توليته على إفريقية ووعده بتهدئة الوضع، استجاب الخليفة لطلبه، وعهد إليه بالولاية على إفريقية في عام ١٨٤ هـ/ ٨٠٠م، ونجح إبراهيم في تحقيق الاستقرار متبعًا في ذلك سياسة معتدلة، وازدهرت إفريقية في عهده وشهدت حركة عمرانية واسعة ونشاطًا اقتصاديًّا كبيرًا، وقد مهَّد إبراهيم بهذا لقيام دولة الأغالبة التي ما لبثت أن استقلت عن الإدارة المركزية في بغداد، واتخذت القيروان حاضرة لها.

لقد شهد العصر العباسي تقلص سلطة الخلافة عن الولايات؛ مما مهَّد السبيل لكل ناقم على الدولة، أو مخالف لها لأن يقيم دولته الوراثية الخاصة في أطراف الخلافة، وقد كان من هؤلاء إبرهيم بن الأغلب الذي أقام دولة الأغالبة، ولكن بموافقة الخلافة العباسية.

<u>وهذه نماذج لبعض الدول المحلية:</u>

✓ دولة بني مدرار في سجلماسة (١٤٠ ـ ٣٤٩هـ/ ٧٥٧ ـ ٩٦٠م):

توفي أبو القاسم سمكو مؤسس دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة (جنوب المغرب) عام ١٦٨هـ، وخلفه ابنه إلياس بن أبي القاسم والذي عرف باسم "أبو الوزير"، واستمرت أيامه حتى عام ١٧٤هـ، وخلفه أخوه اليسع بن أبي القاسم، وبقي في حكم هذه الدولة حتى عام ٢٠٨هـ، وقد عرف باسم "أبو المنصور"، وقد ثارت الإباضية في أيامه في وادي درعة، ولكنه قضى على ثورتهم وبطش بهم.

وكما هادن الإباضيون ولاة العباسيين في القيروان، كذلك هادنهم الصفرية الذين اتجهوا نحو أوضاعهم الداخلية والاقتصادية حيث كانوا تجارًا بين الشمال والجنوب عبر الصحراء، وكذلك فقد جعلوا الحكم وراثيًّا كالإباضيين.

كانت الصفرية والإباضية من أكثر المذاهب الخارجية المنتشرة بالمغرب، وإنهما من أكثر مذاهب الخوارج تسامحًا واعتدالاً مع مخالفيهم في الرأي، إذا ما قورنوا بفرق الأزارقة والحرورية في المشرق؛ لأن الصفرية والإباضية لم ترضيا إباحة دماء المسلمين، أو جواز سبي النساء والذرية، ولا يريان قتال أحد من الناس سوى جيش السلطان فلم يكفروا القاعدين عن القتال، ولم يُسقطوا الرجم، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم في النار، ومرتكب الكبيرة عندهم عاصٍ وليس كافرًا مشركًا.

✓ الدولة الرستمية في تاهرت (١٤٤ ـ ٢٩٦ هـ / ٧٦١ ـ ٩٠٨ م):

قامت دولة للخوارج الإباضية في تاهرت (غرب الجزائر) إذ أسسوا هذه المدينة عام ١٦١هـ، وأصبح عبد الرحمن بن رستم إمامًا لهذه الدولة، وقد هادن ولاة القيروان .وبعد وفاته عام ١٧١هـ، خلفه ابنه عبد الوهاب واستمر حكمه إلى ما بعد هارون الرشيد، وقد هادن ولاة إفريقية من قبل العباسيين، وقد لقي عبد الوهاب حركات ضده بسبب مخالفته للمذهب الإباضي الذي لا يقبل بالحكم الوراثي، وإنما يكون الرأي في اختيار الحاكم لأهل الحل والعقد، أما عبد الوهاب فقد تسلم الحكم من أبيه رغم وجود من هو أفضل منه وأكثر علمًا؛ لذا فقد قامت حركة قادها يزيد بن فندين وعرفت بالنُكّار، أي الذين ينكرون تصرف ولي الأمر بالحكم.

وعقيدة الإباضية تتفق مع أهل السنة في الكثير، وتختلف في القليل، فهم يعترفون بالقرآن والحديث كمصدر للعلوم الدينية، ويقولون بالرأي، ويأخذون بالإجماع.

ولعل أهم خلاف بينهم وبين السنة قولهم بالتنزيه المطلق؛ ولذلك فإنهم يقولون: إن رؤية الله منفية في الدنيا والآخرة. ويقولون أيضًا: إن الوعد والوعيد لا يتخلفان، بمعنى أن وعيد الله لا يتخلف، فمن دخل النار فهو خالد فيها، والمذنب تطهره التوبة، ولا يدخل السعيد النار.

✓ **دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (مراكش) (١٧٢ ـ ٣٧٥ هـ / ٧٨٨ ـ ٩٨٥م):**

فرَّ إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من الحجاز، وقد نجا من موقعة فخ عام ١٦٩هـ / ٧٨٥م، إلى المغرب

الأقصى حيث استطاع أن يؤسس دولة مستقلة عن الخلافة العباسية عام ١٧٢هـ، وبنى في المكان المعروف باسم جراوة مدينة فاس، واتخذها عاصمة له، واستمر في حكمه حتى توفي مسمومًا عام ١٧٧هـ، فخلفه ابنه إدريس الثاني الذي كان جنينًا في بطن أمه عندما مات أبوه، وقام بشئون البربر مولى أبيه راشد، فلما قتل راشد كفل إدريس أبو خالد العبدي، حتى كبر فتولى الأمر عام ١٨٨هـ، وبنى مدينة العالية وهي مقابل مدينة فاس.

ومن أشهر أمراء الأدارسة إدريس الثاني (١٧٧ ـ ٢١٣ هـ)، علي بن عمر بن إدريس الثاني (٢٢١ ـ ٢٣٤ هـ)، ويحيى الرابع بن إدريس بن عمر (٢٩٢ ـ ٣١٠ هـ).

✓ **دولة الأغالبة في المغرب الأدنى (تونس) (١٨٤ ـ ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ ـ ٩٠٩ م):**

ذكرنا أنه في عام ١٨٤ هـ ولَّى الخليفة هارون الرشيد إمارة إفريقية لإبراهيم بن الأغلب، ومنذ أن تولى إبراهيم الإمارة بدأ يعمل على تأسيس دولة له ولأبنائه من بعده.

عرف الرشيد رغبة إبراهيم بن الأغلب، ومع ذلك فقد استبقاه في الإمارة بل ودعمه ما دام يعمل باسم العباسيين، وخاصة أن الرشيد كان مشغولاً بحرب الروم، وهجوم الخزر، ومشكلات المشرق، وفي الوقت نفسه يريد أن يحمي الأجزاء الغربية من الإمارات التي قامت في المغرب والأندلس من خوارج وأدارسة وأمويين، ولم يكن لدى الرشيد أسطول يحمي أقاليم البحر المتوسط فاكتفى بالإشراف على دولة إبراهيم بن الأغلب، ورأى ذلك خيرًا وأفضل من أن يخرجوا من إشرافه نهائيًّا كباقي الإمارات.

ومن أشهر أمراء دولة الأغالبة إبراهيم بن الأغلب (١٨٤ ـ ١٩٦هـ)، وعبد الله الأول (١٩٦ ـ ٢٠١ هـ)، وزيادة الله الأول (٢٠١ ـ ٢٢٣ هـ)، ومحمد الأول أبو العباس (٢٢٦ ـ ٢٤٢ هـ)

✓ دولة المرابطين ومبادئهم

في صحراء موريتانيا البلد الإسلامي الكبير، وبالتحديد في الجنوب القاحل حيث الصحراء الممتدة، والجدب المقفر، والحرّ الشديد، كانت تعيش بعض قبائل البربر، ومن قبائل البربر الكبيرة كانت قبيلة "صنهاجة"، وكانت قبيلتا "جُدَالَة ولَمْتُونة" أكبر فرعين في "صنهاجة".

كانت "جُدَالة" تقطن جنوب موريتانيا، وكانت قد دخلت في الإسلام منذ قرون، وكان على رأس جدالة رئيسهم يحيى بن إبراهيم الجدالي، وكان لهذا الرجل فطرة سويّة وأخلاق حَسَنة.

نظر يحيى بن إبراهيم في قبيلته فوجد أمورًا عجيبة، فقد أدمنوا الخمور، وأَلِفوا الزنا، فقد فشا الزنا بشكل مريع في جنوب موريتانيا في ذلك الزمن، وكثر الزواج من أكثر من أربعة، والناس ما زالوا مسلمين ولا ينكر عليهم أحد ما يفعلونه، فالسلب والنهب هو العرف السائد، القبائل مشتتة ومفرقة، القبيلة القوية تأكل الضعيفة.

كان يحيى بن إبراهيم الجُدالي صاحب الفطرة النقيّة يعلم أن كلّ ما يفعله قومه من المنكرات، لكنه لم يكن بمقدوره التغيير؛ فالشعب كله في ضلال وعمى، وبعيد كل البعد عن الدين، كما أن الرجل نفسه لا يملك من العلم ما يستطيع به أن يغيّر الناس.

وبعد حيْرة وتفكّر هداه ربُّه لأن يذهب إلى الحج، ثم وهو في طريق عودته يُعرّج على حاضرة الإسلام في المنطقة وهي مدينة القيروان (في تونس الآن)، فيكلّم علماءَها المشهورين بالعلم لعلّ واحدًا منهم أن يأتي معه فيُعلّم قبيلته الإسلام.

وبالفعل أكرمه الله عزَّ وجلَّ بالشيخ عبد الله بن ياسين) الزعيم الأول للمرابطين، وجامع شملهم، وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم، ت ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) من شيوخ المالكية الكبار، الذي جاء معه، وأخذ يدعو الناس؛ فنفروا منه وضربوه، لكنه لم ييئس هو والأمير؛ فأقاما رباطًا يتعبدان فيه، فأخذ الناس يأتون إليهما طلبًا للهداية.

تجمع من التائبين عدد كبير منهم يحيى بن عمر اللمتوني زعيم لمتونة، ثم خَلَفَه بعد وفاته أبو بكر بن عمر، فانطلقوا بقيادة عبد الله بن ياسين الروحية، وقيادة يحيى بن عمر اللمتوني السياسية والعسكرية يدعون قومهم، ثم القبائل الأخرى التي كانت وثنية، أو عادت إلى الوثنية بعد أن كانت مسلمة؛ فمن قَبِل صار معهم، ومن عاند وعادى دعوة الحق حاربوه؛ حتى أقاموا دولـةً كبيرةً سُمِّيَت بالمرابطين؛ لأن ابن ياسين وجماعته كانوا يرابطون على نهر السنغال في خيام متأهبين للجهاد في سبيل الله تعالى.

✍ **وقد قامت دولة المرابطين على عدد من المبادئ، من أهمها:**

١. العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية.
٢. توحيد المغرب تحت راية الخلافة الإسلامية.
٣. العمل على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين.
٤. العمل على حماية الأمة من أعداء الخارج.
٥. حفظ ما وُضِعَت الشريعة لأجله.

٦. إعداد الأمة إعدادًا جهاديًّا.
٧. القيام على تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفيء.
٨. تحري الأمانة في اختيار المناصب.
٩. الإشراف المباشر على شئون الدولة.

ومات عبد الله بن ياسين مجاهدًا، ثم انطلق يحيى بن عمر مجاهدًا في أواسط إفريقيا وغربها، وترك ابن عمه يوسف بن تاشفين على قيادة دولة المرابطين؛ فوسعها، واتخذ الجهاد سبيلاً، حتى أقام دولةً عظيمةً للمرابطين، صار لديها خمسمائة ألف مقاتل.

كان عهد يوسف بن تاشفين عهد قوة للمرابطين؛ حيث استنجد به أمراء الطوائف بالأندلس ضد عدوهم الصليبي، فانتقل إليهم بسبعة آلاف مقاتل فقط، وتجمَّع لديه من المجاهدين المتطوعين بالأندلس ثلاثون ألفًا، ومنحهم الله عزَّ وجلَّ النصر على عدوهم في موقعة الزَّلاَّقة العظيمة، التي أُبِيد فيها جيش الصليبيين على بكرة أبيه، ثم بعد سنوات لما زاد تصارع أمراء الطوائف، ضم يوسف الأندلس إلى دولة المرابطين؛ لكي يحفظ الإسلام والمسلمين فيها.

✍ أسباب سقوط المرابطين:

بعد عهد يوسف بن تاشفين دخلت دولة المرابطين في انحراف عن مبادئها؛ مما أدخلها في عهد ضعفٍ انتهى بقيام دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت، وكان فاسد العقيدة، فادَّعى أنه المهدي المنتظر، واستباح دماء المرابطين، وكانت الدماء يسيرةً عليه.

وقد كان من أهم أسباب سقوط دولة المرابطين:

١. ظهور روح الدعة والانغماس في الملذات والشهوات عند حكام المرابطين وأمرائهم في أواخر عصر علي بن يوسف.
٢. ظهور السفور والاختلاط بين النساء والرجال.
٣. انحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثي.
٤. الضيق الفكري الذي أصاب فقهاء المرابطين وحجرهم على أفكار الناس، ومحاولة إلزامهم بفروع مذهب الإمام مالك وحده، وعملوا على منع بقية المذاهب السنية تعصبًا لمذهبهم.
٥. فَقْد دولة المرابطين لكثير من قياداتها وعلمائها العظام أمثال سير بن أبي بكر، ومحمد بن مزدلي، ومحمد بن الحاج، وأبي إسحاق بن دانية، وأبي بكر بن واسينو.

٦. الأزمة الاقتصادية الحادة التي مرت بها دولة المرابطين نتيجة لانحباس المطر لعدة سنوات، وحلول الجفاف والقحط بالأندلس والمغرب، وزاد من حدَّة الأزمة الاقتصادية أن أسراب الجراد هاجمت ما بقي من الأخضر على وجه البلاد؛ مما هيأ الظروف لانتشار مختلف الأوبئة بين كثير من السكان، ووقعت هذه الأزمة في الفترة الواقعة ما بين أعوام ٥٢٤ - ٥٣٠هـ.

٧. الصدام المسلح بين دولة المرابطين وجيوش الموحدين: بعد محمد بن تومرت تولى عدد من الحكام كان أبرزهم عبد المؤمن بن علي الذي كان عهده عهد قوة؛ إذ قام بمضاعفة القوة العسكرية، كما قام بنهضة عمرانية كبيرة.

استمر عهد قوة الموحدين بعد تولي أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي595 - 554) هـ/ ١١٦٠ - ١١٩٩م)، ويمثل عهده الذي امتد خمس عشرة سنةً العصر الذهبي لدولة الموحدين.

تولَّى أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي، وكان عمره خمسًا وعشرين سنةً فقط، وقد قام بالأمر أحسن ما يكون القيام، ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، ونظر في أمور الدين والوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتي هي أحسن، واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي أن يغير كثيرًا من أسلوب السابقين له، فكان سمته الهدوء والسكينة والعدل والحلم، حتى إنه كان يقف ليقضي حاجة المرأة وحاجة الضعيف في قارعة الطريق، وكان يؤمُّ الناس في الصلوات الخمس، وكان زاهدًا يلبس الصوف الخشن من الثياب، وقد أقام الحدود حتى في أهله وعشيرته، فاستقامت الأحوال في البلاد وعظمت الفتوحات.

بلغت أعمال أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي الجليلة في دولته أوجها، حتى وصلت إلى أن حارب الخمور، واهتم بالطب والهندسة، وألغى المناظرات العقيمة التي كانت في أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحدين، وقد أسقط الديون عن الأفراد، وزاد كثيرًا في العطاء للعلماء، ومال إلى مذهب ابن حزم الظاهري لكنه لم يفرضه على الناس، ومن أجلِّ أعماله أنه تبرأ من أباطيل ابن تومرت.

وفي سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٥م انطلقت الجيوش الإسلامية من المغرب والصحراء وعبرت مضيق جبل طارق إلى بلاد الأندلس لتلتقي مع قوات الصليبيين الرابضة هناك في موقعة الأرك الخالدة التي انتصر فيها المسلمون انتصارًا باهرًا.

وبعد وفاة المنصور الموحدي سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٩م بدأت النهاية لدولة الموحدين.

- ✓ **أسباب سقوط دولة الموحدين:**

١. ظلمهم الفظيع للمرابطين، وسفكهم للدماء، واعتداؤهم على الأموال، وسبيهم للنساء بدون وجه حق.
٢. ثورة بني غانية، وهم من بقايا المرابطين.
٣. ثورات الأعراب المتتالية.
٤. ثورات الأندلس ضد دولة الموحدين.
٥. النزاع على الخلافة بين الموحدين، ولم يستطيعوا أن يضعوا نظامًا ثابتًا لتولي الخلافة عندهم.
٦. الانهيار العسكري الذي أصاب دولة الموحدين، وتغير أهداف الجيش الموحدي.
٧. الترف والانغماس في الشهوات.
٨. تقلُّص أراضي الدولة في إفريقية والمغرب والأندلس.

البرتغاليون يحتلون شواطئ المغرب:

قامت في بلاد المغرب على أنقاض دولة الموحدين عدة دول؛ وهي دولة الحفصيين في تونس، ودولة بني عبد الواد في تلمسان، وحكم بني مرين في المغرب الأقصى، ثم خلفهم عام ٨٢٣هـ بنو وطاس، واستمر أمرهم حتى عام ٩١٦هـ، وفي أيامهم احتل البرتغاليون شواطئ المغرب، فضاق المسلمون بهذا التوسع الصليبي، وخاصة أن النصارى من أسبان وبرتغال قد طردوا المسلمين من الأندلس، ونكلوا بهم أشد تنكيل، فانطلقت هذه الجموع نحو المغرب، واتجهت الأنظار نحو شيخ السعديين أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله، فأنهى حكم بني وطاس، وأعلن الجهاد، وقاتل البرتغاليين وانتصر عليهم، وأجلاهم عن المراكز التي بقوا في بعضها اثنتين وسبعين سنة، وبعد وفاة أبي عبد الله محمد خلفه ابنه أحمد الأعرج.

كان العثمانيون يدعمون السعديين ويحثونهم على قتال الصليبيين ويقدمون لهم المساعدات، ويشجعونهم على العمل معًا لاستعادة الأندلس، ولكن الصليبيين نجحوا في الإيقاع بين العثمانيين والسعديين.

هزيمة العثمانيين وضعف دول المغرب:

وفي عام ٩٦١هـ ضم العثمانيون المغرب الأقصى، وخطب للسلطان العثماني على المنابر، ولكن لم يلبث العثمانيون أن خرجوا من المغرب أمام مقاومة السكان الذين شحنوا بكراهية العثمانيين نتيجة الدعاية الصليبية.

وعندما هزم العثمانيون عام ٩٧٨هـ وتحطم أسطولهم تمامًا أمام أسطول إسبانيا والبندقية لم يعودوا يفكرون في دخول المغرب، وإن عدوها منطقة مواجهة مع الدول النصرانية.

وهذا الضعف أطمع النصارى في الأندلس فبدءوا ينزلون على سواحل المغرب واحتلوا عددًا من الموانئ، وتمركزوا في بعض المواقع، هذا إضافةً إلى بقية النصارى الذين اتجهوا إلى سواحل شمالي المغرب مثل فرسان مالطة الذين كانوا قد سيطروا على منطقة ليبيا، ثم جاء العثمانيون فاستطاعوا أن ينقذوا ما أمكنهم إنقاذه، حتى إذا ضعف أمرهم أيضًا مع مرور الزمن عاد الصليبيون فاحتلوا بلاد المغرب ثانية،وتقاسموا أرضه وخيراته.

بعد الضعف الذي أصاب دول المغرب احتل فرسان مالطة منطقة برقة في ليبيا، واحتل الإسبان طرابلس عام ٩١٦ هـ، وقد بقوا فيها حتى تمكن (طرغول) القائد البحري العثماني من دخولها عام ٩٥٨ هـ، وقد حاولت إسبانيا احتلالها دون جدوى.

ومع ضعف الدولة العثمانية برزت الأسرة القرمانية التي فرضت سيطرتها على منطقة ليبيا، وإن كانت تخضع للدولة العثمانية إلا أنها كانت تتصرف تصرف المستقل منذ عام ١١٢٣هـ، ولكن الدولة العثمانية أنهت حكم الأسرة القرمانية عام ١٢٥١هـ، وعملت على تحسين الأوضاع الاقتصادية للسكان، ومع ذلك فلم تسلم المنطقة من محاولات تدخل الدول الأوروبية بحجة حماية الأقلية النصرانية.

زيادة النفوذ اليهودي:

كانت الدولة العثمانية قد تساهلت مع اليهود، وسمحت لهم بالإقامة في المناطق التي تتبعها بعد طردهم من الأندلس، فأساءوا كثيرًا، وزادت أطماعهم وظهر جشعهم، فانتقلوا إلى الشمال الإفريقي، وبقية أرجاء الدولة العثمانية، وأقام منهم في ليبيا أكثر من ثمانمائة أسرة، وبدأ مركزهم يزيد نتيجة للتجارة، وتساهل والي ليبيا العثماني رجب باشا مع اليهود، وكان يرغب بإعطاء الأراضي لهم خوفًا من التوسع الإيطالي؛ ولهذا حرصت إيطاليا على طلب نقله من ليبيا ليلة الإطاحة بالسلطان عبد الحميد

الثاني الخليفة العثماني، وقد عينه رجال الانقلاب من جماعة الاتحاد والترقي وزيرًا للحربية لكنه توفي يوم تعينه، وفقد اليهود نصيرهم فهو من جماعة الاتحاد والترقي وإن كان يعمل في السر.

وكان لليهود دور كبير في الإطاحة بالخليفة العثماني ثم بالخلافة، وكان مشروع رجب باشا إسكان اليهود في منطقة الجبل الأخضر، وقد قامت دراسات كافية في هذا الشأن، ورغم الخلاف بين ما كان يخطط له رجب باشا وبين الطليان فإن اليهود قد دعموا الاحتلال الإيطالي لليبيا، وساعدوا على ارتكاب الأعمال الوحشية الإيطالية هناك.

اشتداد الصراع على دول المغرب:

أمّا في تونس، ففي عام ١٥٢٦م تولى أمر الدولة الحفصية الحسن الحفصي الذي كان يميل إلى ملك النمسا شارلكان، مما جعل السكان ينقمون عليه ويستنجدون بالعثمانيين، فاستدعى الخليفة العثماني سليمان القانوني أمير البحر خير الدين بربروس إلى إستانبول عام ٩٤٠ هـ، وكلفه بإنشاء السفن الكافية والاستعداد لفتح تونس، فامتثل لطلب الخليفة العثماني، وقصد تونس عام ٩٤٢ هـ، وأعلن للسكان أنه قادم لعزل السلطان مولاي الحسن الحفصي لصلته بالدول النصرانية وعلاقته بشارلكان، فاستقبله السكان ورحبوا به فاستولى بسهولة على تونس؛ فاستنجد السلطان الحسن الحفصي بالنصارى، فاتفق شارلكان مع البابا وأمراء إيطاليا، ورهبنة القديس حنا الأورشليمي في مالطة، وجهز أسطولاً كبيرًا، وانطلق بنفسه من برشلونة مع بعض الأمراء الإسبان، واستطاع أن يستولي على تونس، وأن يعيد السلطان الحفصي إلى حكمه، الذي أصبح خاضعًا له، وعندما دخل شارلكان تونس بعد حصار دام أكثر من شهر سمح لجنده أن يتصرفوا كما شاءوا فنهبوا وسلبوا وارتكبوا أبشع الأعمال الوحشية والمحرمات، ثم كتب معاهدة مع الحفصي كلها خزي، مما جعل السكان يكرهون سلطانهم بصورة أشد من كرههم له في السابق، وما أن غادر شارلكان تونس حتى عادت الفوضى السياسية.

تمكن الوالي العثماني طرغول في طرابلس أن يحتل قفصة عام ٩٦٣هـ، ثم القيروان ٩٦٥هـ، وأرسلت إسبانيا عام ٩٦٨ هـ أسطولاً للحد من نشاطه لكنه تحطم، وفي سنة ٩٨١ هـ دخل سنان باشا تونس وبقي فيها العثمانيون بعد ذلك.

وعندما غادر سنان باشا تونس ترك فيها واليًا ممثلاً للخليفة اشتهر بلقب باي (بيلر باي)، ويساعده ديوان استشاري مؤلف من عسكريين يمثلون الفرق العسكرية هناك، ويلقب كل منهم بـ (الداي) إضافةً إلى

موظف الشئون المالية، غير أن الدايات قد سيطروا على الباي منذ عام ٩٩٩ هـ، وتفردوا بالسلطة حتى عام ١٠٥٠ هـ، مع وجود الباي، وكان الدايات ينتخبون من بينهم الداي الذي يسند إليه الحكم.

احتلال الجزائر:

وعندما احتلَّت فرنسا الجزائر عام ١٢٤٥هـ احتجت الدولة العثمانية على ذلك، وأرادت أن تستعيد ولاية الجزائر بالمفاوضات السياسية غير أنها قد عجزت؛ فلجأت إلى الطريقة العسكرية فتخلصت من الأسرة القرمانية في ليبيا عام ١٢٥١ هـ، وأرادت أن تقضي على الأسرة الحسينية في تونس لتكون على مقربة من الجزائر، غير أن فرنسا قد هددت بذلك، وكلما اتجه الأسطول العثماني من ليبيا نحو تونس تحرك الأسطول الفرنسي من الجزائر نحو الشرق.

وكانت فرنسا تعامل بايات تونس كحكام مستقلين، وكان هذا يثير احتجاج الدولة العثمانية.

حاول الباي في تونس النهوض بالبلاد ولكنه اعتمد في ذلك على الديون الأجنبية، إذ كانت فرنسا تمده بالقروض، وهي تعلم أنه سيعجز عن سدها، وهذا ما يفسح لها المجال للتدخل في شئونه، وبالفعل لم يستطع السداد فأرسلت لجنة مالية لمراقبة المالية التونسية، وبعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٦هـ اعترفت فرنسا لإنجلترا بقبرص مقابل الاعتراف لها بتونس.

أمَّا في الجزائر، فبعد عام ٩٤٠هـ كان الإسبان بالأندلس قد قوي أمرهم فبدءوا بالاستيلاء على موانئ البحر المتوسط الإفريقية، وزاد أملهم بحكم شمالي إفريقية، وأخذها من يد المسلمين، بعد الاستيلاء على غرناطة وطرد المسلمين من الأندلس نهائيًّا عام ٨٩٨ هـ، وقامت سفن قراصنتهم تلاحق المسلمين الأندلسيين الذين فروا إلى شمالي إفريقية، فوجدت محاولة رد الفعل ضد الحقد الصليبي، وبدءوا يغيرون على سواحل الأندلس، وجاء العثمانيون بحرًا إلى المنطقة، ورحب المسلمون بهذا المجيء ترحيبًا كبيرًا ما دام القتال مستعرًا بين المسلمين والنصارى.

وبدأ المغيرون يمتلكون سفنًا خاصة يغيرون بها على خصومهم،ومن هؤلاء الأخوان: عروج وخير الدين، وتقرب عروج من السلطان الحفصي فدعمه وقدم له موانئه يتخذها قواعد له، وتمكن من الانتصار على الإسبان في عدد من المعارك البحرية، واستطاع أن يسترجع ميناء بجاية من الإسبان، وهذا ما رفع من شأنه فنقل مقره من تونس إلى ميناء صغير يقع إلى الشرق من مدينة الجزائر، وطلب منه حاكم مدينة الجزائر (سالم السالمي) أن يساعده ضد الغزو النصراني

الإسباني فاستجاب لطلبه وصد هجومًا نصـرانيًّا على الجزائر عام ٩٢٢ هـ، ثم رأى تفرق الأمراء في المغرب الأوسط وخلاف بعضهم مع بعض فقرر أن يتخلص من هؤلاء الأمراء؛ لكي يتمكن من الوقوف أمام النصارى الأسبان، فبدأ بحاكم مدينة الجزائر فأنهى حكمه وتسلم مكانه، وأصبحت مدينة الجزائر قاعدته البحرية ومركز حكمه عام ٩٢٣ هـ، ثم اتجه نحو الداخل ليستولي على الإمارات القائمة هناك، وكان أكبرها إمارة بني زيان في تلمسان، وأميرها (أبو حمو) ورعيته يكرهونه؛ لأنه يمد يده إلى النصارى الأسبان، فاتصلوا بعروج فسار إليهم ودخل مدينة تلمسان، غير أن (أبو حمو) اتصل بالأسبان بعد أن فر إليهم فجاءوا بقوة إلى تلمسان وتمكنوا من دخولها، وفتكوا بحاميتها، واستطاع عروج أن يفر، غير أن الأسبان قد لاحقوه وقتلوه.

فأكمل أخوه خير الدين جهاده ضد الصليبيين الأسبان، وفي عام ٩٣٦هـ أصبحت منطقة المغرب الأوسط نيابة عثمانية، وعين الخليفة العثماني خير الدين قائدًا عامًّا للأسطول العثماني؛ مكافأة لما قام به من جهود في الوقوف ضد الصليبيين وخدمة الدولة العثمانية.

الحملات على إفريقيا:

كان الاحتلال البرتغالي لبعض أجزاء إفريقيا يهدف إلى تعقب المسلمين الفارين من الأندلس بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين هناك سنة ١٤٩٢م، كما كان يهدف إلى تطويق العالم الإسلامي واستنزاف ثرواته وقد استعانوا في ذلك بالمملكة المسيحية في الحبشة مما أدى إلى ما يسمى بالكشوف الجغرافية التي لم تكن في حقيقتها إلا صراع دموي مع الإمارات والممالك الإسلامية في شمال القارة وشرقها وغربها، وقد باركت البابوية هذا العمل العدائي ضد المسلمين؛ ولذلك سيرت إسبانيا والبرتغال الحملات إلى إفريقيا، وتلاها في ذلك باقي الدول الأوروبية كإنجلترا وفرنسا وغيرهما بقصد القضاء على حضارة المسلمين والتحكم في المناطق الإستراتيجية بالقارة بغية السيطرة على أجزائها لضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للثورة الصناعية التي قامت في أوروبا، ولم يحدث في التاريخ أن استنزفت موارد قارة بشرية وطبيعية لصالح أوروبا مثل ما حدث لإفريقيا، كما لم يحدث في التاريخ عن قارة قسمت إلى أشلاء ودويلات قزمية بأيدي الأوروبيين مثل ما حدث في إفريقيا عقب مؤتمر التقسيم في برلين عام ١٨٨٤- ١٨٨٥م الذي حضره مندوبو أربع عشرة دولة هي: النمسا والمجر وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا وهولندا والبرتغال وروسيا وإسبانيا والسويد والنرويج وتركيا والولايات المتحدة وبريطانيا.

وبعد مناقشات بين الوفود تمت الموافقة النهائية على مواد الاحتلال الفعلي على أن تكون في فصل مستقل من المرسوم النهائي.

وهكذا تمَّ في مدينة برلين ومن دون حضور ممثلين عن الدول الإفريقية وضع أسس تقسيم القارة الإفريقية، ذلك التقسيم الذي لم يضع في الاعتبار توزيعات القبائل والعشائر، فحوَّل إفريقيا إلى وحدات قزمية صغيرة أصبحت الأساس للحدود الإفريقية الحالية.

المقاومة الإسلامية في مواجهة الاحتلال:

ساءت أحوال بلاد المغرب في العصر الحديث؛ إذ تعرَّضت بلاده للاحتلال الغربي الذي دمَّر البلاد، وسفك الدماء، وانتهك الحُرُمات، وقسَّم البلاد على النحو الذي أقره الغرب الصليبي في مؤتمر برلين، ولكن قامت حركات مقاومة إسلامية في أغلبها، وقدمت ملايين الشهداء، حتى منَّ الله على هذه البلاد بالتحرير.

ففي عام ١٩١١م تعرضت ليبيا للغزو الإيطالي فقاد المقاومة الإسلامية الشيخ أحمد السنوسي ومعه الشيخ عمر المختار، وعاشت ليبيا مأساة محزنة في ظل الاحتلال الإيطالي حيث اتبع الإيطاليون سياسة الإبادة، وقد بلغ عدد الشهداء الليبيين خلال السنوات العشر الأولى من الاحتلال حوالي سبعين ألف شهيد، وقد عومل السكان أسوأ معاملة فألقي بكثير منهم من الطائرات، وهتكت الأعراض، كما سيق العمال والمجندون إلى الخدمة مع الجيش الإيطالي في الحبشة والصحراء الغربية.

وبعد كفاح مرير ضد الاستعمار حصلت ليبيا على استقلالها عام ١٩٥١م. أمَّا تونس، فبعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٦هـ اعترفت فرنسا لإنجلترا بقبرص مقابل الاعتراف لها بتونس. وفي عام ١٢٩٨ هـ ادعت فرنسا أن قبيلة تونسية قد اعتدت على بعض المواقع الفرنسية، فجهزت حملة واستولت على تونس.

حاربت فرنسا اللغة العربية والفكر الإسلامي وفرضت تعليم اللغة الفرنسية، كما شجعت على التنصير وقامت بقطع المعونات عن المدارس الإسلامية حتى ضعفت وقضي على معظمها، وقد فرضت فرنسا الأحكام العرفية لأكثر من عشرين عامًا. وفي ٨ شعبان ١٣٧٥ هـ/ ٢٠ من مارس ١٩٥٦م حصلت تونس على الاستقلال بعد جهاد طويل.

وفي الجزائر احتل الفرنسيون ميناء سيدي فرج بالقرب من مدينة الجزائر في عام ١٨٣٠م، وبعد الاحتلال لم يستجب الجزائريون للفرنسة وإن كان قد قبلها اليهود الجزائريون، فبطشت الحكومة الفرنسية بمسلمي الجزائر، وحاربت لغتهم العربية والثقافة الإسلامية، وقامت بإغلاق المدارس الإسلامية والكتاتيب، وهدم المساجد وإلغاء القضاء الشرعي

والاستيلاء على أموال الأوقاف، كما أهدرت حقوق الشعب وداست مقدساته، فقد دنس جنودها المساجد ونبشوا القبور وأعدموا شيوخًا من الصالحين وغير ذلك من الفظائع.

فظهرت الحركات الجهادية ضد المستعمر الفرنسي، ففي عام ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٠م قاد محيي الدين الحسني انتفاضة القبائل ضد الوجود الفرنسي، وبعد سنتين تولى القيادة ابنه البطل عبد القادر الجزائري وظل يقاومهم حتى أسر عام ١٢٦١ هـ/ ١٨٤٧م، وبقي أسيرًا حتى عام ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م.

وفي عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م قاد حركة الجهاد محمد المقراني الذي انضم إليه مائة ألف مقاتل اكتسح بهم قوات فرنسا في منطقة كبيرة من الجزائر، ودارت بينهم وبين المجاهدين ٣٤٠ معركة، استشهد فيها ستون ألف جزائري، وقتل عشرون ألف فرنسي، وأعدمت فرنسا في أثنائها ستة آلاف جزائري.

وفي عام ١٩٤٥م إبان احتفال الحلفاء بالانتصار على دول المحور في الحرب العالمية الثانية، خرج الجزائريون في مظاهرة يطالبون بالحرية والاستقلال، فاعتدى عليهم الجنود الفرنسيون وحدثت مذبحة رهيبة بلغ عدد شهدائها ٤٥ ألفًا من الرجال والنساء والأطفال، ودفن بعض المثقفين أحياء، ودمرت قرى بكاملها، وحلت كل الهيئات وزجّ بأنصارها في السجون.

وفي عام ١٩٥٤م قامت ثورة التحرير الجزائرية التي استشهد فيها حوالي المليون ونصف المليون شهيد.

وفي ٣ صفر ١٣٨٢ هـ/ ٥ من يوليو ١٩٦٢م أعلن استقلال الجزائر وقامت الدولة الجزائرية.

وفي المغرب احتلت إسبانيا منطقة الريف في عام ١٣٢٢ هـ/ ١٩٠٤م، ولكن السكان هناك قاوموا الاحتلال الإسباني، وانتصروا على المارشال (مارينا) سنة ١٣٢٧ هـ/ ١٩٠٩م، وفي عام ١٣٣١ هـ/ ١٩١٢م ثار السكان وأبادوا الحامية الفرنسية في فاس، وفي عام ١٣٣٦ هـ/ ١٩١٧م أتم الفرنسيون احتلال مراكش، ولكن الوطنيين أوقعوا بهم هزائم كبيرة بقيادة الشيخ الهبة ابن الشيخ ماء العينيين.

وفي عام ١٣٦٣ هـ/ ١٩٤٤م احتل الفرنسيون أكثر وظائف الدولة، كما استولوا على أكثر مصادر الثروة وبخاصة الأراضي الزراعية؛ مما أشاع الفقر والجهل بين الشعب، هذا فضلاً عن تشجيع حركات الانحلال الخلقي بين الشباب، والقضاء على الحركات التحررية، وإثارة روح العصبية بين العرب والبربر.

ومنذ عام ١٣٣٨ هـ/ ١٩٢٠م قاد الأمير عبد الكريم الخطابي الجهاد ضد الأسبان، وبعد وفاته حمل راية الجهاد ابنه القاضي محمد الذي التقى عام ١٣٣٩ هـ / ١٩٢١م بالأسبان وهزمهم، واعترف الأسبان بخسارة خمسة عشر ألف جندي قتيلاً و ٥٧٠ أسيرًا.

وفي عام ١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٣م قتل أكثر من أربعة آلاف مغربي حينما أعلن حزب الاستقلال المغربي والاتحاد النقابي الإضراب العام، واعتقلت فرنسا السلطان محمد الخامس. وفي عام ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٥م عاد السلطان واستقلت المغرب (مراكش)، أما الجيوب الإسبانية كمدينة سبتة ومليلة فما زالتا تحت الاحتلال الإسباني.

كانت هذه هي قصة المغرب منذ دخول الإسلام إليه وحتى التحرر من الاستعمار الغربي في القرن العشرين، ونأمل أن يعود المغرب قوة إسلامية كبيرة مرةً أخرى؛ ليضيف إلى قوة الأمة الإسلامية.

التاريخ الحديث:

- الضغوط الاستعمارية على المغرب:

تعرض المغرب في القرن التاسع عشر لضغوط الدول الاستعمارية، فاتخذت أحيانا صبغة عسكرية وتارة أخرى إجراءات دبلوماسية واقتصادية استهدفت انتزاع أجزاء ترابية والتقليل من مكانة المخزن وسلطته وغزو سوقه الداخلية وانتزاع أجزاء من ترابه. ومع ذلك فقد حفزت تلك الضغوط جهاز المخزن الذي اقتنع بضرورة الشروع في محاولات إصلاحية لتحديث البنيات العسكرية والاقتصادية والإدارية العتيقة، تفاديا للسقوط تحت الهيمنة الأجنبية.

- الضغوط العسكرية والاقتصادية:

تجسدت الضغوط العسكرية الأوربية على المغرب في مواجهتين عسكريتين، أولهما مع الفرنسيين في إسلي سنة ١٨٤٤، والثانية في تطوان مع الإسبانسنة ١٨٥٩. وبموازاة ذلك واجه المغرب ضغوطـًا اقتصادية قوية انتهت بتوقيعه على معاهدات تجارية كانت بنودها لفائدة الاقتصاد الأجنبي. كانت لهزيمة المغرب أمام الجيش الفرنسي في إسلي عواقب وخيمة. بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠، تغيرت الأحوال، فبدأت الأخطار تهدد كيان المغرب، إذأصبحت حدوده الشرقية مشتركة مع فرنسا المتفوقة عليه عسكريًا وصناعيًا. وكان الحزب الاستعماري الفرنسي في الجزائر يرغب في ضم المغرب لأهمية الصوف المغربي لتجار مرسيليا من جهة، ولأهمية الخط التجاري بين تلمسان وفاس من جهة أخرى.

عهد الحماية:

فرض على المغرب نوع من الحماية، جعل أراضيه تحت سيطرة فرنسا وإسبانيا بحسب ما تقرر في مؤتمر الجزيرة الخضراء(أبريل ١٩٠٦)، وهي تتيح للدول المشاركة في تسيير المغرب مع احتفاظه ببعض السيادة ورموزه الوطنية، بعثت فرنسا بجيشها إلى الدار البيضاء في غشت ١٩٠٧، انتهى الأمر بالسلطان إلى قبول معاهدة الحماية في ٣٠ مارس ١٩١٢. وقتها أصبح لإسبانيا مناطق نفوذ في شمال المغرب (الريف) وجنوبه (إفني وطرفاية). في ١٩٢٥ أصبحت طنجة منطقة دولية بعد اقرار اتفاقية باريس. أما باقي المناطق بالمغرب فقد كانت تحت سيطرة فرنسا.

١٩٢٠ إلى ١٩٢٧: ثورة الريف في الشمال - حرب الريف - وقيام جمهورية الريف بقيادة الأمير محمد عبد الكريم الخطابي، خاصة في سنتين ١٩٢١ و١٩٢٦. وتقوت المعارضة ذات النزعة الوطنية، وشرع في المقاومة، في الجبال وفي المدن؛ في ١٩٣٠، ظهر أول تنظيم سياسي مغربي، بزعامة كل من علال الفاسي ومحمد بلحسن الوزاني، وهم الذين سيؤسسون لاحقا حزب الاستقلال. وفي الحرب العالمية الثانية، كانت الحركة المعارضة للحماية قد تقوت، وكانت الجامعة العربية والولايات المتحدة يساندونها.

وكان السلطان محمد الخامس يدعمها بدوره (خطاب طنجةفي أبريل ١٩٤٧). وقد أكد موقفه المناوئ للحماية أثناء الاحتفال بعيد العرش سنة ١٩٥٢. وتجاوب معه الشعب على نطاق واسع، فنظمت مظاهرات مساندة لمساعيه (في الدار البيضاء على الخصوص)، وواجهت سلطات الاحتلال المتظاهرين بالقمع العنيف، وقد عملت سلطات الاحتلال على كسب دعم الاقطاعيين، خاصة، لخلع ملك البلاد الشرعي، واحلال ابن عمه (بن عرفة) محله، وكرد فعل على ذلك، دعا رجالات الحركة الوطنية إلى الكفاح المسلح ضد الفرنسيين، وأعلن على استقلال المغرب في ٣ مارس ١٩٥٦. كما أن إسبانيا سلمت بدورها باستقلال هذا البلد في ٧ أبريل ١٩٥٦.

- مسيرة الاستقلال:

في ١٨ نوفمبر عام ١٩٢٧، تربع الملك محمد الخامس على العرش وهو في الثامنة عشرة من عمره، وفي عهده خاض المغرب المعركة الحاسمة من أجل الاستقلال عن الحماية. في ١١ يناير ١٩٤٤ تم تقديم وثيقة المطالبة بإنهاء حماية المغرب واسترجاع وحدته الترابية وسيادته الوطنية الكاملة.

في ٩ أبريل ١٩٤٧ زار محمد الخامس مدينة طنجة حيث ألقى بها خطاب طنجة الذي أدى إلى تصعيد المقاومة (جيش التحرير) لإنهاء الحماية. في٢٠ غشت ١٩٥٣ نفي محمد الخامس والأسرة الملكية إلى مدغشقر واندلع بالمغرب ما يعرف بثورة الملك والشعب.

في ١٦ نونبر ١٩٥٥ عاد محمد الخامس والأسرة الملكية من المنفى وفي ٢ مارس ١٩٥٦ اعترفت الحكومة الفرنسية باستقلال المملكة المغربية في التصريح المشترك الموقع بين محمد الخامس والحكومة الفرنسية، وفي ٧ أبريل ١٩٥٦ تم التوقيع معاسبانيا على اتفاقيات تم بموجبها استرجاع المغرب لأراضيه في الشمال، وفي اليوم ٢٢ من نفس الشهر انضم المغرب إلى منظمة الأمم المتحدة، وفي عام ١٩٥٨ استرجع المغرب إقليم طرفاية من الاحتلال الأسباني وتم إلغاء القانون الذي تم بمقتضاه تدويل مدينة طنجة. وفي ٢٦ فبراير ١٩٦١ توفي محمد الخامس.

- في عهد الحسن الثاني

تربع الحسن الثاني على العرش كملك للمغرب في ٣ مارس ١٩٦١، في دجنبر ١٩٦٢ تمت المصادقة بواسطة الاستفتاء على أول دستور يجعل من المغرب ملكية دستورية، في عام ١٩٦٩تم استرجاع سيدي إفني.

في ٦ نونبر ١٩٧٥ انطلقت المسيرة الخضراء بـ٣٥٠ ألف متطوع ومتطوعة عبروا الحدود الاستعمارية ودخلوا الصحراء المغربية. في ١٤ نونبر ١٩٧٥ تم التوقيع على معاهدة مدريد التي تم بموجبها استرجاع المغرب للأقاليم الصحراوية، في ٢٣ يناير ١٩٨٧ اقترح الحسن الثاني على العاهل الأسباني خوان كارلوس الأول إنشاء خلية للنظر في قضية سبتة ومليلية والجزر الجعفرية (جزر: جزيرة باديس وجزيرة نكور وملوية) التي لا زالت تحت الاحتلال الإسباني. في ١٧ فبراير ١٩٨٩ تم التوقيع بمراكش على المعاهدة التأسيسية لاتحاد المغرب العربي.

كما ترأس الحسن الثاني لجنة القدس منذ انعقاد المؤتمر العاشر لوزراء خارجية دول منظمة المؤتمر الإسلامي بفاس في جمادى الآخرة ١٣٩٩هـ، مارس ١٩٧٩م إلى حين وفاته في عام ١٩٩٩م، وتم اختيار الملك محمد السادس رئيسًا للجنة. وفي عام ١٩٩٢م، ترأس الملك الحسن اجتماعات قمة منظمة المؤتمر الإسلامي التي عقدت بالدار البيضاء، كما شارك في قمة (صانعي السلام) بشرم الشيخ بمصر.

وفي ٢٣ يوليوز ١٩٩٩م، توفي الملك الحسن الثاني بعد أن عمل على توحيد المغرب ودعم استقلال جميع أراضيه، وبذل جهوداً كبيرة من أجل تشجيع المبادرات الإسلامية والعربية والإفريقية. وفي اليوم نفسه تلقى الملك محمد بن الحسن البيعة في قاعة العرش بالقصر الملكي بالرباط.

الأحداث الرئيسية:

قبل الميلاد: أسس البربر اتحادات قبلية وممالك مثل "مملكة مازيليا" و"مملكة موريطانيا" و"مملكة نوميديا".

القرن ٢ قبل الميلاد: الحملة الرومانية لجزء من شمال المغرب ووجهت بالمقاومة. (انضر: ثورة إيديمون).

القرن ٣: عبور الوندال ثم البيزنطيين للأجزاء الشمالية.

القرن ٧: الفتح الإسلامي للمغرب.

من القرن ٨ إلى القرن ١٧: تعاقبت عدة أسر على حكم المغرب ومنها: المرابطون، الموحدون، المرينيون والسعديون.

- **١٦٦٠:** تأسيس الدولة العلوية.
- **١٨٢٢-١٨٥٩:** حكم مولاي عبد الرحمن الذي ناصر.
- **١٨٩٤-١٩٠٨:** خلال حكم مولاي عبد العزيز.
- **١٩١٢:** توقيع معاهدة حماية المغرب.
- **١٩٢٠ إلى ١٩٢٧ :** ثورة الريف في الشمال حرب ريف (١٩٢٠)- وقيام جمهورية الريف بقيادة الأمير محمد عبد الكريم الخطابي.
- **١٩٢٧:** اعتلاء محمد الخامس العرش وهو في سن الثامنة عشر.
- **١٩٤٧:** زيارة محمد الخامس مدينة طنجة (الخاضعة للحماية الدولية آنذاك).
- **١٩٥٣:** نفي الملك محمد الخامس وعائلته إلى مدغشقر من طرف فرنسا.
- **١٩٥٣-١٩٥٥:** فرنسا تنصب بن عرفة سلطانا للمغرب
- **١٩٥٥:** سماح فرنسا بعودة العائلة الملكية إلى المغرب.
- **١٩٥٦:** استقلال البلاد مع بقاء سبتة ومليلية والجزر الجعفرية وإفني.

- **١٩٥٧:** استرجاع رأس جوبي (طرفاية) بعد حرب إفني مع إسبانيا وفرنسا.
- **١٩٥٨-١٩٥٩:** انتفاضة الريف، أحداث الريف في شمال المغرب تدخلات الجيش الملكي العنيفة بقيادة الامير الحسن الثاني انذاك والجنرال افقير
- **١٩٦١:** وفاة الملك محمد الخامس واعتلاء الحسن الثاني العرش.
- **١٩٦٣:** المغرب يدخل في حرب مع الجزائر بسبب الصراع على الحدود المغربية الجزائرية بمنطقة تندوف وتسمىحرب الرمال، تدخلت الجامعة العربية للصلح.
- **١٩٧١:** ١٠ يوليو الجنرال المدبوح والكولونيل أمحمد أعبابو ينفذان عملية انقلاب فاشلة ضد الملك الحسن الثاني.
- **١٩٧٢:** الجنرال أوفقير ينفذ عملية انقلاب فاشلة ضد الملك الحسن الثاني.
- **١٩٧٥:** القيام بالمسيرة الخضراء نحو الصحراء الغربية [١] و[٢] بعد توقيع معاهدة مدريد بين المغرب وإسبانيا وموريتانيا تم بموجبها تقسيم الصحراء الغربية بين المغرب والموريتانيا.
- **١٩٧٩:** موريتانيا تتخلى رسميا عن الجزء الخاص بها من الصحراء الغربية وتعترف بالجمهورية العربية الصحراوية.[٣].
- **١٩٨٤:** الاتحاد العربي الأفريقي (اتفاقية وجدة) مع ليبيا.
- **١٩٨٤:** انتفاضة الخبز في جميع أقاليم المملكة (تدخل الجيش قتل الكثير من المواطنين).
- **١٩٨٩:** الإعلان في مراكش عن تأسيس اتحاد المغرب العربي.
- **١٩٩١:** وقف إطلاق النار بين الجيش المغربي والجيش الصحراوي منذ اندلعاها سنة ١٩٧٥ برعاية الأمم المتحدة لاجراء استفتاء في الصحراء الغربية.
- **١٩٩٩:** وفاة الملك الحسن الثاني.
- **١٩٩٩:** اعتلاء الملك محمد السادس العرش.
- ٢٠٠١: ١٧ أكتوبر: خطاب أجدير التاريخي (يؤكد الملك محمد السادس أن الأمازيغية تشكل مكونا أساسيا من مكونات الثقافة المغربية، ويعلن عن تأسيس المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

- **٢٠٠٣**: ميلاد ولي عهد الملك محمد السادس الأمير الحسن.
- **٢٠٠٣**: أحداث ١٦ ماي.
- **٢٠٠٨**: الوضع المتقدم للمغرب مع الاتحاد الأوربي...
- **٢٠٠٨**: أحداث سيدي إفني وتدخلات الجيش العنيفة.
- **٢٠١١**: ٠١ يوليوز استفتاء حول الدستور. استجابة لمطاب شعبية بسبب المظاهرات الشعبية منذ ٢٠ فبراير التي طالبت بالتغير في الحكم. تقليدًا لثورة تونس ومصر (ثورات الربيع العربي).

المغاربة قبل العولمة الحديثة:

تاريخ المغرب يمتد على مدى ١٢ قرنا، دون النظر في العصور الكلاسيكية القديمة . تم توحيد البلاد لأول مرة من قبل سلالة الأدارسة في ٧٨٩، الذي يمثل أول دولة إسلامية في أفريقيا مستقلة من الإمبراطوريةالعربية . تحت سلالة
المرابطين و الموحدين ،المغرب سيطر على بلاد المغرب و إسبانيا مسلم . و الاسترداد انتهى حكم الموحدين فيايبيريا وكثير من المسلمين و اليهود هاجروا إلى المغرب. تحت سلالة السعدي ، والمغرب توطيد السلطة ومحاربة البرتغاليين و العثمانيين الغزاة، كما حدث في معركة القصر الكبير . في عهد أحمد المنصور جلبت ثروات جديدة والهيبة للسلطنة، وغزوالإمبراطورية السونغاية بدأ. لكن إدارة الأراضي عبر الصحراء أثبتت أنها صعبة. بعد وفاة المنصور قسمت البلاد بين أبنائه. في عام ١٦٦٦ تم جمع شمل السلطنة من قبلالسلالة الحاكمة العلوية ، الذين كانوا منذ منزل الحاكم من المغرب. تنظيم الدولة وضعت مع إسماعيل بن شريف . مع نظيره الحرس الأسود كان يقود سيارته في اللغةالإنجليزيةمن طنجة (١٦٨٤)،
و الاسبانية من العرائش (١٦٨٩). تتميز سلالة العلوية نفسها في القرن ١٩ من خلال الحفاظ على استقلال المغرب في حين دول أخرى في المنطقة خضعت للمصالح الأوروبية. في عام ١٩١٢، وبعد الأزمة المغربية الأولى ، و أزمة أغادير ، و معاهدة فاس وقعت، وتقسيم فعال المغرب الى الفرنسية و الاسبانية محمية .في عام ١٩٥٦، بعد ٤٤ عاما من الاحتلال واستعاد المغرب استقلاله عن فرنساباعتبارها المملكة المغربية .

الفصل الثالث

دور ولاة المغرب في نشر الاسلام والثقافة العربية

في بلاد المغرب العربي

اصطحبت الجيوش العربية الاسلامية التي حررت المغرب العربي عددًا من الصحابة والتابعين الذين أصبح لهم دوركبير في نشر الاسلام وبذر أول بذرة للفكر العربي الإسلامي في اوساط المجتمع المغربي حيث كان نهم القراء والمحدثين والفقهاء، وأبرزت كتب الفتوح دورهم الكبير في تعليم أهل تلك البلاد القران والحديث وتعاليم الدين الحنيف وقد الف الحافظ أبوالقاسم ابن بشكوال كتابًا عن التابعين الداخلين الى الأندلس عرفانًا منه بفضلهم على أهل المغرب والأندلس لما قدموه من مجهود كبير في سبيل رفع راية الاسلام هناك وسماه ((التنبيه والتعيين لمن دخل الاندلس من التابعين)) ويذكر أن أول من تعلم القران بجبل نفوسه هو عمر بن يمتكن الذي كان يلتقي في طريق مقمدامس بالجند العربي الداخل الى افريقية فيكتب عنهم لوحة من القران ثم يعود الي منزله ليحفظ ما فيه كي يرجع الى الحجة فيكتب لوحة أخرى كذلك حفظ القران وتعلم العلم.

ومن هؤلاء الصحابة عمرو بن العاص فاتح برقة وطرابلس، والصحابة الذين دخلوا الى افريقيةمع جيش المسلمين بقيادة عبدالله بن سعد بن ابي سرح والتي سميت حملته بغزوة العبادلة وذلك لوجود عدد من الصحابة باسم عبدالله مثل عبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن مسعود وغيرهم.

ومن الصحابة الذين دخلوا المغرب أيضاً جندب بن جنادة بن سفيان المكنى بابي ذر الغفاري المتوفي سنة ٣٣ هـ /٦٥٣م وكان من أهل العلم ، دخل مع ابن ابي سرح ، وقد روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وروى عن جماعة من الصحابة .والمقداد بن عمر تغلب البهراني المكنى بابي سعيد المتوفي سنة ٣٣هـ/٦٥٣م وقد روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ودخل في حملة ابن أبي سرح.

فضالة بن عبيد الانصاري ، المكنى بابي محمد ، المتوفى في سنة ٥٣هـ /٦٧٢م، وقد روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) غيرهم من الصحابة، وقيل ان عدد الصحابة الذين دخلو المغرب يقدر مابين تسع وعشرين الى احدى وثلاثين صحابي، والواضح ان هؤلاء الصحابة لم

يستقروا مدة طويلة في بلاد المغرب العربي لعدم وجود قاعدة متقدمة لهم فيها أبان بدايات العمليات العسكرية فيها عدا مدينة برقة التي كانت تمثل مركزًا لانطلاق القوات الى داخل البلاد، على الرغم من كل ذلك فقد كانوا وغيرهم ممن ذكرتهم المصادر المتخصصة النوة الاولى لنشر العلوم الاسلامية في تلك البلاد.

إلا ان بعد تاسيس مدينة القيروان من قبل فاتح المغرب المجاهد الكبير عقبة بن نافع فاستقر عدد من الصحابة في القيروان وقاموا برواية علوم الكتاب والسنة ونشللاها بين البربر الذين اسلم منهم عدد كبير،وكذلك اتخذ عدد من الصحابة السراري وامهات الاولاد ،واصبح لهن واولادهن دوركبير في نشر الاسلام، ومن الصحابة من اتخذ السراي عبدالله بن عمر وجبلة بن عمر وقيس بن يسار وغيرهم.

أما دور التابعين فانه لايقل عن دور الصحابة، وقد بدا واضحاً في مجال نشر الثقافة الاسلامية والحركة العلمية، بعد تأسيس مدينتي القيروان وتونس، وفيهم من استقر في هاتين المدينتين، وقد اوجدوا قاعدة كبيرة للمهتمين بالعلم.**ومن أشهر التابعين:**

- عياض بن عقبة بن نافع الفهري المكنى بابي يحيى. روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص، سكن القيروان، وتحول الى مصر وفيها مات سنة ١٠٠هـ /٧١٨م.
- ربيعة بن يزيد بن ابي الاشعث، روى عن ابن عقبة بن نافع بن عمر الجهني، سكن المغرب العربي واستشهد مع كلثوم بن العياض القشيري في واقعة بقدوره سنة ١٢٣هـ/٧٤٠م.
- أبو علقمة، مولى عبد الله بن عباس، روى عن ابن عباس، وابن عمر وأبي هريرة، أصله من مصر، وسكن القيروان، تولى القضاء بها، أخذ عنه عبد الرحمن بن انعم، وخالد بن ابي عمران وغيرهم.
- بكر بن سوادة الجذامي أبو ثمامة، اقام أكثر من ثلاثين سنة في افريقيا محدثًا وفقيهًا ومفتيًا واخذ عنه الكثير من اهلها توفي سنة ١٢٨هـ بافريقية.

وهؤلاء وغيرهم من التابعين هم الذين كانوا حلقة الوصل بين الصحابة واهل المغرب العربي وعن طريقهم بدأت العلوم بالانتشار لتصل إلى ما وصلت اليه في العصور اللاحقة.

وهنا لابد من التاكيد على دور الولاة والقادة في بلاد المغرب العربي بارسالهم للعلماء وأصحاب العلوم الشرعية لينشروا ما يعلمونه في مدن المغرب العربي فضلاً على أنهم كانوا من ذوي الخبرة المسبقة بمهنة التعليم والتاديب فأخذوا على عاتقهم مهمة نشر التعليم في تلك الربوع التي وقعت تحت مسؤولياتهم مثل القائد عقبة بن نافع الذي دار مع وجوه عساكره في ولايته الثانية حول مدينة القيروان وهو يدعو لهم وهو يقول (يارب املأها فقهاً وعلماً...واجعلها عزاً لدينك وذلاً لمن كفر بك)، و كذلك أرسل حسان بن نعمان الغساني والي المغرب العربي ثلاثة عشر رجلاً من علماء التابعين يعلمونهم القرآن وشرائع دينهم. وعن اشهر العلماء التابعين الذين كانوا في مدينة القيروان وشاركوا حساناً في حروب التحرير ، **وكان لهم دور في تعليم الشريعة الاسلامية هم:**

- أبو سعيد، كيسان، المقبري، وهو من فضلاء التابعين، وكان ثقة كثير الحديث، سكن القيروان، توفي سنة مائة للهجرة.
- ابو قبيل المعافري المتوفي سنة ١٢٨هـ /٧٤٥م : وهو من الطبقة الثانية من اهل المغرب العربي من اهل الدين والفضل، صحب حسان بن النعمان واشترك في معظم حروب تحرير المغرب العربي وكانت له اخبار مشهورة ثم رجع بعد ذلك الى مصر، وتوفي بها .
- حنش بن عبد الله السبئي الصنعاني: من اهل الدين والفضل ومن التابعين ومن أهل الثقة، اشترك في حروب تحرير المغرب مع رويفع بن ثابت عندما حرر جزير جربة. وقد بعث ابا المهاجر دينار لتحرير جزيرة شريك (باشو) وكان ضمن القوات المرابطة في مدينة القيروان عندما قام عقبة بن نافع بحملته الكبرى المشهورة وتولى في زمن الوالي حسان بن النعمان الغساني صدقات الناس والسعي عليهم في بلاد المغرب. شارك في فتح الاندلس مع موسى بن نصير، وقيل أنه احتط جامع سرقسطة، ووضع محرابه في الثغر الأعلى للاندلس. سكن القيروان، واختط بها داراً ومسجداً نسب اليه من ناحية الريح، أدخله ابن وهب في جامعه وسحنون في مدونته، توفي في سنة ١٠٠هـ/٧١٨م.
- عبد الرحمن بن رافع التنوخي: يعد من الطبقة الثانية من أهل المغرب العربي، ويكنى بأبى جهل وهو من فضلاء المدنيين والتابعين، وتقاة المصريين، توفي سنة ثلاثة عشر ومائة للهجرة في القيروان.

- علي بن رياح بن نصير اللخمي: يكنى أبا عبد الله، كان فقيهاً صالحاً ومن تقاة مصر ولد سنة خمسة عشر للهجرة في يوم معركة اليرموك، وفقد عينة في معركة ذات الصواري البحرية مع عبد الله بن سعد بن أبي سعد بن أبي سرح ، سنة ٣٤هـ / ٦٥٤م، دخل المغرب العربي محارباً ومجاهداً في سبيل الله، توفي سنة أربع عشر ومائة من الهجرة. وهناك عدد أخر من الصحابة والتابعين أيضاً كان لهم دور واضح في تثبيت ركائز الاسلام في بلاد المغرب العربي. وقد اكتفينا بذكر هذا العدد منهم.

وأعقب حسان بن نعمان موسى بن نصير بأرساله بعثة تتكون من سبعة عشر رجلاً انتشروا ليعلموا الناس شرائع الاسلام والقرآن الكريم، ولم نستطيع ان نحدد بدقه، أسماء هؤلاء سوى حنش بن عبد الله الصنعاني الذي سبق التعريف به ، ومحمد بن اوس الانصاري:- كان هذا من اهل الدين والفضل معروف بالفقه ، وكان عالما فاضلاً صالحاً معروفاً بالفقه والدين والرواية مع الدراية.

يروى عن ابي هريرة وروى عنه الحارث بن يزيد و محمد بن عبد الرحمن بن نوفل الاسدي ، ولي بحر افريقيه سنة ٩٣هـ ، وغزى المغرب العربي والأندلس مع موسى بن نصير.

وبهذا تكون جهود موسى بن نصير واضحة في هذا المجال، فعلى يده اسلم بقية المصامدة في عهده اذ امر العرب ان يعلموا البربر القران وان يفقهوهم في الدين. فبنى جامعاً في تلمسان، وأصبحت طنجة مركزاً للتعليم والثقافة الإسلامية ،اذ نلحظ ان السكان كانوا يتفاعلون مع توجه هذا الوالي فقد شهد بناء مساجد عدة منها وأهمها مسجد اغمات هيلانه. كما يذكر انه حول بعض الكنائس الى مساجد.

ويعد اسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر الذي يعينه الخليفة عمر بن عبد العزيز واليا على المغرب فكان خير أمير وأسلم جميع البربر في أيامه وأرسل معه الخليفة عمر عشرة من فقهاء التابعين وعلمائهم يفقهون الناس في أمور الدين ويبينون لهم الحلال والحرام فقال عنه ابن عذاري (هو الذي علم اهل افريقية الحلال والحرام)منهم:

- ✓ وهب بن حي المعافري جعثل بن عاهان الرعيني القتباني توفي سنة ١١٥هـ.
- ✓ عبدالله بن ابي المغيرة الكناني توفي بعد سنة ١٢٣هـ.
- ✓ سعد بن مسعود التجيبي.

- ✓ طلق بن جعبان الفارسي.
- ✓ وحيان بن ابي جبلة .

وغيرهم من القادة والولاة الذين كان لهم دوركبير في تحرير المغرب ونشر تعاليم الاسلام الحنيف في ربوع المغرب.

لقد اظهر لنا هذا المقال انه كان بجانب كتائب الجهاد المسلحة عدد كبير من الصحابة والتابعين الفقهاء العلماء الذين ساهموا في فتح الشمال الافريقي والذين لهم اثر كبير في نشر السنة والعلوم الاسلامية وبين لنا ان اهالي البلاد انصهروا مع الفاتحين في محاضن الاسلام العظيمه وحملوا لواء الاسلام والدفاع عنه والتوسع من اجل الدعوة في سبيله.

لأن شكل تنامي حركات التنصير في الفترة الأخيرة قاسماً مشتركاً بين بلدان المشرق والمغرب العربيين، فإن الظاهرة ارتدت طابعا أكثر دراماتيكية في المغرب العربي بالنظر للتجانس الدّيني والمذهبي السائد في أربعة من بلدانه الرئيسية على الأقل.

ففي المغرب والجزائر، كما في تونس وليبيا، لا وجود لأقليات مسيحية منذ غادر المستوطنون الأوروبيون المنطقة في أعقاب نيل بلدانها الاستقلال بين ١٩٥٢ و١٩٦٢. ويسود المذهب السُّني المالكي بشكل مطلق في المغرب العربي منذ الفتح الإسلامي، وخاصة منذ أن عمّمه الإمام سحنون بن سعيد، المدفون في مدينة القيروان.

من هذه الزاوية، أحدث اكتشاف شبكات تبشيرية في المنطقة "خضّة" في عقول كثير من الناس العاديين، لأنه أحالهم على سجل التحدّيات الدّينية، التي فُرضت على الأجيال السابقة خلال الفترة الاستعمارية، وكانت "الهجمة الصليبية"، التي تزامنت مع احتفال رجال الدّين الفرنسيين بذكرى مرور قرن على احتلال الجزائر في سنة ١٩٣٠ ومرور نصف قرن على احتلال تونس في السنة الموالية، ألهبت مشاعر المسلمين وأعطت دفعة قوية للحركة الوطنية في البلدين.

وتعتقد شخصيات إسلامية تونسية، أن التحدي الذي تُجابهه الهوية الدّينية للمغاربيين بشكل خاص، لا تقل عن تحدّيات الثلث الأول من القرن الماضي، بسبب الدور الذي تلعبه العولمة في تفكيك العلاقات الروحية وهزّ مناعة المجتمع و"خاصة في ظل سَطوة الفضائيات وما تحمله من قِيم وافدة، سرعان ما تستهوي الشباب".

واستدل عُضو في "المجلس الإسلامي الأعلى" (هيئة رسمة أنشأت عام ١٩٨٨)، فضل عدم الإفصاح عن هويته، بالكشف أخيرا عن جماعة "عبدة الشيطان"، الذين ضبطتهم أجهزة الأمن التونسية في يونيو الماضي

في أحياء مختلفة من العاصمة تونس، بينما كانوا يمارسون طقوسهم في سرية تامّة على أنغام موسيقى "الهارد روك" الصاخبة، واعتبر تلك الحادثة، رغم أنها الأولى من نوعها، "تهديدا لوحدة البلاد الروحية وتقويضًا لأحد أركان هويتها"، وذهب إلى حد القول أن ظهور مذاهب ونحل متناحرة، هو الخطوة الأولى التي تسبق دقّ إسفين في جدار الانسجام الدّيني والمذهبي، الذي ميّز المنطقة المغاربية عن المشرق وجعلها الأكثر استقرارا منذ زوال الدولة الفاطمية (شيعية) من المهدية (٢٠٠ كيلومتر جنوب العاصمة تونس) سنة ٩٤٥ للميلاد.

كاثوليك وبروتستانت:

ومثلما كان الشبان السبعون، الذين اعتُقلوا في الربيع الماضي في تونس للإشتباه في انتمائهم لجماعة "عبدة الشيطان"، من طلاب الجامعات والمعاهد الثانوية، لُوحظ أن أعمال التبشير التي تزايدت في الفترة الأخيرة، استهدفت الشريحة الاجتماعية نفسها.

غير أن مصادر مطّلعة على شؤون الدِّيانة المسيحية أكدت لسويس أنفو وجود فوارق جوهرية بين تعاطي الكاثوليك والبروتستانت مع هذه المسألة الدقيقة والملتهبة.

فإذا كان الكاثوليك ينفُون بشدة إقدامهم على تنصير شبان تونسيين، لأن الكنيسة الكاثوليكية لا تُبدي حماسة لانضمام الآتين من دِيانات أخرى إليها وتضعهم في الاختبار طيلة سنتين، "أملا بتبريد حماستهم"، على ما قالت تلك المصادر، فإن الأوساط البروتستانتية تقوم بحملات مكثفة لحمل الشبان المغاربيين على اعتناق المسيحية، مستخدمة كل الأسلحة المُمكنة من حصص التلقين والتبشير، إلى الكُتب والمطبوعات باللغة العربية، التي تُسلم باليد أو تُرسل بالبريد، إلى فتح الكنائس في وجوههم أيام الآحاد، وصولا إلى تسهيل مسار التعميد الذي قد لا يستغرق أكثر من أربع وعشرين ساعة.

وشكا هنري تيسيي (فرنسي)، كبير الأساقفة الكاثوليك في الجزائرمن دور البروتستانت مُحملاً إياهم المسؤولية عن تدهوُر العلاقات بين الكنيسة والسلطات الجزائرية من دون أن يُسميهم، وقال تيسيي في تصريحات أدلى بها في وقت سابق من الشهر الجاري، إن زيادة نشاط المسيحيين التبشيريين في الجزائر، ذات الغالبية المسلمة، أدّت إلى "مصاعب خطرة"، تحدث بصورة دورية للكاثوليك، "على الرغم من أن الكنيسة شرحت بوضوح أنها غير ضالعة في ذلك"، وعزا بوضوح تشنّج العلاقات إلى "الحرب ضد التبشير الذي تمارسُه جماعات تبشيرية"، حسب تعبيره، ومضى قائلا "إن المبشّرين وصلوا للجزائر، وأول من عانى نتيجة لأفعالهم هم الكاثوليك."

شرارة الخلاف:

وكانت الشّرارة التي أشعلت نار الخلاف الأخير بين السلطات الجزائرية والكنيسة، إقدام الراهب الفرنسي بيير واليز على إقامة مراسيم الصلاة بمسيحيين في مدينة مُغنية، غرب الجزائر القريبة من الحدود مع المغرب، وهي منطقة لا يُسمح فيها بممارسة الشعائر الدّينية غير الإسلامية، والمسيحيون الذين صلّى بهم هم كاميرونيون مهاجرون بصورة غير شرعية كانوا يقيمون في أخدود، على الحدود مع المغرب، وهم جزء من تجمع من الغانيين والنيجيريين زارهم رهبان كاثوليك في المنطقة على مدى سنوات.

وأدانت محكمة جزائرية واليز وقضت بسجنه سنة واحدة مع وقف التنفيذ، وهو الحُكم الذي استأنفته الكنيسة. واستند قرار المحكمة على قانون صدر قبل عامين، وحدّد مكان إقامة العبادات غير الإسلامية في مبان محددة توافق عليها الدولة. وكانت السلطات الجزائرية طلبت خلال شهر نوفمبر من العام الماضي من رهبان برازيليين من طائفة "سلام"، مغادرة البلاد في غضون أسبوعين، بعدما اتّهمتهم بتجاوز القوانين، ثم عدلت عن الإجراء استجابة للمساعي التي قام بها السفير البرازيلي لديها.

ويمكن القول أن القانون الذي سنّته الجزائر في ٢٦ فبراير ٢٠٠٦، جاء ردّا على تنامي الحركات التبشيرية، وبخاصة في منطقة القبائل، التي اعتنق بعض سكّانها المسيحية، ما تسبّب في احتكاكات بين أبناء القرية الواحدة. وبموجب القانون الجديد، يُعاقَب كل من يُغري المسلم لتبديل دِيانته أو يُشجعه على ذلك، بالسجن من سنتين إلى خمس سنوات وبغرامة تراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف يورو، كذلك حظَر القانون إقامة الشعائر غير الإسلامية خارج الأماكن المُخصصة لذلك.

وحذرت الصحافة الجزائرية، وبخاصة الناطقة بالعربية في مناسبات عديدة، من اتِّساع ظاهرة التبشير، لكن رجال الدّين المسيحيين قلّلوا من شأنها، وقال مصطفى كريم، رئيس الكنيسة البروتستانتية الجزائرية في تصريح لصحيفة "الوطن" (الناطقة بالفرنسية) عن "عجبه من انزعاج ٣٢ ألف مسجد من ٣٢ طائفة مسيحية صغيرة في الجزائر"، على حدّ قوله، مؤكّدا أن "من يقوم بالتبشير، هي الجماعات الإسلامية"، لكن صحيفة "لوموند" الفرنسية اعترفت في تقرير لموفدها إلى الجزائر نشرته يوم ٢٨ فبراير الماضي، أن نشاط الإنجيليين حقيقي في البلد، وأنه يثير قلق الأهالي الذين يصدمهم ارتداد بعض معارفهم عن الإسلام في قُرى صغيرة، حيث يعرف الناس بعضهم البعض".

وعلّق المراسل، الذي حجبت الصحيفة اسمه قائلاً، إن الجزائريين "يشعرون أن الحاجز الذي يمثله الإسلام، يتعرض للهجوم"، ولعل ما يدل على تنامي عدد مُعتنقي المسيحية في البلد، أن إحصاءات رسمية حديثة أظهرت أن هناك حوالي عشرة آلاف مسيحي في الجزائر ومنهم (بعضهم يعيش خارج البلاد)، عِلماً أن تِعداد السكان الإجمالي يصل إلى ٣٣ مليوناً.

وعزا بوعبدالله غلام الله، وزير الشؤون الدّينية الجزائري تزايد البروتستانت إلى "مؤامرة من الأوساط المسيحية المُتصهينة في الولايات المتحدة الأمريكية تستهدف الجزائر"، مؤكّدا أن رجال الدِّين البروتستانت يعِدون من يُقنِع جزائريا بالتخلي عن الإسلام واعتناق المسيحية، بمكافأة مقدارها ٥٠٠٠ يورو، وعبّرت جمعية العلماء الجزائريين عن موقف مماثل، فيما اتّهم غلام الله الإنجيليين بالعمل على تكوين أقلية دينية، لكي تكون ذريعة لاستدعاء الحماية من الخارج.

وفي هذا السياق، بادرت بعض الفعاليات المدنية والسياسية، إلى وضع ملف كامل على مكتب الرئيس بوتفليقة، بُغية إقناعه بالتدخل لتحصين البلاد من تلك الحملات المنظمة. وحذّرت الفعاليات من استثمار بعض الجهات للظروف الاقتصادية والاجتماعية العسيرة، التي تمرّ بها بعض المناطق في الجزائر، وأتت تلك المبادرة في أعقاب إقدام السلطات الجزائرية على ترحيل القس هيوغ جونسون، على خلفية إدارية، مما دفع نشطين مسيحيين إلى الترويج لما أسموه بالتضييق الذي تتعرّض له الحريات الدينية.

وكان هذا الملف مَحل تشاوُر بين السلطات الجزائرية ونظيرتها الأمريكية، بمناسبة زيارة ديفيد ولش، مساعد وزيرة الخارجية لشؤون الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إلى الجزائر في وقت سابق من العام الجاري، وهو ما دفع وزير الشؤون الدينية والأوقاف بوعبد الله غلام الله إلى التأكيد أن نشاط التبشير الجاري في الجزائر حاليا، لا علاقة له بقرار طرد رئيس الكنيسة البروتستانتية السابق القس هيوغ جونسون، الذي طلبت منه وزارة الداخلية الرحيل بعد انتهاء مدة إقامته في الجزائر.

حقيقة العرب:

تداول على حكم بلاد المغرب الإسلامي على أيام الأمويين ثمانية عشرة واليا (١٨) بدأ من ولاية عقبة بن نافع الفهري، مؤسس القيروان عام ٥٠ للهجرة ، وانتهاء بولاية حفيده حبيب بن عبد الرحمن عام ١٤٠ للهجرة، الذي ساءت في عهدهم أحوال البلاد ودخلت فيما يعرف بفتنة

الخوارج الصفرية، وعلى مدار هذه السنوات التسعين كان الولاة كلهم من المشرق ، ولم يحظ أمازيغي واحد بمنصب الولاية، وجلهم امتاز بالقسوة وشنوا حرب الإبادة ضد المحليين إلا اثنين منهما، بدأ من عقبة الضار الذي أثخن في الأمازيغ (البربر)، وحسان بن النعمان الذي قضى على مقاومة ديهيا الثائرة ، واستمرت سياسة الأمويين العنيفة بضرب رقاب المخالفين لهم أيام ولاية موسى بن نصير ، و بشر بن صفوان، وعبيد الله بن الحبحاب، وكلثوم بن عياض، انتهاءً بمحاولة عبد الرحمن بن حبيب الفهري الإستقلالَ بالمغرب ، أسوة بعبد الرحمن الداخل الأموي الذي استقل بالأندلس ، إحياء لد ولتهم التي انهارت في الشرق تحت ضربات الشيعة العباسية بقيادة أبو مسلم الخرساني .*

كانت التسعين سنة هذه من عمر الحكم الأموي في بلادنا، سنوات قهر ودماء، سنوات شد وجذب بين الأمازيغ و عرب بني أمية، تبادل الطرفان فيها القتل والإقتتال، وذهب ضحية ذلك الألوف المؤلفة من الطرفين، وزهقت جراءها أرواح الكثير من الولاة منهم عقبة وأبي المهاجر دينار في تهودة، وزهير البلوى ببرقة ليبيا، ويزيد بم أبي مسلم الثقفي الذي قتله حرسه، و كلثوم بن عياض الذي قتل في معركة ألأشراف قرب الشلف في معركة حامية الوطيس مع الأمازيغ الصفرية بقيادة خالد بن حميد الزناتي، زيادة عن التقاتل الذي أبداه أحفاد عقبة الفهريين فيما بينهم، حيث قتل إلياسٌ أخاه عبد الرحمن بن حبيب، وقُتل هو من طرف ابن أخيه حبيب ثأرا لوالده عبد الرحمن، وقُتل آخرهم حبيب على يد الثائرين من ورفجومة عام ١٤٠ للهجرة، وتعرضت البلاد بعدها لهزات جديدة أثمرت بظهور دول مستقلة تحت زعامات مذهبية خارجية وعلوية وعباسية وفاطمية شيعية.

والغوص فيما سبق لا ينتج شيئاً، فإذا أردت فهم حقيقة معركة الأشراف، وشخصية القائد ألأمازيغي خالد بن حميد الزناتي فإنك تصطدم بشح معرفي لا مثيل له، وهو ما يظهر حقيقة أن التاريخ يكتبه المنتصرون كيفما شاءوا وبالطريقة التي أرادوا، يظهرون ما يناسبهم، ويحجبون ما يعارضهم، فمؤرخوا الأمس لا يختلفون عن محترفي الإعلام اليوم، كل شيء بمقدار وتبعاً للسياسة المرسومة التي تحول الهزائم انتصاراً، والكذبُ حقيقة، وتجعل من الخونة أبطالاً أسطوريين لا ند لهم، إنها المفارقات العجيبة التي رافقت تاريخنا من القديم إلى الآن .

والسباحة فيما سبق، أو خوضاً ونبشاً فيه يلحظ المرء أن ما وقع لا علاقة له بالإسلام، بل يجزم أن ما وقع هو وسوسة شيطان، أكثر منها إلهام من الرحمن، لأن الإسلام منزه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يعقل أن نحمل الدين عجز عقول أهله في فك رموزه ونواهيه،

وفهم أبعاده الإنسانية في التآخي والرحمة ، وما الدماء التي أريقت في هذه الفترة العصيبة من تاريخنا إلا سوء تقدير وفهم لديننا الإسلامي الحنيف، وما وقع في جزائرنا الحبيبة طيلة عشرية الدم والدموع هو صورة مصغرة لما وقع أيام ولاة بني أمية ، قتل على الهوية، إبادة جماعية، تنكيل، إذلال،.. وباسم الإسلام وتحت رايته وبيارقه، فقد صدق من قال لو علم العربُ بأن هذا الدين سيجعلهم سادةَ العالم لما حاربوهُ في بداية ظهوره .

إن الإسلام استعمله العربُ مطية ، لتحقيق أغراضهم الدنيوية بتأييد من فقهاء ذلك الزمان وبعده ، القائل بضرورة الخضوع للحكام ولو كانوا جائرين وضالين وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول بأن الصبر على جور الأئمة أصل من أصول أهل السنة والجماعة ، ولا غرو في أن الأمازيغ عندما تنبهوا لأهداف الغزاة الحقيقية المتسربلة تحت جلباب الإسلام ، تقبلوا بيسر مبدأ الخارجية ومذهبهُ الصفري المعارض لدار الخلافة ، لتطابقه مع أحلامهم في العدل والمساواة بين المسلمين جميعهم ، وقد كان الأجداد دائما في صراع مع الغزاة عندما كانوا وثنيين، أومسيحيين، فهم الذين قارعوا الرومان بابتداع مذهب الدوناتية، ومن بعدها مذهب الأروسية، حباً في الإختلاف والتباين مع الخصوم والأعداء ، وهو ما حولهم إلى مقاومين أكثر من غزاة .

ولتوضيح الصفة نحاول تسليط الضوء على فترة عصيبة من تاريخنا تعرف تجاوزا عند مؤرخي العرب بفتنة الخوارج الصفرية التي تمثلت في أصدق تجلياتها أيام الواليين (عبيد الله بن الحبحاب)، وخلفه (كلثوم بن عياض) طيلة ثمان سنين (١١٦/ ١٢٤ هجرية) أيام خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان، اتسمت الفترة بصراع مرير بين الغزاة والمقاومين تحت خيمة الإسلام، لأن البلاد كانت كلها إسلامية مزقتها المذهبية، فالاقتتال في هذه الفترة لم يكن بين مسلم وكافر داخل حيز ما يعرف بدار الحرب، بقدر ما كان بين مسلم ومسلم داخل حيز ما يعرف بدار الإسلام، مسلم غاز متجبر ينشد الملك والجاه والشرف، وآخر مقاوم يحاول الدفاع عن أرضه وعرضه ومقدرات وطنه، فهي حرابة أكثر منها جهاد .* أساء الوالي عبيد الله بن الحبحاب تسيير ولاية المغرب والأندلس، التي غدت أرضاً مستباحة واستمر النظر إليها باعتبارها دار حرب أكثر منها دار إسلام، وهو ما أوهن البلاد سوء العاقبة وعرض أهاليها للزجر والجزية والتقتيل والسبي، فكانت حادثة تخميس عبيد الله المرادي للأمازيغ الشرارة التي ألهبت الثورة ضد العرب بقيادة ميسرة المدغري، وبعده خالد بن حميد الزناتي.

وقد سبق لميسرة بذل جهد معتبر في التعريف بقضية قومه، في الرسالة التي تركها للخليفة هشام بدمشق بعد منعه من مقابلته، والتي أفضت إلى اندلاع حرب أتون ضد العرب، تردد صداها في أجزاء واسعة من المغرب والأندلس.

كان التصادم الأول مع العرب في عهد ولاية بن الحبحاب بقيادة رأس الصفرية ميسرة المدغري الذي تسمى بالخليفة، حقق فيه نصراً معتبراً على العرب في طنجة وبلاد السوس، وقتلَ العاملين بها، وهما عبيد الله المرادي، واسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب، وهو ما أنذر ابن (الحبحاب) بجدية التمرد، فأرسل جيشاً بقيادة خالد بن حبيب لإخماد الثورة قبل استفحالها، غير أن الحملة لم تحقق مبتغاها، افترق الخصمان بدون نتائج تذكر، فامتعض الأمازيغ من ميسرة فعزلوه وقتلوه ، وعينوا خالد بن حميد الزناتي بديلا عنه.

وصل نبأ الثورة الخارجية الصفرية ألأمازيغية لدار الخلافة بدمشق، وأستبد الغضب بأمير (المؤمنين) هشام الذي قال: (والله لأغضبن لهم غضبة عربية، (ولأبعثن إليهم جيشاً أوله عندهم ، وآخره عندي، ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو تميمي.

ومن خلال القول الفصيح يتضح أن الغضبة (عربية) وليست (إسلامية)، وثانيها أن أسلوب (القوة) هو السمة ألأبرز، وثالثها أن الغرض هو ليس نشر الإسلام بقدر ماهو (نشرٌ للعربان) في أرض جديدة تمكينا لهم فيها، وبتعبير آخر فهم لم يريدوا نشر الإسلام بين الأمازيغ، وإنما أرادوا نقل العرب المسلمين للإستيطان في بلاد المغرب، وجعله موطناً جديداً للعرب، وهو ما تكرر في الأندلس لاحقاً.

عُزل عبيد الله بن الحبحاب بإرادة أهالي القيروان، واستبدل بوال جديد أرسله الخليفة على جناح السرعة خصيصاً لإخماد الثورة ، بجيش شامي قوامه إثني عشر ألفا ، دعم أثناء المسير بجيوش أخرى، تحت أمرة كلثوم بن عياض ومساعدة بلج بن بشر. وبوصولهم إلى القيروان أساء بلج بن بشر القشيري لأهالي إفريقية والقيروان بكلام سفيه، الأمر الذي أدى إلى تنافر وتدابر القوم لولا الإعتذارات التي قدمها الوالي كلثوم لحبيب بن أبي عبدة وجنده، واجتمع للعرب جيش تعداده ثلاثون ألفاً، عشرة الآف منهم من صلب بني أمية، وعشرون ألفاً من سائر العرب.

معركة الأشراف وسقوط الشرف: وفد العرب للإنتقام حسب ما يبدو من مقولة الخليفة، وكاد الإختلاف أن يدب بين الجند العربي الوافد والمقيم، وكان بلج بن بشر القشيري سفيها شرساً في تعاملاته وأوامره،

وكـاد أن يشـعل حربـاً بـين العـرب أنفسـهم لأسـباب ينـأى المقـام عـن ذكرها، وهي أمور كررها وأجترها بنفاق ونرجسية عند عبوره مضيق طارق في عدوة الأندلس.

التقى الجمعان قرب وادي سباو (قرب الشلف حالياً). وحـاول بلـج بـن بشـر مهاجمـة الأمـازيغ لـيلا لإيقـاع بهـم، فخرجـوا لـه عـراة محلقـي الرؤوس، فهزموه، تقدم الجيش ألأمـازيغي بـأمرة خالد بـن حميد الزنـاتي، فوقعت معركة حامية، تحت إشراف الوالي كلثوم بن عياض فوق دبدبانـه، وتلاحم الجيشان، ونشبت الخيلُ الخيلَ، وكثر القتل بين الفريقين، وانكشف خيل العرب، والتف الرجالُ بالرجال، فتنـاثر الغبـار مـن وقـع التصـادم، ومني العرب بهزيمة كبيرة سقط فيها عدد من أشراف العرب وحماتها، منهم الـوالي كلثـوم بـن عيـاض، وحبيـب بـن أبـي عبـدة، وسـليمان بـن أبـي المهـاجر وغيـرهم، وتـذكر المراجـع والمصـادر المعركـة باسـم معركـة الأشـراف، لكثـرة الشـرفاء الـذين سـقطوا فيهـا، وانسـحب الجـيش العربـي المتبقـي مـن الميدان، فكانـت وجهـة أهل القيـروان ومصـر نحـو افريقيـة [تونس] وأهل الشام نحو الأندلس.

تعد هزيمة العرب فـي معركـة الأشـراف عـام ١٢٣ للهجـرة الضـربة القاصمة للحكم الأموي في بلاد المغرب الإسلامي، وإن حاول أحفاد عقبة من عبد الرحمن وإلياس وحبيب الذي عرف عهدهم فتنة داخلية فيما بينهم أتت عليهم جميعا ، وأصبح قتل الأخ لأخيه عرفاً مستساغاً عند الوافدين، الذين ظنوا بأنهم جاءوا لترسيخ قيم التسامح والإخاء بين المسلمين جميعهم دون عصبية عرقية، وهم في حقيقة الأمر قدموا صورا مخيفة عن الإسلام ، بتقاتـل ثلاثـي مـن آل فهر كـان خاتمـة لعصـر الـولاة ، بظهـور زعمـات جديدة بمسميات أخرى تضـرب علـى وتـر المذهبيـة، وتقبل الأمـازيغُ تلك الشطحات عن بلادة وطيب خـاطر، وسذاجة منقطعة النظير تظهر مدى استعداد الأجداد للإستعباد وفق منظـور القابلية للإستعمار الذي أشار إليه مالك بن نبي ، وهو ما يجعل من الإسلام فـي ذلك إذلالا أكثر منه تحريراً وتحرراً، ولو كان على أياد محلية أمازيغية كمـا حدث فـي عهد الموحدين لا حقاً.

وبنفس الأخطـاء والنزوات الفرديـة عبر الجيش الشـامي الذي كـان محاصراً في سبتة نحو الأندلس، ولم يقبل الأندلسيون إدخاله إلا بشروط، وأفصح بلجا عن نواياه السلطوية والتسلطية متنكراً لمنقذيه، فشن حرباً مطاردة واسعة ضد أمازيغ الأندلس كمساعد لواليها الأموي عبد الملك بن قطن إنتقاماً لمعركة الأشراف وحصار سبتة، وبعد تبديد شملهم قتلَ منقذه واحتل منصبَه بمساعدة جيش الشـام ، ولـم يسـتمر فـي الولايـة طـويلا حتـى قتل.

الإستنتاج الذي يمكن استخلاصه مما وقع أيام الواليين المذكورين طيلة المدة المحددة، يظهر مدى بشاعة الإقتتال الدائر بين المسلمين، فهي فتنة بأتم المقاييس، وما أكثر الفتن بين أهل الملة في تاريخهم القريب والبعيد، وما إرسال الخليفة الوليد لجيشه سوى للمحافظة على الريوع والمكاسب، وما أكثرها في شمال أفريقيا، فتسيير الجيوش غرباً ليس حباً للدين، بقدر ماهو نفع دنيوي.

المصادر العربية الإسلامية تنأى عن حمل هموم أهالي البلاد المفتوحة، فهي تنظر من ثقب الأنا والباقي إلى الجحيم، جل ما ذكر هو إشادة بالعربي المسلم دون غيرهم ، حجب أو طمس للحقائق ، إنها أحداث مسكوت عنها لغايات يعلمه الساكتون ، الحديث عن مآثر الأمازيغ لايجوز إلا داخل الحيز الذي يتوافق وهواهم ، حتى أن كتاب (مآثر البربر) سقط سهوا، ومؤلفه مجهول لخوف أو رهبة ، من عقاب محتمل من لدن من لا يرضون بما قيل فيه.

نافلة القول أن الوجود العربي في شمال إفريقيا لا يبرره الدين، فكل المستخلصات والإشارات والحقائق المستقاة من معينها وعلى ألسنة مبدعيها من مؤرخي العرب والإسلام، تشير إلى خلل أرتكب من لدن الإسلام أو من أهله، وقد يكون التغني بشعار الفتح حق أريد به باطل، لأن كل الطرق والسبل تثبت أن انغراس العرب والإسلام في شمال إفريقيا لم يكن سلميا ،وهو ما جعل قيمه تخضع في تطبيقها لمبدأ التقية: العمل بالآيات المكية المسالمة قولاً، والآيات المدنية العنيفة في العمل فعلاً على الساحة التطبيقية.

أكثر الحكام عدلاً وأنصافاً في عهد الولاة هما: أبو المهاجر دينار، وإسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي المهاجر، هذا الأخير الذي عُد خير أمير وخير والعلم أهالي افريقيا الحلال والحرام.

<u>دور المغرب في نشر الإسلام ولغة القرآن بالغرب الإفريقي:</u>

حين يريد شخصٌ ما أن يتحدث عن انتشار الإسلام وحضارته وثقافته في المنطقة التي تُعرف اليوم بغرب أفريقيا أو منطقة جنوب الصحراء، وتُعرف قديماً بالسُّودان الغربي، سوف لن يجد أكثرَ من ثلاثة عناصر بشرية هي التي كانت وراء هذا الانتشار الواسع، وهي: العنصُر المشرقي، والعنصُر المغربي، والعنصُر الإفريقي المحلّي.

فأما العنصر المشرقي فكان له الفضلُ في إيصال الرسالة المحمدية وحَملها من مَبعثها في المشرق ووضعها في يد الذين استَلَمُوها من بعده من أهل المغرب في الشمال الإفريقي. فقد كان دورُه التبليغَ وقد بَلَّغَ. ثم بعد

ذلك حين رَسَخَت أقدامُ هذا الدين في الرُّبوع الإفريقية، لم تنقطع الصلةُ بالمشرق، بل ظلَّت قائمةً على الدوام بفضل ركن الحَجِّ الذي فرضَه اللهُ على المسلمين كافةً لكي يحافظوا على هذه الصلة الدائمة بينهم ولو مرةً كلَّ عام، وبفضل الرِّحلات المتبادَلَة ثقافياً وتجارياً، والكُتُب العلمية والدينية التي انتشرت في أفريقيا، وأخيراً بفضل بعض العلماء المشارقة الذين كان لهم إشعاعٌ على المنطقة واتصال مستمرٌّ برجالاتها، ومن أشهرهم وأشدهم تأثيراً الإمام جلال الدين السيوطي. وقد أقامَ عددٌ منهم ـ على قلَّتهم ـ في أرض السودان ولو لفترة قصيرة، واقتصر آخرون على ما كتَبوه وألَّفوه ، فقرأه الأفارقةُ وتمثَّلوه وتأثَّروا بما فيه. والمقامُ لا يسمح هنا بالتفصيل في الأثَر المشرقي في نشر الثقافة الإسلامية والعربية بالمنطقة.

أما العنصُر الإفريقي المحلّي، فهو المتمثِّلُ في أولئك الأفارقة أنفسهم الذين أسلَموا وحسُن إسلامُهم، واعتنقُوا هذا الدين عن حُبٍّ وإقبالٍ وطواعية، لما وجدوا فيه من فضل وعدلٍ ومُساواةٍ وتكريمٍ لإنسانيتهم ومؤاخاةٍ لهم مع غيرهم من أبناء الشعوب الإسلامية الأخرى على اختلاف أجناسهم لا فضل لبعضهم على بعض، ولا للَونٍ على لونٍ . فقاموا من جانبهم أيضاً بإتمام تبليغه لِمَن حولَهم ولِمَن بعدَهم ووراءهم بكل وسائل التبليغ المُمكنة، بالدعوة والموعظة الحسنَة أحياناً، وبالجهاد ـ إن اقتضى الأمرُ ذلك ـ أحياناً أخرى. وما كان لهذا الدين الحنيف أن يستمرَّ ويصمُدَ ، بل ويتوطَّد ويتجَذَّر طيلةَ القرون الماضية، لولا أن الأفارقة أنفسَهم، على اختلاف أعراقهم وقومياتهم، قد أقبلوا عليه بمحض إرادتهم ورغبتهم، وأحاطوه بحبِّهم ونَصَروه بسيوفهم ، وأسكَنُوه في أعماق قلوبهم وجوارحهم .

أما العنصر المغربي فكان له دوران أساسيان: أولهما: أنه توسَّطَ بين هذين الطَّرَفين المشرقيِّ والإفريقي، بحمل المشعل من يد هؤلاء ووضعه بكل أمانة في يد أولئك، وثانيهما: أنه بقيَ على الدوام في حماية هذا الدين ورعاية حامليه الجُدُد وإسنادهم ومُؤازرتهم وتأمين ظهورهم. إن الإسلامُ لم يكن ليستقرَّ في المنطقة التي نتحدَّث عنها إلا بواسطة المغاربة من أبناء الشمال الإفريقي عموماً والمغرب الأقصى على وجه الخصوص. فكما حمَلَ طارقُ بنُ زياد مِشعلَ الإسلام من يد والي المشرق على المغرب موسى بن نُصير، فوصَلَ به إلى العُدوة الأخرى من بَرِّ أوروبا الغربية، كذلك قام بحمل المشعل من يد عُقبة بن نافع الفهري، ومَن جاء بعدَه من الوُلاة العرب، مجاهدون مغاربةٌ أبطالٌ انحدروا جنوباً إلى أدغال الصحراء ثم إلى ما وراءها ـ إلى أن وصلوا أرضَ السودان الغربيِّ عبرَ

البَوّابات والمداخل المعروفة (مراكش/ أُودَغست / ولاّتَة - سجلماسة/ تَغازّة - الأغواط/ توات - طرابُلُس/ غُذامس. وغيرها من المَحَطّات والمعابر الصحراوية القديمة).

وهنا يبرُزُ دورُ عبد الله بن ياسين الجَزُولي ذلك الفقيه المجاهد الذي أمضى سبعَ سنواتٍ يطلب العلمَ في الأندلس، وسنواتٍ أخرى في المغرب، ورابَطَ بجانب شيخه الفقيه الزاهد الوليِّ الصالح وجّاج بن زَلُّو اللَّمطي (ت ٤٤٥ هـ) الذي أقام فترةً بالقيروان يتلقَّى العلمَ والفقه المالكي على يد شيخ المذهب في عصره أبي عمران الفاسي، ثم عاد ليخُطَّ طريقَه في مجال نشر الدعوة والإسلام السُّني الصحيح ومحاربة البِدَع والمُبتَدعة والخوارج وغيرهم، ويؤسس رباطه الذي أطلق عليه اسمَ (**دار المرابطين**).

لقد انطلق ابنُ ياسين ـ كما هو معلوم ـ من دار المرابطين هذه متجهاً نحو أقاصي الصحراء رفقةَ يحيى بن إبراهيم الجُدالي أمير قبيلة صنهاجة ذاتِ الفروع الثلاثة الكبرى المعروفة (جُدالة ولمتونة ومَسُّوفة)، وقد كُلِّفَ بهذا الأمر ـ بعد اختيارٍ دقيقٍ وصائب ـ من شيخه وأستاذه في الدين والمذهب والورع والجهاد وجّاج اللمطي الذي إنما فعلَ ذلك امتثالاً لتوصية الشيخ الكبير أبي عمران الفاسي نزيلِ القيروان، بأن يصطفي من قِبَله رجلاً يرتضيه لتولّي مهمة تعليم قبائل الصحراء الممتدة إلى أرض السودان أمورَ دينهم الذي اعتنقوه من قبلُ، وتعميق فهمهم له وإصلاح عقائدهم على مذهب أهل السُّنة والجماعة.

ولكن الرجل لم يقف عند مهمته الدعوية في الصحراء، وإنما تطلَّع لما هو أعظمُ وأخطرُ، فكان المؤسِّسَ الحقيقي للدولة المرابطية. ثم استُشهِدَ ابنُ ياسين رحمه الله في إحدى معاركه مع البرغواطيين بالمغرب الأقصى(٤٥١ هـ) ، ليأخذَ زمامَ صنهاجة أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي عاد إلى الصحراء رفقةَ فقيه مغربي آخر هو أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي، فأكمل الدور الذي بدأه ابنُ ياسين في الصحراء، وعُهِدَ إلى يوسف بن تاشفين إتمامُ مهمة تمهيد الشمال الإفريقي انطلاقاً من المغرب الأقصى. وبذلك أصبح المرابطون يتحكَّمون في إمبراطورية شاسعة مُوحَّدة تمتد أُفُقياً من الحدود المصرية إلى البحر المحيط، وعَمُودياً من بلاد الأندلس إلى حدود النيجر ونهر السنغال جنوباً.

ولقد تحدَّث كثيرٌ من المؤرخين عن دور المرابطين والحاملين لواءَ دعوتهم من فقهاء ومجاهدين في نشر الإسلام بالصحراء الكبرى وما بعدها ووراءها من بلاد السودان، وقرَّر المحقِّقون منهم أن وجود الإسلام

بهذه المناطق كان سابقاً لقيام أمر المُلثَّمين، وهناك شواهدُ وأدلة تاريخية كثيرةٌ على ذلك، وإنما عمل هؤلاء في المقام الأول، على تصحيح فهم هذا الدين وتنقية العقائد من الشوائب والانحرافات والبِدَع والخرافات بحكم كونهم من أهل السُّنة وأنصار المالكية.

فدورُهم كان إصلاحياً بالأساس، وهو الدورُ الذي قاموا به وركَّزوا عليه في الشمال من بلاد المغرب الكبير كله شرقاً وغرباً حين حاربوا البرغواطيّين وغيرهم من أصحاب النِّحَل والانحراف. لكن هذا لا يمنع من القول إنهم عملوا أيضاً، بجانب حركتهم الإصلاحية، على إتمام رسالة التبليغ والدعوة في المناطق الأخرى التي لم يكن الإسلامُ قد وصلَها من قبل. ثم إن تثبيت المرابطين لقواعدهم ورباطاتهم في أعماق الصحراء ابتداءً من أودغست، التي استولوا عليها سنة ٤٢٢هـ، وغيرها من المَحطّات والمُدن والرِّباطات التي استقرُّوا بها، قد أعطى لوجود الإسلام ـ بلا شك ـ دفعةً جديدة وقويَّة كانت بمثابة موجة عالية حَملته إلى نقط بعيدة فيما وراء الصحراء التي كانوا سادتَهَا بلا مُنازِع، فانطلقَ داخلَ الأرض السودانية انطلاقَ السُّيول من قِمَم الجبال.

وليس من قبيل الصُّدَف أن تشهد فترةُ القرن الخامس وبدايةِ السادس الهجري ـ وهو عصر المرابطين في الصحراء ـ ظهورَ ممالكَ سُودانية ذات طابع إسلامي وسيطرة مرابطية صحراوية جزئية أو كلية، وهي: مملكة تَكرُور على نهر السنغال التي أسلم مَلِكُها في هذا القرن واندمجت في دولة مالي الإسلامية بعد ذلك. وكانت قبائلُ أمازيغية من لَمطةَ قد تدفقت عليها منذ القرن السابع الميلادي (الأول الهجري)، ثم مملكة غانة التي أصبحت تحت سيطرة المرابطين منذ سنة ٤٦٠هـ واندمجت أيضاً في دولة مالي بعد ذلك.

وأخيراً دولة تُنبُكتُ التي أجمعت المصادر التاريخية على أن الذين أسسوها هم قبائل من الطوارق الملثَّمين قريباً من نهر النيجر. ولم يأت القرنُ السادس الهجري حتى كانت دولةُ كانم وبُرنُو قد قامت حول بُحيرة تشاد على يد أسرة من الملثَّمين الطوارق، وقد زارها ابنُ بطوطة ووجد أهلَها مسلمين ومَلكُهم يسمى إدريس. ومن ممالك الملثَّمين المُسلمة التي زارها ابنُ بطوطة أيضاً في القرن الثامن مملكة تَكَدَّة وكان ملكُها إذ ذاك يسمى إزار، وقاضيها مغربياً يسمى إسحاق الجاناتي، وشيخُ المغاربة فيها سعيد بن علي الجزولي.. وذكر ابنُ فضل الله العُمري في المسالك ثلاث ممالك بربرية إسلامية في تلك المناطق المُحاذية للسودان أصبحت أراضيها فيما بعد جزءاً منه، وهي سلطنة آهير وسلطنة نموسة وسلطنة تادَمَكَّة. ثم تتابعت الممالك الإسلامية الكبرى بعد ذلك كمملكة مالي ومملكة سُنغاي ودولة آل فودي.

قلت قبل قليل: إن المغاربة قاموا بدور الوسيط الذي أوصل الرسالة إلى أهل السودان الغربي، كما قاموا بدور آخر وهو رعاية الإسلام في تلك الديار بحكم القرب والجِوار وحماية ظهره والدفاع عن وجوده والعمل على إرساخ جذوره وتثبيت دعائمه وتصحيح مسيرته باستمرار. ولذلك فإن الحضور المغربي وتأثيره القوي كانا متميزَين عبر التاريخ عن باقي المُؤثِّرات الأخرى. فأين تجلىَّ هذا الحضور والتأثير؟

أول مظهر من مظاهر الحضور الدائم والتأثير المغربي القوي يتجلى في الطابع المذهبي للإسلام الذي انتشر في أفريقيا الغربية وظل قائماً على حاله إلى يوم الناس هذا. فالإسلامُ في هذه المنطقة إسلامٌ سُنِّيٌّ على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه المشهور بوسَطيَّته واعتداله، وعلى العقيدة التوحيدية السَّلفية إلى عصر المرابطين والعقيدة الأشعرية ابتداءً من عصر الموحِّدين.

وكان للمرابطين وفقهائه ودُعاته من المغاربة دورٌ أساسيٌّ في تثبيت هذا المذهب السُّنِّي وعقيدة التوحيد الصافية في نفوس الأفارقة. والعلماءُ والفقهاءُ الذي توافدوا على المنطقة من الشمال الإفريقي بعد ذلك وعلى مرّ العصور، كانوا جميعاً من أصحاب هذا المذهب وهذه العقيدة، وحتى الفرقُ والمذاهبُ الصوفية التي انتشرت هنالك كانت فرقاً سُنية مُعتدلة كالسَّنوسية والزرُّوقية والقادرية والتيجانية. ومناهجُ التعليم التي وُضِعت وطُبِّقت عبر المراحل التاريخية المختلفة كانت تقوم على أساس كُتُب الفقه المالكي بأصوله وفروعه وشروحه وحواشيه. وكلُّ العلماء الذين برَّزوا واشتهروا في السودان الغربي كانوا من فقهاء المالكية وعلمائها بلا استثناء. لذلك نجد أسماءهم تملأ كتبَ طبقات المالكية كالديباج لابن فرحون، ونيل الابتهاج وكفاية المحتاح للتُّنبكتي، وشجرة النور لابن مَخلوف، وغيرها.

أما المظهر الثاني من مظاهر الحضور والتأثير، فيتجلى في مناهج التعليم ومصادره ومراجعه وأسانيده. فهي في أغلبها مغربية روحاً وجَسَداً. والمنهجُ المغربي في التعليم يبرزُ منذ الدخول إلى الكُتّاب والبدء في حفظ القرآن برواية ورش، إلى تعلُّم الكتابة بالخط المغربي المعروف والمتميِّز بشكله ورسمه ونُقَطه وترتيب حروفه، إلى حفظ المتون الفقهية واللغوية والأدبية، ثم مرحلة التبحُّر في مختلف العلوم باستخدام المصادر والمراجع المغربية والأندلسية في غالب الأحيان، باستثناء بعض المصادر السُنية المشرقية (المالكية وغيرها) كان المغاربةُ أنفُسُهم يعتمدونها ويرجعون إليها كمختصر خليل وشروحه وكتب السيوطي وابن حجر ... وغيرها. وقد أورد المرحوم الأستاذ إبراهيم الكتاني في مقدمة تحقيق كتاب فتح الشكور للولاتي، قائمةً طويلة بأسماء الكتب المغربية التي كانت

تُدرس في مراكز التعليم بالسودان الغربي، كالشفا لعياض، ودلائل الخيرات للجزولي، ومقدمة ابن آجرُّوم في النحو، وشرح المكودي على الألفية، والمرشد المُعين لابن عاشر، ولامية الزَّقاق، والدُّرَر اللوامع لابن بَرِّي التازي، وإضاءة الدُّجُنَّة للمقَّري، وشرح الحكَم العطائية للشيخ زروق الفاسي، والمدخل لابن الحاج، والشروح المغربية للمدوَّنة وغيرها من كتب الفقه المالكي.

هذا فضلاً عما ورد في حديث طويل له عن الأسانيد المغربية في الروايات والإجازات التَّكرورية السودانية. وقد سبق لي أن بيَّنتُ في بحث آخر، عُمق التأثير المغربي في مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي وأخيه عبد الله وابنه محمد بلّو، وهؤلاء الثلاثة كانوا من أكبر العلماء وأكثرهم تأليفاً في عصرهم، ممن يمكن اعتبارُهم بمثابة نماذج لسواهم من علماء السودان الذين نجد في فهارسهم وأسانيد شيوخهم لائحةً بأسماء الشيوخ لمغاربة والأسانيد المُتَّصِلة بهم في الرواية والأخذ والإجازة والإسناد، وفيها أيضاً صورةٌ واضحة عن هذا التأثير. الجانب الثالث يتجلَّى في الطُّرُق الصوفية التي انتشرت بأفريقيا الغربية. فكلُّها طرُقٌ مغربية كالسنوسية والزرّوقية والشاذلية والناصرية الدَّرعية والتيجانية .

أما القادرية فهي وإن كان منشأُها مشرقياً (نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني)، إلا أنها تَكيَّفت واصطبغت بالصبغة المغربية منذ أن دخلت إلى المغرب في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ـ فيما قيل ـ على يد الشيخ أبي مدين شُعيب الغَوث دفين الجزائر ، وأخذت بعضُ فروعها أسماء مغربية. وكان الذين نشروها في السودان الغربي هم الشيوخُ الكُنتيّون الذين أقامت أسرتُهم فترة بمنطقة توات، ثم تعمَّقوا في قلب الصحراء ومناطق من السودان الغربي.، ومنهم أحمد البَكاء وابنُه الشيخ عمر الذي أصبح ـ كما يقول بول مارتي ـ :«الرئيس الأعلى للطريقة» وأطلق اسم أبيه على فرع القادرية الذي هو مؤسِّسُه، ويقصد الطريقة البكائية التي نشأت في زاويتهم بتوات. وفي عهد الشيخ المختار بن أحمد الكنتي المعروف بالكُنتي الكبير(ت١٢١١هـ) أُحدِثَ في أزواد فرعٌ آخر جديد للطريقة القادرية سُمِّي بالطريقة المُختارية نسبة إلى الشيخ المختار،.على أن الشيخ عمر نفسه أخذ الطريقة عن الداعية الكبير أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي اعتبره بول مارتي أيضاً «الرئيس الأعلى للطريقة القادرية في الغرب الإفريقي» كله. وكان الشيخ عثمان بن فودي نفسه قادريَّ الطريقة ، وقد أوصل سلسلةَ سنده في هذه الطريقة بالشيخ المغيلي.

ولا شكَّ أن تأثير الطرق الصوفية المغربية في هذه المنطقة تأثير قويٌّ جداً ما يزال فاعلاً وحاضراً في كافة الطبقات والشرائح الاجتماعية على اختلافها، ولا شكَّ أيضاً في أنها قامت بأدوار وأدَّت خدماتٍ جليلةً بإسهامها الكبير في نشر الدين والثقافة والتعليم العربيَّين الإسلاميَّين، من جهة، وبصمود رجالها في وجه الغزو الاستعماري والثقافي في العصر الحديث من جهة أخرى.

أما المظهر الرابع فيتجلى في دور علماء المغرب وفقهائه ودُعاته، سواءٌ منهم الذين كان تأثيرُهم مباشراً بحضورهم في أرض السودان أو الحضورِ إليهم في أرض المغرب، أم غيرَ مُباشِر بواسطة كتُبِهم ومؤلفاتهم التي انتشرت واشتهرت في أفريقيا الغربية، وأصبحت تمثِّل المصادرَ والمراجع المعوَّل عليها والمتونَ التي لا بد من حفظها واستظهارها والاستشهاد بأقوالها ونصوصها .

فأما الوافدون من فقهاء المغرب وعلمائه ودُعاته، فكانت رحلتُهم إلى السودان الغربي مستمرّةً طيلة مراحل التاريخ الإسلامي دون انقطاع. ونحن وإن كنا لا نجد لائحةً بأسمائهم في القرون الأربعة الأولى للهجرة، فإن الدليل على وجودهم قائمٌ، وحضورهم ثابتٌ لا شكَّ فيه. فالإسلامُ لم يكن ليصل إلى تلك البقاع، ويستقرَّ في تلك الأصقاع قبل المرابطين، دون دعاة وفقهاء وأئمة كان همُّهم في نشر رسالة التوحيد وثقافة الإسلام ولغة القرآن وليس في تخليد أسمائهم. وابتداء من العصر المرابطي، بدأنا نعثر على أسماء فئةٍ من هؤلاء أمثال عبد الله بن ياسين الجزولي، وأبي بكر الحضرمي المرادي، وأبي عبد الله بن وانسول السجلماسي أحد مصادر ابن خلدون المعتمدة في أخبار مالي، والفقيه محمد بن محمد بن عليٍ اللمتوني صاحب المسائل الفقهية التي بعث بها إلى السيوطي مستفسراً سنة ٨٩١هـ، وأبو عثمان سعيد الدكالي الذي أقام بمملكة مالي مدة طويلة (خمسة وثلاثين عاماً) وكان من أهم مصادر ابن فضل الله العُمري الشفوية عن أحوال السودان ، وهناك أسماء أخرى لفقهاء وقضاة وغيرهم ذكرهم ابنُ بطوطة في رحلته للسودان (القرن الثامن الهجري) مثل الفقيه محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان بمدينة كوكو ، ومحمد بن الفقيه الجزولي بعاصمة مالي، وصهره الفقيه المقرئ عبد الواحد، ، وعلي الزَّودي المراكشي من الطلبة، وأبي إبراهيم إسحاق الجاناتي قاضي تَكَدَّة ، والفقيه محمد بن عبد الله من أهل تكدَّة أيضاً، فضلاً عن جماعة آخرين ممن لم يذكر صفتهم.

وكان لعلماء توات ـ وخاصة أسرة الكُنتيّين ـ حظوةٌ خاصة عند ملوك بُرنو الإسلامية ويعتبرونهم من المرابطين وينظرون إليهم نظرة إكبار وتعظيم، ويسعون لاستقدامهم إليهم وإغرائهم بالإقامة بينهم. وقد

احتفظت لنا بعضُ المصادر بنصَّ رسالة وجَّهها أحدُ سلاطين برنو سنة ٨٤٣هـ إلى هؤلاء المرابطين في منطقة توات يقول فيها :« فقد عجبنا من أمركم لماذا تركتم عادة كبرائكم؟ لماذا قصَّرتم عن النزول وإرسال البعثات إلى بلادنا منذ عهدكم مع كبيرنا فأنتم لم تعودوا إلينا منذ ذلك الحين ... فعليكم أن تأتوا إذن كعادتكم لأن البلاد بلادكم كما كانت بلاد أسلافكم ..»

ومن أشهر مشاهير العلماء الذين قدموا من توات، فزاروا المنطقة وأقاموا فيها واحتفظت لنا كتبُ التاريخ بأسمائهم: نذكر في مقدمتهم أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي (٩٠٩هـ) صاحب التصانيف والرسائل والأجوبة المعروفة. كانت له حظوةٌ كبيرة عند ملوك كانُو وكاتشينا ببلاد الهوسا، وملك السُنغاي أسكيا الحاج.

كما كانت له اليدُ الطُّولى في رسم خطوط السياسة الشرعية لهذه الإمارات وتعيين القضاة وإقامة الحُدود الشرعية، وإصلاح أمور المجتمع الدينية والدنيوية والتعليمية والثقافية، وتكوين الأئمة والمُرشدين والفقهاء والدعاة، وتقديم المشورة والنُّصح للحكّام وذوي الأمر الذين كانوا ينزلون عند رأيه وأحكامه ومشورته ولا يُمضون شيئاً ذا بال إلا بموافقته.

وقد ترك المغيلي مجموعة فتاوى ورسائل فيها تحديدٌ وتوجيه لمعالم الطريق التي ينبغي أن يسلكها الحُكام في سائر أمورهم ، فصار له شأن كبيرٌ عندهم، واستمرَّ تأثيره أجيالاً من بعده حتى وجدنا خلفاء الدولة العُثمانية الفوديوية بعد حوالي ثلاثة قرون يعتبرون كتبَه ورسائله وفتاواه المِشكاةَ التي بها يستنيرون، والمَعلَمَ الذي به يهتدون، فلا يفترون عن ذكره والاحتجاج بأقواله وآرائه في كل ما تركوه من أعمال ومصنّفات . ويندر جداً أن تجد كتاباً من كتب تاريخ السودان الغربي حديثاً أو قديما، خالياً من ذكر المغيلي ومآثره. ولم يكن المغيلي وحده صاحب الشأن والتأثير، فقد جاء آخرون أيضاً وكان لهم دورٌ كبير في الحياة العلمية والثقافية بكانو وكانشينا، منهم الفقيه البلبالي (مخلوف بن علي بن صالح) (ت بعد ٩٤٩هـ)، وعبد الرحمان سُقّين (ت٩٥٦هـ) تلميذ ابن غازي وغيرهما.

وما هؤلاء الذين ذكرناهم سوى عيِّنة ممن احتفظ التاريخُ بأسمائهم، من العلماء والفقهاء الذين وفدوا إلى إفريقيا وتركوا فيها بعض آثارهم وبصماتهم. مع العلم أن كتابة تاريخ العلم والعلماء في المنطقة لم تبدأ في الظهور إلا مع أوائل القرن العاشر الهجري، أي مع ظهور كتاب كعت المسمى تاريخ الفتاش الذي بدأ صاحبُه في كتابته سنة ٩٢٥هـ ، وما تبعه

من مؤلفات أخرى ككتابَي أحمد بابا التنبكتي النَّيل والكفاية، وتاريخ السعدي المعروف بتاريخ السودان ، ثم تذكرة النسيان ، وما تبعها من بقية الكتب الأخرى.

أما قبل ذلك فلم تكن لدينا وثائق أو فهارس بها أسماء العلماء. ولذلك لا غرابة أن تضيع أسماءُ الكثير من العلماء والفقهاء المغاربة الذين أسهموا في نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية وبناء النهضة العلمية طيلة القرون التسعة الأولى، إلا ما جاء عَرضاً على لسان بعض الرَّحالة والمؤرخين والجغرافيّين ممن دخلوا المنطقة (كابن بطوطة وابن الوزّان) أو وصفوها من بعيد كالبكري والعُمَري والإدريسي والمقريزي وابن خلدون وسواهم .

وقد اهتم الرحّالةُ الغربيّون بدورهم منذ بدأوا استكشاف الصحراء وإفريقيا الغربية، بتسجيل ظاهرة الوجود العربي والعنصر المغاربي في المنطقة والتحدُّث بذلك في كتاباتهم. فقد كتب الرحّالة البرتغالي ألفيس دا كادا موستو(*Alfise da Cada Musto*) الذي زار منطقة السنغال في القرن الخامس عشر أنه يوجد بجانب السلطان فقهاء وأئمة دين من المغرب والصحراء يرافقونه ويُملون عليه ما ينبغي تطبيقُه من أحكام .

وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي كتب مؤرخ برتغالي آخر وهو(فرنانديز *Fernandes*):عن وجود علماء دين آخرين جاؤوا من فاس أو مراكش كانوا مقيمين في السنغال. وهناك رحّالة غربيون من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لاحظوا هذه الظاهرة أيضاً في مناطق مختلفة من إفريقية، ومنها منطقة الكاميرون ، وسجَّلوها في كتاباتهم.

وهناك في مقابل الوافدين من المغرب على السودان الغربي، فئةٌ من الأفارقة قدموا إلى المغرب في رحلات عِلمية خاصة، فأقاموا به وأخذوا عن أشياخه وعلمائه، وفئةٌ أخرى جاءت في رحلات سِفارية أو حَجِّية ، فوجدت في إقامتها مناسبةً للاحتكاك بعلماء المغرب والاطلاع على مؤلفاتهم وربط الصلة العلمية المُباشِرة بهم . ولعل صيتَ الأديب الشاعر أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي (ت٦٠٨ أو ٦٠٩هـ) - أقدمِ الوافدين الأفارقة المعروفين إلى المغرب - قد طرق الأسماعَ في كل بقاع الأرض، بسبب بيتين رائعين أنشدهما في مدح الأمير الموحِّدي يعقوب المنصور وهما قوله:

أزالَ حِجابَــه عنـــي وعَينـــي تَراهُ من المَهابة في حِجــابِ

وقَرَّبنـــي تفضُّلُـــه ولكــــن بَعُدتُ مَهابةً عنـد اقترابـــي

ورغم أن السبب في وجود الكانمي بالحضرة المراكشية واتصاله بأميرها المنصور غيرُ معروف على وجه الدقة، إلا أنه من الثابت أن الرجل اختلط بالأوساط العلمية لعاصمة الدولة المُوحِّدية، وكانت يومها تعجُّ بالعلم والعلماء، وقرأ فيها وأقرأ، ورحل منها إلى الأندلس ثم عاد إليها وقضى فيها بقية حياته إلى أن وافاه أجله.

ومن أعلام السودان الذين رحلوا إلى المغرب أيضاً الإمام القاضي كاتب موسى في عهد سلطان مالي منسا موسى (ق٨هـ). وقد كان من كبار المشايخ وتولى إمامة المسجد الكبير بتنبكتُو.

قال عنه السعدي في تاريخه: «وهو من علماء السودان الذين رحلوا إلى فاس لتعلُّم العلم في دولة أهل مالي بأمر السلطان العدل الحاج موسى ». وفي هذه الإشارة ما قد يفيد بأن هذا السلطان ـ على الأقل ـ كان يرسل بعثات طلابية للتعلُّم في المغرب، وربما كان يقدِّم لهم من المعونات المالية وغيرها ما يقوّي عزمَهم ويشجّعهم على تحمُّل أعباء الغربة والإقامة في طلب العلم.

ولم يكن كاتب موسى أولَ شخص يُبعَثُ إلى المغرب للتبحُّر في العلوم في عهد هذا السلطان المعروف بشغَفه بالعلم والكُتُب والثقافة العربية، فمن الطرائف التي حكاها السعدي في تاريخه أن الملكَ منسا موسى حين رحل للحج رجع ومعه الشيخ عبد الرحمان التميمي ليستعين به على نشر العلم في بلده مالي، ولكن هذا الفقيه المشرقي لم يكن له شُفوف على علماء السودان وطلبتها، فوجد نفسه مضطراً للرحلة إلى المغرب لزيادة التعلُّم وخاصة في الفقه المالكي وفروعه. قال السعدي متحدثاً عن الشيخ يحيى التادلسي (ت٨٦٤هـ) وهو من علماء تُنبكتُو الكبار: «وروي أن طلبة سَنكَري إذا جاؤوه لأخذ العلم يقول: يا أهل سَنكُري، كفاكُم سيدي عبد الرحمان التميمي، وهو جاء من أرض الحجاز صحبة السلطان موسى صاحب مالي حين رجع من الحجِّ، فسكن تُنبُكتُ وأدركه حافلاً بالفقهاء السودانيّين، ولما رأى أنهم فاقوا عليه(كذا) في الفقه، رحل إلى فاس وتفقَّه هنالك، ثم رجع إليه فتوطَّن فيه ... ».

وإذا كان لنا ما نعلِّق به على هذه القصة، فهو أن الرحلة إلى المغرب وعواصمه، كانت عند أهل السودان من الأمور التي تُكسب صاحبَها جاهاً ومكانةً بين العلماء، وأن طريق الفقه المالكي إنما يُوتَى من المغرب لا من المشرق. والظاهر أن الذي دفع التميمي إلى الرحلة للمغرب وحَفَّزَه لها هو السلطانُ موسى، ولاسيما أنه كان بجانبه مستشارٌ أندلسيٌّ مغربي ذو كلمة نافذة هو أبو إسحاق إبراهيم الساحلي الذي زار المغرب هو الآخر في سِفارة بين سلطان مالي وأبي الحسن المرينيّ.

ويقول أحدُ الباحثين المتخصّصين في العلاقات الثقافية المغربية السّودانية: إن ظاهرة الرحلة لطلب العلم بالمغرب، أخذت مع بداية القرن التاسع الهجري، «تعرف نمُواً مطّرداً ومُتزايداً، ويتضح لنا ذلك من خلال بروز عدد من العائلات العلمية السودانية، نخصُّ بالذكر منها عائلتَي أقيت وبُغَيغ اللتين لمع نجمُهما في بلاد السودان منذ النصف الثاني من القرن التاسع الهجري. وكان العديدُ من أعلام هاتين الأسرتين قد دخل المغرب ليأخذ من فقهائه. ومنهم من توفي ودفن بالمغرب».

وبمناسبة الحديث عن أسرة أقيت، وهي أسرة صنهاجية كبيرة، يجب أن لا نغفل ذكر عُمدة هذه الأسرة وأُسطوانتِها ورَحاها في العلم والمشيخة ومفخرتها عبر التاريخ، ونعني به أبا العباس أحمد بابا التنبكتي الصنهاجي. فرحلتُه إلى المغرب التي دامت حوالي أربعة عشر عاماً (١٠٠٢ ـ ١٠١٦هـ) هي أشهر رحلة في تاريخ العلاقة الثقافية بين المغرب والسودان. ورغم أن الرجل لم يأت المغرب طائعاً ولا راغباً وإنما أُكرهَ على المجيء، لكن نازلته هذه من النوازل التي يصدقُ عليها قولُ الله تعالى وعسى أن تَكرَهُوا شيئاً وهو خَيرٌ لكُم. فقد أخَذَ عنه في مراكش خلقٌ كثير، ولكنه بالمقابل أخذ وقرأ وألَّفَ واطَّلعَ على ما لم يكن -وهو بالسودان ـ ليطّلع عليه أو يصل إليه من النوادر ونفائس الكتب التي حمل بعضَها معه.

وقد اعترف أحمد بابا نفسُه في بعض مؤلفاته بهذا الفضل، فضلِ إقامته بالمغرب وما عادت عليه بالنفع العميم . بل إن أحمد بابا لم يكن لينال تلك الشهرة التي نالها والصِّيتَ الذائعَ الذي أصبح له، لولا تلك الرحلة التي لقي فيها مَن لقيَ، وتلمذَ له من تتلمذَ. وما كان مجيءُ أحمد باباً لوحده في تلك الرحلة التي أُكرهَ عليها، وإنما جاء معه آخرون معدودون في أسرته وأصحابه، نالوا بدورهم ما ناله من نصيب الاطلاع والاستزادة من زاد المعرفة.

ومن أشهر علماء السودان الغربي الذين كانت لهم رحلةٌ إلى المغرب في نهاية القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، الشيخ محمد الأمين الكانمي الذي أصبح أميراً على بلاد بُرنو في تشاد الحالية. وكانت له قبل ذلك رحلة إلى المشرق، ثم عرَّج على بلاد المغرب فأقام في فاس مدةَ سنتين وزار طرابلس والقيروان وتلمسان وغيرها.

ومن أشهرهم أيضاً أحمد بن القاضي أبي بكر الفُوتي أصلاً الدَّوجقي مولداً ثم التُّنبُكتاوي الجَنّاوي، من أهل القرن الثالث عشر الهجري. فقد زار تونس خلال رحلته الحَجِّية، كما زار مدينة فاس وأقام بها أيام المولى سليمان العلوي، وقرأ على عدد من مشاهير علمائها في ذلك الوقت كمحمد

الطيب بن كيران، وإدريس العراقي، وأحمد بن الشيخ التاودي، وأبي عبد الله محمد الزروالي، ومحمد بن عبد السلام الدرعي، وغيرهم.

ومنهم في القرن الثالث عشر الشيخ الحاج عمر بن سعيد الفُوتي (ت ١٢٨٤هـ) الذي كان على الطريقة الصُّوفية التيجانية، وكانت له رحلة للحج وطلب العلم ، فزار فاس وتلمسان والقيروان وبرقة والقاهرة ، وفيها وفي غيرها من البلاد التي مرَّ بها وأقام، جلس لتلقّي العلم والأخذ عن علمائها.

وُيضاف هؤلاء الذي ذكرنا من الأعلام الوافدين على المغرب، إلى ما أورده المرحومُ إبراهيم الكتاني من أسماء أخرى كثيرة، في مقدمة تحقيق فتح الشكور، وإلى أسماء غيرها واردةٍ في مصادر متعدِّدة، فلتُراجَع في مكانها.هذا عن العلماء الوافدين من المغرب وإليه. وبجانبهم نشأت شريحةٌ كبيرة من العلماء الأفارقة من ذوي الأصول الصحراوية والمغربية نجد أسماء عدد غير قليل من أفرادها في مؤلفات أحمد بابا التنبكتي وخاصة كتابي النَّيل والكفاية، وفي كتابي السَّعدي وكعت، فضلاً عما ذكره المتأخرون من أمثال الشيخ العتيق بن الشيخ سعد الدين الدغوغي السُّوقي في كتابه الموسوم بالجوهر الثمين في أخبار صحراء الملَّثمين ومَن يُجاورهم من السَّوادين. ولو أردنا أن نقتصر فقط على أسماء الأسر العلمية ذات الأصول الصحراوية المغربية، لما وجدنا أحسن من كتاب البرتلّي الولاتي المعروف بكتاب: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التُّكرور، شاهداً على كثرتها وتفرُّعها. فقد أتى المؤلف على ذكر مئتين وخمس عشرة ترجمة لعالم أو فقيه، أغلبُهم ينحدر من أسر مغربية أو صحراوية عربية أو أمازيغية. ومن هذه الأسر ذات الأصل الصحراوي والمغربي التي تسلسل العلمُ في أعقابها، وعلماؤها معدودون في علماء التكرور (السودان) الذين أوردهم البرتلي، نذكر على سبيل المثال: أسرة آل أقيت الصنهاجية التي ينتسب إليها أحمد بابا وجدُّه وأبوه وإخوانه، وأسرٌ أخرى كآل التواتي ، والولاتي ، والغلاوي ، والفيلالي ، والوداني ، والكُنتي، والديماني ، والسُّوقي ، والجكني ، والحنشي ، والأرواني ، والدليمي، والوافي ، والمحضري، والبابالي، والتادلي، والدكالي ... وغيرهم .

والحديث عن الأسر العلمية المنحدرة من مناطق شمال السودان، يقودنا إلى التوقف عند مظهر خامس من مظاهر التأثير المغربي وهو المتمثِّل في العنصر البشري الطارئ على العناصر السُّكانية المحلّية. فقد كان سكانُ السودان الغربي يتكوَّنون أساساً من عنصر زنجي إفريقي قديم وهو الغالب، وعنصر بربري قادم من الصحراء في فترات سابقة للإسلام وهو يمثل أقلية من البيضان. ولكنه بعد دخول الإسلام أصبح العنصر

البربـري الصـحراوي القـادم مـن الشـمال يتقَّـوى جـيلاً بعـد جيـل، ولاسيما فـي العصـر المرابطـي ومـا بعده. ولـيس التـوارقُ المنتشـرون فـي عـدد مـن دول جنـوب الصـحراء (وخاصـة فـي مـالي والنيجـر وتشـاد وبوركينا فاصو..) إلا من هؤلاء الملثَّمين القدامى، وهم خليطٌ من البربر والعرب المُتبربرين. ولقد كان لهم دور كبير في تأسيس دول وممالك في مالي وغيرها.

على أن العنصر الزِّنجي نفسه كثيراً ما وجدنا قبائل منه تحاول ربط نسبها بالعرب (من أبناء عقبة أو عرب اليمن الحِميريّين أو ترفع نسبها إلى علي بن أبي طالب). وعرف العهد الإسلامي أيضاً هجرة بعض القبائل العربية القادمة من الشرق إلى المغرب ومنهم قبائل بني حسان ومَعقل والشاوية المعروفون اليوم في نيجريا بعرب الشوا. وقد عرفت المنطقة عبر التاريخ موجات عديدة من هجرة القبائل العربية والبربرية من الصحراء إلى السودان، واندمج أبناؤها مع العنصر الزنجي على فترات، ولاسيما بعد أن توسَّعت مملكة السُّنغاي الإسلامية وأصبحت تضم ولاتة وتغازّة وتَدَمَكَّة وتكدَّة وأهير وغيرها من مدن الصحراء ومناطقها وتعتبرها جزءاً من أراضيها وخاصة في عهدي سُنِّي علي وأسكيا الحاج. ومنذ بداية القرن الحادي عشر الهجري الذي عرف دخول جيش المنصور السَّعدي إلى مالي واستقراره مع أُسَره ومَن تناسل منه من أجيال طيلة قرون، ازدادت قوةُ العنصرين العربي والبربري وأضيفت عناصرُ أخرى من الأتراك والأندلسيّين ذوي الأصول المختلطة الإسبانية العربية الأمازيغية.

وهكذا أصبح المجتمع الإفريقي في تنبكتو وجِنّي وجاوةَ وغيرها من المدن والمناطق المتَّصلة بها، مكوَّنة من خليط من العناصر السكانية، كنتَ تجد فيه الفاسيَّ والمراكشي والدرعي والزعري والدكالي، والدغوغي، والجزولي، والمسُّوفي، والصنهاجي، واللَّمتوني، والجاناتي ، والأندلسي، والجزائري، والتواتي، والتلمساني، فضلاً عن العُلوج الإسبان والأتراك الذين كانوا قد دخلوا في الجيش السعدي.

ومن أهل القبائل المغربية الأخرى: شراكة والشياظمة وحاحة، وتادلة، وأهل ماسّة، وشتوكة، وأولاد جرار، وأولاد عمران، والمنبهيّين، وفشتالة، ومن أهل الأطلس والغرب والصحراء وغيرها من المناطق الأخرى. وقد تحدثت بعضُ المصادر عن أحياء تنبكتو التي كانت تقطنها هذه العناصر من جيش (الرُّماة) المغربي، وأماكن سُكناهم الأخرى في جِنّي وغيرها من المدن والقرى . وهكذا أصبح من الطبيعي أن يكون لهذا العنصر المغربي الآتي من مناطق مغربية شتّى، قوياً ومؤثراً بعاداته وتقاليده ولباسه ومطبخه وثقافته ولغته.

ولو أردنا التوقُّف عند الجانب اللغوي من جوانب التأثير لهذه الكتلة السُّكانية المغربية التي تناسَلت وتكاثَرت وتعاظَمَ شأنُها مع الأجيال والحقب والقرون، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من تركيبة المجتمع السوداني إلى اليوم، لكفانا، في تلمُّس هذا الأثر، ما نجده في النصوص التاريخية الثلاثة المشهورة وهي: تاريخ السعدي وتاريخ الفتاش وتذكرة النسيان، من عشرات الألفاظ المغربية. وقد عنَّ لي أن أشتغل بهذا الموضوع خلال فترة إقامتي بالنيجر، فاستخرجتُ من هذه المصادر الثلاثة قاموساً غنيّاً بالألفاظ المغربية التي نقلَها المغاربةُ في جملة ما نقلوه من ثقافتهم وعاداتهم إلى السودان، سنعمل على نشره في أقرب فرصة بحول الله تعالى. وتتناول هذه الألفاظ مختلف جوانب الحياة من لباس وأدوات وأطعمة وأسلحة وحرف وصناعات ومهارات ومعارف وعادات.

وهذه نماذج مختارةٌ منها: الباشا - البارود - البراوة / البرا - البُرنس - البرّاح - الحانوت - الحومة - الحيوط (ج: حائط) - المخزن - المخازني - الجنان - الثقاف - التحريكة - التحزيمة - الشاشية - المحلة (المُعسكر) - الحُوت - الخابية - الرحبة - الرغايف - الزربية - الزغاريت - الزمام - المزوار - سافط (أرسل) - المشور - المشاور - شاوش - مطيار - طيّر الماء - الظهير - العرصة - غيّاط (ج: غياطة) - الفرَجية (لباس) - قربوس - قفطان - الكاهية - تكمَّش - مولاي - شربيل - الروز - الروضة (المقبرة) - الروى (الأروى) - الطار - المُونة - الشكارة - الطيفور - اللحيفة (اللحاف) - المكحلة (البندقية) .... وهناك عشرات الكلمات والتعبيرات الأخرى ذات الاستعمال المغربي المعروف. وهي من حيث أصولُها الاشتقاقية إما عربية محرَّفة من الفصيح، وإما أمازيغية أو متأثِّرة في صيغتها الصرفية بالأمازيغية، وإما من أصل تركي دخل مع العناصر التركية التي استعملها السعديون في جيوشهم.

وظاهرةُ انتشار الألفاظ المغربية في لغة أهل مالي، ظاهرةٌ فريدةٌ من نوعها تستحقُّ منا وقفةً خاصة. فالظاهرُ أن استعمالها لم يكن مقصوراً على أولئك الكتّاب المؤرخين الثلاثة الذين كان من المفروض أن يتجنَّبوا استعمالها لأنها من العامِّي الدارج لا من الفصيح المُستعمَل في الكتابة والتأليف بكل أقطار العالم الإسلامي. ولكن اضطرارهم لاستعمالها دليل على كثرة شيوعها مع كثير غيرها من العامية المغربية، في بيئتهم ومجتمعهم السُّوداني، ودليلٌ أيضاً على أنها كانت طاغيةً ومتغلبة حتى على الفصحى نفسها، وأن الطبقة المثقَّفة في تلك البيئة لم تكن تجد حرَجاً من استعمالها في التأليف والكتابة، وربما كان في ذلك دليل على ضعف المستوى التعليمي عند هؤلاء المؤرخين.

علـى أنـه مـن الثابـت، مـن ناحيـة أخـرى، أن لا أحـد مـن أصـحاب المؤلفات الثلاثة المذكورة، غادرَ بلدَه إلى المغرب حتى نقول إنه التقطَ تلك الألفـاظ من البيئـة المغربيـة التـي رحـل إليهـا. فكلُّهم وُلـدوا ونشـأوا ومـاتوا بالسودان، وكلُّ ما هنالك أنهم نشأوا في مجتمع مكوَّن من جالية سُكانية مغربية كبيرة وذاتُ تأثير قوي، ومع مرور الوقت أصبح كلامُها جزءاً من كلام السكان عامة.

وقد بحثتُ عن هذه الظاهرة في غير هذه الكتب المالية الثلاثة، فلم أعثر علـى طائـل، سوى كلمتين اثنتين وردتـا فـي رسـالة ألَّفَهـا أحمدُ بـن القاضـي الفُلانـي الدَّوجقي الذي نشأ وتعلَّم وأقام تـارةً فـي تُنبكتُو ثم جِنِي وإليهما نسبَ نفسه فقال (التنبكتاوي أُفُقاً الجناوي قراءةً)، وهي بعنوان: هَتك السِّتر عما عليـه سودانُ تونس من الكُفر، وقد ألَّفهـا وقدَّمها لحـاكم تونس حمودة باشا (ت ١٨١٣م) عند عودته من الحجّ وقبل زيارتـه لفاس التي ذكرنا سابقاً أنه أقام بها فترة ولقي فيها عدداً من العلماء والأشياخ. أي أن ابن القاضي جاء من منطقة تنبكتو وجنـي وهو يحمل معه آثـارَ اللّهجة المغربيـة من قبل أن يدخل المغرب ويلقى أهلَه ويستمع لكلامهم ويتـأثر بلغتهم .

والطريف في كتابات ابن القاضـي أن نجد عدداً من الألفاظ جـاءت مـن أصـل إفريقـي، وأصـبح أغلبُهـا مسـتعملاً فـي العاميـة المغربيـة منـذ العصـر السعدي (ق١٠هـ / ١٧م) أي منذ دخول جيوش أحمد المنصور إلى تنبكتو ومـا وراءهـا من المدن والأقـاليم السودانية. ومن هذه الألفاظ نذكر: كمبري (آلة موسيقية ـ بَمبارا ـ كناوة ـ تكدَّة ـ تُوريـ دِردِبة ـ دُندُف (آلة موسيقية) . فهذا ضربٌ من ضروب التأثير المتبادل بين المغرب وبلاد السودان الغربي. وضربٌ آخر تحدَّث عنـه ابنُ القاضـي فـي كتاباتـه أيضـاً ويتجلى في بعض العادات الشعبية الإفريقية التي انتقلت إلى المغرب عن طريق المجلوبين من بلاد السودان، ومنها مظاهر السحر والشَّعوذة وفنون الرقص والغناء المرتبطة في الأصل بعبادات ومعتقدات دينية إفريقية، وقد اعتبرهـا ابـنُ القاضــي مـن المظـاهر المنافيـة لـروح العقيـدة الإسـلامية الصحيحة وطالب حكامَ تونس والمغرب بالتدخل لمحاربتها .

وذلك مظهر سادس من مظاهر التـأثير الـذي نتحدث عنـه. والمظهر السـابع، هو الـذي يتحـدث عنـه كثيـر من المؤرخين والبـاحثين من قدامى ومُحدَثين، حين يتعرَّضون لسيرة رجل من أصل أندلسـي كـان مقرَّبـاً جداً من سلطان مالي الحـاج منسا موسـى، وجـاء معـه عند رجوعـه من الحـج، بعد أن أُعجِبَ بـه أيَّمـا إعجاب، فاتخذه مستشـارَه الخـاصَّ والمُشرفَ علـى إنجاز كثير من المشاريع الثقافية والعُمرانية، ونعني به أبـا إسحاق إبراهيم الساحلي(ت٧٤٧هـ) الذي كُلِّف بمهمة تطوير العُمران في دولة مالي،

فأنجزَ بناءَ قصور للسلطان ومساجد وغيرها على طريقة العمران السائد في جنوب المغرب وقت ذاك، والقائم أساساً على الطين المضغوط بالخشب، والزخارف والنقوش والأصباغ الأندلسية المغربية التي اعتمد فيها على مواد محلية. فكان هذا النمط من العمران جديداً على أهل السودان، فنال إعجابَهم وإكبارَهم.

وقد تناول أستاذنا العلامة محمد ابن شريفة شخصية الساحلي بالدرس والتحليل وتطرَّق إلى تكوينه الأدبي والعلمي المتعدِّد الجوانب وأعماله ومنجزاته في بلاد السودان وما كان لها من تأثير في تنمية الأذواق وتغيير أنماط اللباس والعمران والتعليم والسلوك، وختَمَ ذلك بالقول إن عمل الساحلي وتأثيره في السودان لم يكن ليقلَّ عن عمل زِرياب وتأثيره في بيئة الأندلس. وقد أشار السعدي في تاريخه إلى شيء من هذا التأثير المغربي في العمارة والعُمران بالسودان وتنبكتو على الخصوص، بالمفهوم الواسع لكلمة (عُمران) الذي يشمل الحضارة والثقافة ، فقال: « فكانت تنبكت خرابَ بير، ولم تأتها العمارةُ إلا من المغرب، لا في الديانات ولا في المعاملات. فأولُ الحال كانت مساكنَ الناس فيها زَريبات الأشواك وبيوت الأحشاش ، ثم تحوَّلوا من هذا إلى بناء الحُيوط أسواراً قصاراً جداً، بحيث مَن وقفَ في خارجها يرى ما في داخلها. ثم بنوا مسجد الجامع على حسب الإمكان، ثم مسجد سَنكُري كذلك، ومن وقف في بابه يومئذ يرى الحيطان والبُنيان، وما ثبتَت عمارتُه إلا في أواخر القرن التاسع، وما تكامل البناءُ في الالتصاق والالتئام إلا في أواسط القرن العاشر في مدة أسكيا داوود ..» ص: ٢١ .

ومما يُلحق بالعُمران بمعنى الحضارة والمدنية والثقافة أيضاً، مسألة اللباس التي لا شك في كون أهل السودان قد تأثَّروا فيها بالنمَط المغربي باتخاذهم البرانس والقفاطين الملوَّنة والفَرَجيات والمَنصوريات والشاشيات الحمراء والعمائم البيضاء والقُمصان للرجال، والشرابيل للنساء، واتخاذ الشكارات (جمع: شكارة) والحمائل، ومن الأفرشة اللحائف والزَّرابي، وكلها أشياء وردت ألفاظها ضمن المعجم المغربي السوداني الذي أشرتُ إليه سابقاً. ومما شاهدته ولمستُه من بقايا ذلك في المنطقة، أني حين زرتُ سُلطانَي صُوكوتو وكانو في نيجيريا عام ١٩٩٦م، لاحظتُ أن حَرَسَهم السلطاني (المخازنية) يشبه إلى حد كبير في نظامه وهيئته الحرَسَ السلطاني وخدَمَ القُصور الخاص بالمغرب، والبستُه مكوَّنة أساساً من قفاطين ملوَّنة وفوقها فرَجيات بيضاء ناصعة، وعلى رؤوسهم الشَّواشي الحمراء، وفي أيديهم العِصِيُّ الطويلة، وفي أرجلهم البلاغي الصفراء والبيضاء. فأحسستُ وكأني في قصر سلطان مغربي لا فرق إلا في عظمة الهيئة وحسن النظام وأبَّهة المنظر، وجلال الموقف وجودة أنواع اللباس.

وقد كانت ظاهرةُ العُري من الظواهر الشائعة في أفريقيا قبل دخول الإسلام، ومع انتشاره بدأت تختفي شيئاً فشيئاً، وإن كان ابنُ بطوطة قد لاحظ في القرن الثامن بعض بقاياها في مالي، لكنه لاحظ إلى جانبها ما كان السلطانُ وعِليةُ القوم والقُضاة يلبسونه من أثواب حريرية رفيعة وعمائم وطيلسانات وغيرها. ويقول آدمُ الفُنْدُكي صاحب كتاب : الآثار الكنوية (مخطوط)، وهو يتحدث عن أيام السلطان محمد رَمفا حاكم كانُو الذي أقام عنده الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي أواخر القرن التاسع وقصَدَه مغاربةٌ آخرون أوائل التاسع: «وقد حضره كثيرٌ من العلماء والصلحاء وتصدَّق عليهم بمال جزيل، منهم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني والشيخ عبد الرحمان بن زيتا.... وفي زمنه ظهرت الأقمصةُ والعمائمُ وبدأت اللغةُ الحوسيةُ تأخذ من العربية ... » إلى أن يقول : « وقد أنشأ قراءة المدح في زمنه ، فكان يحضر بنفسه يوم تمامه لأنه متواضعٌ جداً يعظِّم العلماءَ. وهو الذي بدأ الشريعة حسبما دعاه العلماءُ الآتية إليه من الأقطار... ومن ذلك الزمان بدأ تفسير اللغة العربية بالحَوسية ...». وحسب سياق النص، فإن هذه المظاهر التي أصبحت تطبع الحياة الثقافية والدينية والاجتماعية بألوانها وملامحها الجديدة، من نشر الشريعة، وتعليم العربية وشرح كتُبها بلغة الهوسا، وإحياء عيد المولد النبوي، والتزام اللباس الإسلامي الساتر للعورة وسائر أطراف الجسم كالقُمصان ووضع العمائم على الرؤوس ، كلها دخلت إلى تلك المنطقة عن طريق الوافدين من رجال الدين والتعليم والإصلاح من رجالات المغرب في الغالب وبعض المشارقة أيضاً. ويعتقد الدكتور ابن شريفة أن للأديب المهندس أبي إسحاق الساحلي المتقدِّم يداً فيما أصبح عليه أصحابُ مالي من ارتداء الثياب البيض الحِسان في العيدَين، وهي عادةٌ لاحظها وسجَّلها ابنُ بطوطة في رحلته.

والاحتفالُ بعيد المولد النبوي على الطريقة المغربية بقراءة الأمداح وشفاء القاضي عياض على الخصوص، أصبح عادةً منتشرة في عهد دولة مالي أيضاً بتنبكتو وغيرها، وقد تحدث السعدي ومحمود كعت في تاريخهما مراراً عن هذه الظاهرة، وأرَّخا لعدد من الذين اشتهروا بفنّ المديح من أهل السودان. وذلك لونٌ آخر من ألوان الحضور المغربي وتأثيره الثقافي والديني.

حول اللغة العربية:

لقد تحدثنا في كل ما سبق، عن دور المغاربة في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية بمختلف مظاهرها في منطقة السودان الغربي، ولكننا لم نتحدث عن دورهم في نشر اللغة العربية لغة القرآن الكريم، سوى ما قلناه عن إدخال تلك الطائفة من الألفاظ العامية المغربية إلى منطقة مالي بعد حملة المنصور السعدي، وانتشارها في المجتمع السوداني وتأثُّر بعض الكتّاب والمؤرخين بها، وما ذكرناه أخيراً من بدء انتشار العربية في مملكة كانو على عهد السلطان محمد رمفا في القرن التاسع الهجري.

ولكن الحقيقة التي أصبحت معروفة لدى الجميع، هي أن انتشار اللغة العربية كان شيئاً مُلازماً بالضرورة لانتشار الدين الإسلامي. فحيثما توجَّه الإسلامُ واستقرَّ، استقَرَّت معه لغةُ القرآن التي هي أداةٌ ضرورية لفهم الوحي والتنزيل عند المسلمين، وضرورية أيضاً لأداء فريضة الصلاة، وحفظ السُّور وقراءة الأوراد، كما هي ضرورية لفهم الكتُب الدينية الأساسية من حديث وتفسير وقراءات وسيرة نبوية وغيرها من العلوم الإسلامية. ومن ثمَّ لم تكن العربيةُ عند المسلمين في يوم من الأيام، مجردَ لغة دينٍ وتعبُّد فقط، بل أصبحت لغةَ تعليم وتعلُّم، ولغةَ فهم وتفهُّم، ولغة ثقافة وحضارة وفنون. ومن ثمَّ تحوَّلت لتصبح جزءاً من العادات والتقاليد ، بل جزءاً من شخصية المسلم وكيانه وهويته .

وإذن، نحن حين كنا نتحدث عن انتشار الإسلام، ودور المغاربة فيه، فإننا كنا نتحدث أيضاً عن انتشار لغة القرآن التي أصبحت لغةَ الدين والتعليم بمختلف أطواره، ولغة التأليف والشعر والأدب وسائر العلوم ولغة القضاء، والتعامل الإداري والمُكاتَبات التجارية والدبلوماسية، وغيرها من المعاملات التي يُحتاج فيها إلى التخاطُب بالكتابة. فالكتابة لم تُعرَف في أفريقيا إلا بواسطة اللغة العربية، وكلُّ ما كان يُحتاج إلى أن يُكتب فإن كتابته كانت تتمُّ بهذه اللغة دون سواها. وبالجملة فإن الثقافة في أفريقيا كانت ثقافة شفوية إلى أن دخلت اللغةُ العربية، وتاريخُها نفسُه كان تاريخا شفويا لم تبدأ مرحلةُ تدوينه إلا بدخول هذه اللغة. فلولا اللغةُ العربية لظل تاريخ إفريقيا السوداء إلى حدود القرن التاسع عشر تاريخاً مجهولاً في العالم. وحتى اللغاتُ الإفريقيةُ الأخرى - غير العربية - حين بدأوا كتابتَها، استعملوا فيها الحرفَ العربي، لأنه لم يكن في أفريقيا قبل مرحلة الاستعمار الغربي حرفٌ سواه. فكُتبت به الهوسا، وتاماشيقت، والزّرما، والفُلانية، واليوربا، والوُلوف، والبَمبارا، وسواها في غرب إفريقيا، والسَّواحلية في شرقها. وقد ازدهرت العربية ازدهاراً كبيراً في ظل الممالك الإسلامية السُّودانية ككانم وبُرنو ومالي والسُّنغاي وماسينا ودولة الخلاقة في صوكوتو وبلاد الهوسا.

ورغم أنها لم تكن لغةَ التخاطب اليومي إلا أنها، كما قلتُ، كانت هي اللغة التي تُستعملُ في أداء الوظائف الدينية والثقافية والعلمية والإدارية. وكان عددٌ من حُكّام هذه الممالك والدول يُتقنونها إتقاناً جيّداً ويُحسنون استعمالها تكلُّماً وكتابةً، شعراً ونثراً وتأليفاً. ولعل أقدم هؤلاء السلاطين والحُكام معرفةً بالعربية هو سلطان مالي الحاج منسا موسى الذي دلَّت القرائنُ الكثيرة على معرفته بالعربية وتذوّق شعرها وأدبها، بدليل ما يُحكَى عن إبراهيم الساحلي أنه صنع لهذا السلطان، وهما يومئذ بالمدينة المنوَّرة خلال موسم الحجّ « روضةً أدبية تحتوي على نظم ونثر وتَصفُ الحالَ في الزَّورة النبوية. ورسمَ الملكُ المذكورُ أن تُقرأ عشيةَ كلِّ جمعة تُجاه الروضة الجليلة، وبذلَ في ذلك أموالاً جمة » . وعلَّق أستاذُنا ابنُ شريفة على هذه الواقعة قائلاً: « ونستفيد مما ذكر أن السلطان منسا موسى كان يفقه العربية ويتذوَّق الشعر العربي، كما أنه فيما يذكر المقريزي كان عالماً بالفقه المالكي.

وقد ذكر أحمد بابَا أنه اقترحَ على محمد ابن كشتغدي أشهر فقهاء المالكية بمصر أن يشرح له مختصر أبي الحسن علي بن موسى الطليطلي. وجاء في مسالك الأبصار أن هذا السلطان كان يُجيد التكلُّمَ باللسان العربي ... »

والظاهر أيضاً أن سلطان السُّنغاي الحاج محمد أسكيا الذي عاصره المغيلي وعاش مدةً في كنفه وألَّفَ له رسائل ووصايا، ورسَمَ له حدود السياسة الشرعية السلطانية التي يجب اتِّباعُها، كان أيضاً من العارفين باللغة العربية. فهو الذي كتب إلى المغيلي أسئلته المشهورة التي استدعت الإجابةُ عنها كتابةَ أجوبة تسمى أجوبة المغيلي على أسئلة أسكيا. وفي مقدمة هذه الأسئلة نجد السلطان يشتكي من ضعف فقهاء عصره ومملكته في علوم الدين واللغة العربية فيقول:« مذ منَّ اللهُ علينا بالإسلام أصابتنا مُصيبةٌ في هذا البلد، لعدم الأمانة فيمن يُنسَبُ إليه العلمُ من قُرّاء بلادنا، ومن ضعفهم أنهم عجَمٌ لا يفقهون من كلام العربية إلا قليلاً من كلام عربِ بلادهم على تصحيف وتحريف وعُجمة عظيمة، بحيث لا يعرفون مقاصد العلماء ولا موضعَ التَّصحيف والتحريف، ومع ذلك لهم كتبٌ يُدرّسونها وحكاياتٌ وأخبارٌ، ومنهم قُضاةٌ ومفسِّرون يتكلمون في دين الله، ويزعمون أنهم من العلماء الذين هم من دولة الأنبياء، وأنه يجب علينا الاقتداءُ بهم ..». ثم طلب منه أن يفصِّل له الكلام في هذه المسألة وهل يجوز الثقةُ بعلماء من هذا المستوى والاقتداءُ بأقوالهم، كما طلب منه أن يرسم له السياسة الشرعية لإصلاح مملكته وفق الشريعة وسُننها. فهل كان لأسكيا الحاج أن يتكلم بهذه الطريقة إن لم تكن له معرفةٌ جيّدة باللغة العربية.

أما خلفاء الدولة العُثمانية الفُوديَويّة وسلاطينُهم فكانوا قمةً في العلم والتبحُّر في العلوم الدينية والأدبية واللغوية. وقد كانت حركتُهم في أساسها حركة دينية ثقافية اجتماعية إصلاحية، وبلغت العربيةُ والثقافة الإسلامية في عهدهم ما لم تبلغه من قبل. وظهر منهم ومن أصحابهم وتلامذتهم شعراءُ وكُتّابٌ كبارٌ ومؤلِّفون وعلماء متبحّرون وبُلغاء وفُصحاء مُجيدون. وكان على رأس هؤلاء الحُكام العلماءُ الشيخ عثمان بن فودي وأخوه عبد الله الذي كان يُلقّب عندهم بعربيِّ السودان، وابنه السلطان محمد بلّو. وقد ترك هؤلاء الثلاثة من المؤلفات ودواوين الشعر والأدب ما لا نظير له في تاريخ المنطقة سابقاً ولاحقاً. وقد تسلسل العلمُ في أعقابهم وأصحابهم وأسرتهم إلى اليوم .

وكان الشيخ محمد الأمين الكانمي(ت١٨٣٥م) من أهل العلم والفقه والأدب أيضاً. فقد تعلَّم بالأزهر الشريف، وأقام في عدد من عواصم العالم العربي كالقدس ومكة والمدينة المنوّرة والقيروان وطرابلس وتلمسان وفاس. ثم عاد إلى بلده ليقود حركة إصلاحية في منطقة تشاد. « ومما مهَّد له الجلوسَ على عرش مملكة بُرنو اشتهارُه بالعلم والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكثرة الأتباع والتلاميذ ..». ولهذا الشيخ مُراسلات سجالية مع معاصره الشيخ عثمان بن فودي، سجَّل بعضَها محمد بلّو في إنفاق الميسور، ومنها تتضح قدرةُ الرجل البلاغية والأدبية ومدى تضلُّعه من علوم اللغة العربية.

ومن هؤلاء الحُكّام المُعرَّبون الذين أقاموا ممالكهم ودولهم على أساس ديني إصلاحي، الشيخ أحمد لُوبُو الماسِّيني (ت ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م)، الذي درَسَ في (جِنِّي) التفسيرَ والفقه والحديث واللغة والتاريخ، ثم قاد حركةً إصلاحية في (ماسينا)، وأعلن نفسَه أميراً للمومنين وكوّن مملكة جعل عاصمتَها مدينةً جديدة أسَّسها سنة ١٨١٥م وأطلق عليها اسم (حمد الله)، وأصبحت هذه المملكة تضمُّ منطقة مالي وبوركينافاصو.

وأخيراً، لا بد أن نشير إلى حاكم آخر أقام حركة إصلاحية دينية تحولَّت فيما بعد إلى دولة في منطقة السِّنغال وما حولها، ألا وهو الشيخ الحاج عمر بن سعيد الفُوتي (ت ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م). وقد كانت للرجل ـ كما سبَقَ القولُ ـ رحلةٌ إلى المشرق والمغرب، تمكّن خلالها من تعميق معارفه في العلوم الدينية واللغوية، وله قصائد ومؤلفات.

وقد ظلت اللغة العربية سائدةَ الاستعمال في منطقة جنوب الصحراء الإفريقية طيلة القرون السابقة، فكانت ـ كما أسلفتُ ـ لغةَ التعليم والتأليف والدين والثقافة، كما هي لغة الإدارة. وكُتب بها كلُّ التراث الإفريقي

السابق لمرحلة الإستعمار، وحتى في هذه المرحلة كان المستعمرون في البداية وقبل أن تتجذَّر لغاتُهم الأوروبية، يُضطرُّون للتعامل مع الأهالي وحكامهم ـ في المواقف والمقامات التي تستدعي الكتابة ـ باللغة العربية.

ولكن الاستعمار لما تيقَّن من أن العائق أمام تقدُّمه في أفريقيا الغربية وسيطرته التامة عليها هو الدين الإسلامي وثقافتُه المُتغلغلة في وجدان الناس، ورأى أن لا سبيل لمحاربة الإسلام إلا بمحاربة اللغة العربية، لجأ إلى الأساليب نفسها التي استعملها بالمغرب والجزائر في محاربة التعليم العربي الإسلامي وإغلاق المدارس الدينية وكتاتيب القرآن، ومزاحمتها بفتح مدارس التَّنصير والتعليم الفرنسي، ورسَمَ لذلك خطة لا تختلف في شيء عن الخطة التي استُعملت في المغرب والشمال الإفريقي.

وقد تحدثنا في بحث سابق، بشيء من التفصيل، عن وضع العربية في منطقة جنوب الصحراء منذ دخولها إلى المرحلة الراهنة، وفي ذلك ما يغني عن زيادة الكلام في الموضوع. إلا نقطةً صغيرة جديرة بالتأمُّل والدراسة، لا بأس من إضافتها، ويتعلَّقُ الأمرُ بظاهرة الإعراب التي ما زلنا نلاحظ استعمالَها في أسماء الأعلام من ذكور المسلمين ونسائهم على اختلاف اللغات المحلِّية للمنطقة، وهي في حد ذاتها تعبِّر بوضوح تام عن بقايا تأثير العربية الفصحى منذ العصور الأولى لدخول الإسلام. فتجدهم يقولون مثلا: عَيشَتُو، وفاطمتُو، وأَمينتُو، وخديجتُ، ونحوها من أسماء الأنثيات، ويقولون: إبراهيما، وصالحُو، وإدريسا، ويونُسا، وداودَا، ويعقُوبَا، وعُمَرُو، ونحو ذلك في بقية الأسماء العربية التي تُطلق على الذكور.

وقد يبالغون في تحريف هذه الأسماء وتغييرها، كما في نحو: بوريما (إبراهيمَ) وسُمَيلا (إسماعيلَ)، وإيلاً (إسماعيلَ)، ومامادُو (محمدُ)، وأَمادُو(أحمدُ)، ومع ذلك تبقى العلاماتُ الإعرابية ثابتةً. فهذا جانبٌ آخر من التأثير اللغوي العربي ، أحببتُ أن أشير إليه على عجَل، وهو في حاجة لدراسة معمَّقة لسانية وتاريخية واجتماعية:

١. كان للسيوطي تأثير خاص على سلطان السُّنغاي الحاج محمد أسكيا الذي التقى به في مصر، كما كانت له لقاءات ومراسلات علمية مع عدد من علماء السودان (التكرور) أورد بعضها في كتاب الحاوي. وكتُبهُ من أشهر الكتب التي كانت رائجة في سوق العلم بإفريقيا.

٢. لا شك في أن القوافل التجارية التي كانت إحدى طُرُقها القديمة تصل غربَ إفريقية بشمالها الشرقي في مصر، قد أسهمت بدورها في نشر الإسلام بالمنطقة، ولكن أكثر الطرق التِّجارية وأقربَها

إلى غرب إفريقيا هي التي كانت تأتي من بلاد المغارب عبر هذه البوّابات الصحراوية .

٣. أصل الحضرمي من القيروان ، وكان فقيهاً أصولياً ولغوياً وله اشتغال بعلم الاعتقادات ودخل الأندلس سنة ٤٨٧هـ . وقد تولى القضاء في أزكي من بلاد الصحراء وبها توفي سنة ٤٨٩هـ على الأصحِّ، كما في التشوف للتادلي والصلة لابن بشكوال، وقال عياض في الغُنية إنه توفي سنة ٤٨٧هـ وهو مناقض لما قاله ابن بشكوال عن دخوله الأندلس في هذه السنة (أي سنة ٤٨٧هـ) ووفاته بعدها بسنتين. وقد كان للحضرميِّ تلاميذُ بالمغرب الأقصى منهم أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير الذي أخذ عنه علم الاعتقادات فكان آخر من اشتغل به في المغرب .

٤. يذكر ابن أبي دينار القيرواني في كتاب: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس: ٤٣ أن عقبة بن نافع واصلَ فتوحاته إلى طرفلة ودرعة من بلاد السوس الأقصى ودخل إلى بلاد لمتونة في الصحراء ففرَّ «الناسُ أمامه لا يقوم بين يديه أحد ولا يعارضه، إلى أن بلغ إلى البحر المحيط فأدخل فيه قوائمَ فرسه...». وحين تحدث البكري عن مدينة غانة في القرن الخامس الهجري قال إنها كانت مقسَّمة إلى مدينتين إحداهما يسكنها المسلمون وبها اثنا عشر مسجداً، ويستعين الملكُ بعدد من الموظفين المسلمين لمعرفتهم بالكتابة. وفي أثناء حديثه عن مدينة (تَدَمَكة) العاصمة القديمة لبربر الصحراء التي ضُمَّت فيما بعد إلى دولة السُنغاي ، قال إن أهلها مسلمون. وبعضُ المؤرخين يقولون إن الإسلام وصل إليها في القرن الأول الهجري. ويقول إبراهيم طرخان نقلاً عن مصادره في كتابه عن دولة مالي الإسلامية: «لم يكن المرابطون أول من أدخل الإسلام إلى بلاد السودان الأوسط والغربي في القرن الحادي عشر الميلادي، كما هو متواتر، بل إن الإسلام وصل إلى تلك البقاع في القرن نفسه الذي ظهر فيه، وهو القرنُ السابعُ الميلادي. كما أن أمبراطورية أودغست الإسلامية قامت بدور كبير في نشر الإسلام منذ القرن التاسع الميلادي ..». كما أجمعت كثيرٌ من المصادر الأخرى القديمة والحديثة (كالبكري واين خلدون والقلقشندي والقزويني وغيرهم) على وجود الإسلام قديماً في مناطق من غرب أفريقيا وخاصة مناطق مالي وحَوضَي السنغال والنيجر، وفي سُنغاي وغانة، قبل القرن الخامس الهجري .

الأنظمةَ التّعليميةَ الوافدةَ إلى منطقةِ غربِ:

الأنظمةَ التّعليميةَ الوافدةَ إلى منطقةِ غربِ أفريقيا باختلاف أنواعها ومشاربها وآثارها الإيجابية والسّلبية على المجتمع، وذلك من خلال الإجابة عن الأسئلة التّالية: ما هي ثقافة أهل غرب أفريقيا قديماً؟، وما هي الثّقافات الوافدة إليها وأنظمتها التّعليمية؟ وكيف وفدت هذه الثّقافات ونشأت وترعرعت؟ وهل لها أيّ تأثير في ثقافتنا في المنطقة؟ وما هي العوامل المساعدة لها في هذا التأثير لو كانت كذلك؟ ثّم ما هي الفروق بين هذه الثّقافات من حيث التّأثير؟.

✍ **نتناول هذا الموضوع المشار إليه أعلاه خلال النّقاط التّالية:**

- منطقة غرب أفريقيا أرضاً وشعباً:

يَحُدّ هذه المنطقة شمالاً بلادُ أفريقيا الممتدّة إلى الصّحراء الكبرى، وجنوباً بلاد الكنغو والمحيط الأطلنطي، وشرقاً بلادُ السّودان الشّرقي، وغرباً المحيط الأطلنطي.

وقد عُرِفَ غربُ أفريقيا في عهده القديم ببلاد التّكرور، ثمّ اشتُهِر باسم السّودانَ الغربي قبل الاحتلال الأوروبي، ومن أهمّ ممالكها؛ مملكة التّكرور، ومملكة غانا القديمة، ثمّ مملكة مالي السّابقة، وتلي هذه الممالك مملكة سنغا، وآهير، وبرنو، وبلاد هوسا ويوربا. ولكن لمّا استولى على أراضيها الاستعماريون قسّموها إلى أقسام سياسية شتّى وحدّدوها تحديداً رسمياً على حسب أغراضهم الشّخصية، واخترعوا لكلّ منها عنواناً مخصوصاً. وهي: مالي- السّنغال – غامبيا – موريتانيا - غينيا بشأو – غينيا كوناكري– سيراليون – ليبريا – ساح العاج –غانا – بوركينافازو – توجو – بنين – النّيجر – نيجيريا الّتي هي أعظمها سكّانًا وأوسعها أرضاً وأكثرها ثقافة وتبلغ مساحتها ستة ملايين كيلومتر مربّع تقريباً.

يمكن تقسيم سكّانها حسب أصولهم العرقية إلى شعوب أو مجموعات رئيسة على النّحو التّالي:- شعوب يقطنون في النِّطاق الجنوبي من الصّحراء وهم المغاربة والطّوارق والتّيدا، و شعوب تشاد، وهم زنوج اختلطوا بقبائل التيّدا، وكذلك الفولا والهوسا وهم شعوب النّطاق الشّمالي، وشعوب من سلالات الماندينجو والكرو والإيبو واليوربا، وهؤلاء هم شعوب النّطاق الجنوبي، وأمّا الولوف والتّكلور والسّيرير والجولا. فهم الشّعوب السّنغالية، وشعوب الماندي وهم مجموعة لغوية وليست سلالية وتضمّ الماندينجو والسّوننكا وغيرهم. وأما مجموعة الصّونغاي والزبرما والاندي فهم يعيشون حول وادي النّيجر الأوسط.

ثقافة غرب أفريقيا:

وكانت ثقافة غرب أفريقيا قبل الإسلام ثقافة يحكمها فكرٌ وثنيٌ، بُنِيَتْ مقولاته على مسلَّمات ديانات وضعية، خالياً من القيم العقلانية أو المادية المؤثرة؛ فهي تفسِّر ظواهر الكون وفق رؤى الإنسان البدائي. ولما كانت هذه هي الثّقافة القومية فهي بالتّالي لم تكن تَعْرِفْ أصوليات التّعليم المدرسي، وإنّما كانت قناة التّعليم الوحيدة بها المَنهج البيئي أو نظام الإقتداء الحرفي بالرّاشدين على سبيل التّلمذة الصّناعية.

صوّر لنا الشّيخ الحاج آدم عبد الله الألوري ثقافة غرب أفريقيا قديماً في أنّ نظام الحكم في المنطقة قبل الإسلام هو نظام أرستقراطي بحت، إذ يتوارث الحكّام مناصبهم كابراً عن كابر وزمام الأمر بيد الملوك، ويعاونهم أمناؤهم من كبار مواليهم المخلصين لهم، ومن رؤساء جنودهم الحارسين لمملكتهم ومن كهنتهم المشيرين لحركاتهم. أمّا القضاة فكبير كلّ عائلة قاضيها، ورئيس كل قبيلة حاكمها، وقاضي القضاة هو الملك الّذي يَعْتبر نفسَه نائباً عن الله في أرضه. ولكلّ كبيرٍ ورئيسٍ حقٌّ سماعِ القضايا الصّغرى في ناحيته وولايته الخاصّة، أمّا القضايا الكبرى فإنّها تُرْفَعُ إلى مجلس الملك فيجتمع الأعيان لسماعها، والنّظر فيها. وليس لهم قانون مدوّن في كتابٍ، إنّما يحفظون في صدروهم ما يتوارثونه عن أسلافهم من تقاليد وعاداتٍ.

أمّا العقوبات فأوّلها القتل لمن قتل نفساً بغير حقٍّ، أو كان لصّاً محارباً أو خائناً للوطن، أو مخالفاً لأمر السّلطان على سبيل الاستفزاز. ثمّ النّفي، وهو جزاء من استحقّ القتل من العظماء الّذين يخشى من قتلهم الفتنة. ثمّ الغرامة، وهو جزاء من زنى بامرأة محصنة متزوّجة، فيُؤخذ ما يعدل ثلث المهر الأصلي على المرأة وتُسلَّم الزّوج الشّرعي تعويضاً له عن التّمتّع والتّلذذ بالمرأة المتزوّجة، والرّهن هو ما يحبسه المديون لدائنه كأن يَحْبِسَ عنده ولدَه ليستغلّه حتّى يدفع ما عليه من الدّين عاجلاً أو آجلاً .

- الأنظمة التّعليمية الوافدة وطرق وصولها إلى غرب أفريقيا:

إنّ من أهمّ ما تتسم بها منطقة غرب أفريقيا وجود الطّرق المتعدّدة الموصلة إليها من زمنٍ بعيدٍ، الأمر الّذي جعل النّاس يأوون إليها رجالاً وركباناً على حسب أصولهم ومختلف عروقهم ولغاتهم وألوانهم. وهذا الّذي حثّ أهلَ المنطقة على فتح العلاقات التّجارية بينهم وبين شعوب أخرى.

"فقد ظهر التّجار العرب منذ النّصف الثّاني من القرن الثّامن الميلادي، وزاد نفوذهم بعد غزو المرابطين لمملكة غانا عام ١٠٧٧م (٤٧٩هـ). وكانت تلك الفترة المعاصرة للعصور الوسطى في أوروبا، هي فترة ازدهار لطرق التّجارة الصّحراوية من منتصف القرن الثّالث عشر الميلادي (السّابع الهجري) إلى نهاية القرن السّادس عشر الميلادي (العاشر الهجري)، فقد شهدت هذه الفترة طلباً ملحاً على منتجات غربي أفريقيا من جانب أوروبا وأفريقيا الشّمالية، وربّما ساعد على هذا أيضاً الحكومات المستعمرة في كلّ من أفريقيا الشّمالية وغرب أفريقيا".

وقد اشتهرت أربعةُ طرقٍ تجاريةٍ بين شمالي القارة وغربها ووسطها وهي: من تونس وليبيا إلى منطقةٍ بحيرة تشاد. ومن تونس إلى بلاد الهوسا. ومن الجزائر إلى أواسط نهر النّيجر. وكذلك من المغرب إلى أعالي نهر النّيجر وحوض نهر السّنغال.

وكان قوام هذه التّجارة مقايضة الملح بالذّهب الّذي يكثر وجوده بين نهر النّيجر والسّنغال، كما كانت التّجارة تشمل جلب الرّقيق وغيره من السّلع. واتخذ التّجار من هذه الطّرق وفروعها منافذ لتجارتهم. وكما هو الحال في سودان وادي النّيل، كان التّجار يجمعون بين دور التّاجر والعالم أو " المبشّر" في بثّ العقيدة الإسلامية. ونتيجة لهذه الصّلات السّلمية اتّسع نطاق التّجارة، وزادت الهجرة، فاتصل التّجار بالوطنيين وخالطوهم السّكن وكثرت المصاهرة وملء ذلك كلّه لانتشار الإسلام بين الشّعوب السّوداء الّتي تنتشر في هذا الإقليم مثل قبائل الولوف والتّكرور، والسّوننكة والدّيوله والصّونغي والماندنغو والفلاتة والهوسا والكانوري وغيرهم . كما أصبح المحيط الأطلسي أداة ربط بين المنطقة وبين أوروبا والعالم الغربي بعد أن كان قد أدّى وجوده إلى فصل غربي أفريقيا عن العالم الخارجي من الجنوب والغرب ردحاً من الزّمن إلى أن تمّ الكشف الجغرافي، ".

ومن هذا المنطلق ندرك إمكانية وفود أنظمة تعليمية من شعوب أخرى نتيجة لدخول ثقافتها إلى المنطقة. **ولعلّ أهمّها ما يلي:**

- ✓ أولاً: الثّقافة العربية الإسلامية وأنظمتها التّعليمية:

والثّقافة العربية الإسلامية هي: "الثّقافة الّتي نشأت بقيام الدّولة الإسلامية بعد هجرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من مكّة إلى المدينة. وقد نمت هذه الثّقافة مع انتشار الإسلام من حدود الصّين شرقاً إلى الأندلس غرباً، وبلغت قمّة ازدهارها في القرنين الثّالث والرّابع الهجريين". واتّخذت هذه الثّقافة اللّغة العربية لغة لها، وهي الّتي كانت عبر العصور أثرٌ قويٌ في القارة الأفريقية، وهذا الأثر يتمثّل في الحياة الاجتماعية والسّياسية والاقتصادية والثّقافية.

كيف دخل الإسلام وتمّ نشره في المنطقة؟:

إنّ القارة الأفريقية هي أولى القارات الّتي حظيت بدخول الإسلام إليها – بعد ظهوره في الجزيرة العربية– ويرجع ذلك إلى هجرة المسلمين الأوّلين الّذين آمنوا مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى الحبشة.

ويقول الدّكتور يوسف فضل حسن عن انتشار الإسلام بعد هذه المرحلة " إنّ الإسلام بدأ انتشاره في القارة الأفريقية بعد سنوات قليلة من استتباب الأمر له في جزيرة العرب، فمن الرّكن الشّمالي الشّرقي للقارة الأفريقية تدفّق العربُ المسلمون حتّى بلغوا ساحل المحيط الأطلسي، كما توغّلوا تدريجياً عبر سواحل البحر والمحيط الهندي، ومنها انتقل الأثرُ العربيُ الإسلاميُ حتّى شمل أجزاء كبيرة من القارة الأفريقية."

وأمّا دخوله في غرب أفريقيا بالتّحديد فقد رجّح بعض علماء هذه المنطقة القول بأنّ دخول الإسلام إليها يرجع إلى القرن الأوّل الهجري على يد عقبة بن نافع الصّحابي الجليل، إذ أنّه وصل إلى قبيلة من قبائل الرّوم في المنطقة فدعاهم إلى الإسلام فأسلم ملكهم من غير قتال وتزوّج عقبة بنتَ ذلك الملك واسمها (بج منغ)، فولدتْ له أولاداً نشأوا في بلاد أمّهم وتكلّموا بلغة أبيهم. ومن أهمّ من قاموا بنشره في المنطقة فصاعداً النّشّار الأربعة ، منذ (١٣٠٠) إلى (١٧٠٠)م، وهم المنديون المسمون تارة بـ (ونغرا) وتارة بـ(الماليين) والفلبة المسمّون بـ((التّوراريون)) من ((فوتاتور)) والجخنكي وهم أتباع الحاج سليم الّذي أنشأ زمرتهم وحزبهم في ((مشينا)) ثمّ في ((بمبوك))، والقبيلة الكنتية الّتي هاجرت من القيروان إلى (تاهرت)) جنوب الجزائر ومنها هاجرت في القرن الخامس عشر إلى غرب أفريقيا.

ولمّا جاء الإسلام ودَانَ به كثيرٌ من أقطارها عَمِلَ أمراؤُها وملوكُها بالنّظام الإسلامي، وكان للعلماء والفقهاء دورٌ عظيمٌ في تبيين أحكام الله ورسولِهِ فيما يصدر للنّاس في حياتهم الفردية والاجتماعية. وعلى كلّ إقليمٍ أو قطرٍ إسلاميٍ ملكٌ أو سلطانٌ يَحمل لقباً معيناً مثل: "الماي" لأهل برنو، و"المنسا" لأهل مالي، و" الزا " و" السن" و"أسكيا" لأهل سنغاي، و "سركي" لأهل هوسا.

وأكثر أولئك السّلاطين علماء وفقهاء، وإذا لم يكن السّلطان نفسه عالماً فقيهاً اتخذ أحدُ العلماء البارزين وزيراً يدير له الدّولةَ على وفق الشّريعة. ولا بدّ من هيئةٍ شُوريةٍ على شكلِ لجنة التّقوى من كبار العلماء والفقهاء، على ما سنّ الخليفتان أبوبكر وعمر رضي الله عنهما من الأنظمة، لذلك تلقّب أكثرهم بأمير المؤمنين. وأوّل من تلقّب بأمير

المؤمنين في هذه المنطقة هو محمّد أسيكيا الأكبر ثمّ الشّيخ عثمان بن فودى وخلفاؤه، وكان له أمراء في الأقاليم على نحو ما للخلفاء من الولاة والحكّام والأمراء. ولكلّ أمير في إقليمه وزيرُ الدّولة وقائدُ الجنودِ والإمامُ الأكبرُ للصّلاة، وقاضي القضاة، وكبار العلماء، وكبار الجنود، وعمال الولايات.

نظام التّعليم العربي الإسلامي:

إنّ للعلم شرفٌ عظيمٌ وبه أظهر الله تعالى فضل آدم عليه السّلام على الملائكة وأمرهم بالسّجود له، وهو يقول (وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ) [سورة البقرة: الآية ٣١] ولأهميته نجد أنّ " أوّل ما نزل به القرآن الكريم هو الاهتمام بالعلم وهو قوله تعالى: أقرأ باسم ربّك الذي خلق.... فقد كان التّعليم ولا يزال مصدر عزّ الأمم والمجتمعات، وأسّ سعادتها وتحضُّرها وتقدّمها، فبقدر ما تتعلّم الأممُ وتهتمُّ بتعليم أجيالها الصّاعدة، بقدر ما تحافظ على هويّتها ووجودها وبقائها، والعكس صحيح.. فما أهملت أمّة قط تعليم شبابها، وإعدادهم إعدادًا بنّاءً أصيلاً، إلا أُصِيبَتْ في صميمها، وعاشت ذليلةً مهينةً في مؤخر الأمم، وعلى هامش الحضارات

ويُعتبر الحرفُ العربيُ من أكثر معطيات الحضارة الإسلامية إيجابياً في حيز المنفعة لشعوب غرب أفريقيا حيث فتح لهم الطّريق لاستيعاب أساليب جديدة لحضارتهم التّقليدية أثمرت نشاطاً فكرياً فاعلاً في كثير من أجزاء غرب أفريقيا في ذلك. الوقت، وبتعليم الإفريقيين الكتابة العربية انتقل تاريخ غرب أفريقيا من مرحلة الرِّواية الشّفهية إلى مرحلة التّدوين، كما وجدت اللّغات القومية إلى الحرف العربي الأبجدي الحفيظ على تلك الألسن.

بل "يفيد تاريخ هذه المنطقة أنّه لا يُعرف أيّ تعليم سابقاً سوى التّعليم العربي، حيث قامت فيها مدارس ومعاهد الدِّراسات الإسلامية والعربية في مدنٍ من دولٍ متعدِّدة من أهمّها، تمبكتو، بمالى، وكاشنة وبرنو وكنو وزاريا في نيجيريا. وقد ارتقى بها التّعليم حتى وصل المستوى الجامعي في العهد الماضي، وصار المتخرِّجون منها يكتبون الكتب والرّسائل في مختلف الموضوعات الدِّينية والأدبية. وقد برع الكثير منهم براعة تضعهم في مستوى الكتّاب العرب دون تفاوتٍ وحسبك أن نذكر على سبيل المثال الشّيخ عثمان بن فوديو وأخاه عبد الله بن فوديو ومحمد بن الشيخ عثمان بن فوديو"

أنماط التّعليم الإسلامي في غرب أفريقيا قديماً وحديثاً:

للتّعليم العربي الإسلامي أنماط عدّة نذكرها من خلال النّقاط التّالية:

أولاً: أنماط التّعليم الإسلامي في القديم:

تكمن أنماط التّعليم في ذلك الحين في نمطين أولاهما: (الكتاتيب) وهي المدارس القرآنية للأطفال والصّغار وهي أوّل أنماط التّعليم وأشهرها، وهي أبسط مؤسسات التّعليم، ويلتحق بها العديدُ من أولاد المسلمين ذكوراً وإناثاً. وقد كانت المدرسة داخل المسجد أو داخل منازل خاصّة.

ويُشرف على المدرسة شخصٌ واحدٌ، وأحياناً يساعده بعض النّابهين من الطّلاب في عملية التدريس. وفي المدارس الابتدائية كان التركيز على حفظ أجزاء القرآن بالإضافة إلى قليل من القراءة والكتابة. وثانيهما: المدارس العليا وهي معاهد علمية للكهول والشّيوخ الكبار. ويقوم فيها معلّمون متخصصون يقومون بتدريس مختلف المواد. وكان للطّلاب حرية اختيار المواد، وحرية اختيار العلم وهكذا سبق التّعليم الإسلامي النّظام الأوربي في التّعليم، وعند تخرّجه من المدرسة العليا يحصل الطّالب على شهادة تمكّنه من العمل كمعلّمٍ أو إمامٍ حسب تخصّصه. وصاحب المدرسة هو المشرف والإداري الوحيد للمدرسة. وخلافاًُ للمدارس الرّسمية فإنّه لا توجد هناك لوائح جامدة تحكم المدرسة إذ أن العلاقة بين المعلّم والطّالب علاقة أبوية حميمة.

ثانياً: أنماطه في العصر الحديث:

للتّعليم العربي الإسلامي في هذا العصر أنماط عديدة ومن أهمّها:

- الكتاتيب:

وترتكز الكتاتيب على تعليم المتعلِّمين مبادئ القراءة والكتابة، بالإضافة إلى حفظ أجزاء من القرآن الكريم. والغالب أن تكون الكتاتيب في المسجد، وقد تكون تحت أحد الأشجار أو في سطوح أحد المباني. ويتمّ التّعليم فيها بصورة تقليدية والمعلّم هو كلّ شيء في هذه الكتاتيب، ولا يفتقر في الغالب إلى إعداد وتأهيل فيكفي إتقانه للقراءة والكتابة وقدرته على تلاوة القرآن الكريم وحفظ أجزاء منه. ويلتحق بها المتعلّمون في سنٍّ مبكّرٍ جدّاً، وفي أحيان كثيرة قبل الالتحاق بالمدرسة، ومنهم من يواصل التّعليم فيها حتّى يُتمّ حفظ القرآن، ومنهم من يتوقّف ويكمل تعليمه في المدارس النّظامية.

وتشترك المجتمعات الإسلامية الأفريقية الغربية في الاهتمام بتعليم أولادها القرآن الكريم، لكنّها تتفاوت في درجة هذا الاهتمام؛ ففي بعض المجتمعات لا يلتحق الطّالب بالمدرسة إلا بعد إتمام حفظ القرآن الكريم كاملاً، بينما ينقطع في غيرها عند وصول سنّ الدّراسة.

- المدارس العربية الإسلامية:

وهي مدارس تُعنى بتعليم اللّغة العربية والعلوم الشّرعية، وقد تضيف بعض المقررات اليسيرة، وبخاصّة في اللّغة الإنجليزية أو الفرنسية حسب اللّغة السّائدة في الدّولة.

وتنتشر هذه المدارس في معظم دول أفريقيا ذات الأغلبية المسلمة أو التي يمثّل المسلمون فيها أقليات.

ويمثّل هذا النّمط من التّعليم أكثر مؤسسات التّعليم انتشاراً وأوسعها تأثيراً في نشر اللّغة العربية والعلم الشّرعي باعتبار تركيزها على هذا الجانب.

وَيَتَفَاوَتُ واقع هذه المدارس كماً وكيفاً باعتبارات عدّة من أهمّها درجة الاعتراف بهذا النّوع من التّعليم؛ ففي نيجيريا – على سبيل المثال- حيث تعترف الجامعات بالعديد من هذه المدارس فإنّها تتمتّع بقوّةٍ وانتشارٍ يختلف عن الدّول الأخرى الّتي لا تعترف بهذا النّوع من التّعليم، ولا يُتَاحُ لخريجيه فرصة المواصلة في الجامعات.

المدارس المزدوجة:

نشأ هذا النّمط من التّعليم علاجاً لما يعانيه خريجو المدارس العربية والإسلامية من صعوبة مواصلة الدِّراسة في الجامعات، ولعدم اعتراف كثيرٍ من مؤسسات القطاع العام والخاص بشهادات هذه المدارس.

وتقوم هذه المدارس على تدريس المتعلِّمين المناهجَ الّتي يدرسها طلاب المدارس العامّة، وتُضيف لتلك المواد تدريس اللّغة العربيّة والعلومَ الشّرعيةَ. وتمتاز بأنّها تتيح لخريجيها الفرص نفسها الّتي تتاح لخريجي المدارس العامّة، لكنّها تواجه صعوبات عدّة أهمّها التّمويل فتكاليفها أضعاف المدارس الإسلامية، كما أنّ الجمع فيها بين نظامي التّعليم يُضيف عبئاً زائداً على المتعلِّمين، وكثيراً ما يؤثّر على تحصيله في التّعليم النّظامي أو في التّعليم الشّرعي.

✓ المدارس الجزئية:

وتقوم هذه المدارس على أساس تقديم تعليم مواد للمدارس العامّة، ولها تطبيقات عدة:

أ- **المدارس الصّباحية:** حيث تستفيد هذه المدارس من تأخّر بداية اليوم الدِّراسي للمدارس العامّة، فتقوم بتقديم الدّروس العربية والشّرعية في أوّل اليوم الدِّراسي قبل بداية دوام المدارس العامّة، ثمّ يواصل المتعلِّمون بالمدارس العامّة.

ب- **المدارس المسائية:** وتنتشر هذه المدارس في الدّول الّتي يتقدّم فيها اليوم الدّراسي؛ فتقوم بتدريس العلومِ العربيةِ والشّرعية في الفترة المسائية لطلابها الّذين يلتحقون في الفترة الصّباحية بالمدارس يعاني الطّالب من أنّه يكون منهكاً متعباً، كما يقول أحد المعلِّمين: الطّالب يأتي متعباً ومصاباً بالملل من المدرسة الحكومية فكيف نَصْنَع لترغيبه في العلم الشّرعي؟.

ج- **مدارس نهاية الأسبوع:** وتقوم هذه المدارس على اغتنام إجازة نهاية الأسبوع والّتي تكون يومي السّبت والأحد في معظم الدّول الأفريقية، فتقدم المدرسة يوماً دراسياً كاملاً يوم السّبت ونصف يوم الأحد، بالإضافة إلى الإفادة من إجازات نهاية العام الدّراسي أو منتصفه.

✓ التّعليم الجامعي:

تجربة التّعليم الإسلامي والعربي في غرب أفريقيا في العصر الحديث في التّعليم الجامعي محدودة وجزئية، لكنّها تمثل إنجازاً يستحقّ الوقوف عنده.

ومن أبرز مؤسسات التّعليم الجامعي في المنطقة (الجامعة الإسلامية) في النّيجر، وتضمّ عدداً من الكليات العلمية والأدبية. ومنها(جامعة الملك فيصل) في تشاد، وكذلك (جامعة الحكمة) بمدينة إلورن، نيجيريا، الّتي افتتحت بكلّية التّربية والشّريعة الإسلامية، وبجهود جبّارة مع إخلاص القائمين بالجامعة بعد توفيق الله تعالى منحت الحكومةُ النّيجيريةُ الفدراليةُ الجامعةَ ترخيصاً رسمياً كإحدى الجامعات العالمية وهي تؤدّي دوراً مهمّاً في المجتمع، ثمّ عدّلت برامجها وأنشئت فيها كلية العلوم الإنسانية، وكلية علوم الحاسوب، وكلية العلوم التّطبيقية. ومنها (الجامعية الإسلامية) التّابعة بولاية كاتشنا في نيجيريا، كما توجد (كلية الإمام مالك الجامعية) بمدينة إبادن بنيجيريا الّتي تركّز على قبول الطّلاب من أنحاء غرب أفريقيا. بل توجد محاولات عديدة وجهود مكثّفة من الجمعيات الإسلامية الخيرية والأثرياء الفاهمين لدينهم الحنيف في الدّولة نفسها لإنشاء جامعات إسلامية أخرى. وتجدر الإشادة للدّور الفعّال الّذي تؤدّيه هذه الجامعات الإسلامية في المنطقة لمساهمتها في التّنمية الاجتماعية والبشرية وتناسب برامجها مع متطلّبات المجتمع. كعنايتها بالعلوم الإنسانية والعلوم التّنموية والتّطبيقية ونحوها. بل تتميّز هذه الجامعات المذكورة بميزات لا تتمتّع بها بقية جامعاتنا في غرب أفريقيا من وضوح الهدف المبني على عقيدة إسلامية صالحة واتجاهات سالمة والتّواصل والتّداخل النّافع لأهل المجتمع كلّه واهتماماتها بالعلوم الحديثة. وكلّها تسعى إلى تحقيق خيري الدّنيا والآخرة للمجتمع.

وأمّا المدارس العربية الإسلامية في المنطقة عموماً فهي تعاني من مشكلات عديدة، جمعها البروفيسور يوسف الخليفة أبوبكر عند حديثه عن مشروع تطوير التّعليم الإسلامي في أفريقيا في نقاط عديدة وهي إهمال كثير من الدّول لها. وضعف إمكاناتها المادية "المتمثلة في المباني والأدوات والمرتبات" وافتقارها إلى المنهج التّربوي: المعلّم المدرّب، الكتاب المناسب، الوسائل التّعليمية الحديثة. وكذلك عدم الاعتراف بها وبشهاداتها في الدّاخل والخارج، وعدم مساواة خريجيها برصفائهم خريجي المدارس عند التّوظيف، واضطرارهم للعمل في أعمال هامشية. وعند محاولة الْتحاق خريجيها بالجامعات الإسلامية يعجز الكثيرون منهم عن مواصلة دراساتهم ويقضي بعضهم عدداً من السّنين في دراسة تمهيدية قبل الجامعة والعدد القليل الّذي يكمل الجامعة ويتخرّج منها يعود إلى بلده ليجد الطّريق مسدوداً أمامه فيعمل أعمالاً لا تتساوى مع مؤهّلاته الجامعية وفي درجة أقلّ بكثير من رصيفه خريج الجامعات الغربية أو الشّرقية. ومنها أنّ هذه المدارس مضروب عليها حصار من التّعليم العلماني. وكذلك ضعف تأثيرها في المجتمع، وضعف تأثير خريجيها في مجريات الأمور في بلادهم.

كما تعاني من التّيارات العلمانية المحلية والوافدة الّتي تحاول القضاء عليها. فقد أشار البروفيسور أحمد شيخ عبد السّلام عند قيامه بتقويم عينات لمناهج التّعليم العربي الإسلامي في أفريقيا إلى أنّ معظم هذه المناهج لا تُحدّد الأهداف أو تنصّ عليها وبخاصة هدف تكوين الإنسان المسلم الكامل النّموء في كافة أوجه حياته .ومنها استخدام المسئولين في هذه المدارس مناهج مستوردة من الدّول العربية، فيجد الطّالب صعوبةً في فهم بعض محتويات المناهج الّتي لا تعبّر عن بيئته، وأحياناً تتحدّث بعض الكتب المدرسية عن نباتات وأشجار وحيوانات لا توجد في المنطقة، إذاً كيف يدرك هذا الطّالب معناها؟ ويشتدّ الأمر إنْ كان الطّالب مبتدئاً. والمفروض في رأي هو عدم استيراد هذه المناهج وتكون المساعدة في هذا الإطار في تأسيس (اتحاد علماء المناهج المسلمين) بالمنطقة بحيث يكون هدفهم في المقام الأوّل هو بناء وتصميم وتطوير مناهج المدارس العربية على الأسس الإسلامية الغرّاء، المبنية على العقيدة الصّحيحة مع مطابقتها لبيئتنا بغرب أفريقيا وتتناسب مع متطلّبات العصر.إضافة إلى تصميم الوسائل التّعليمية المناسبة لها، وإصدار الكتب المدرسية الخاصّة بالمنطقة. وإنشاء المطابع العربية الخاصّة بذلك. ويمكن أن يساعدهم فيها بعض خبراء المناهج من العرب الّذين لديهم معارف وخبرات سابقة عن المنطقة.

وتجدر الإشارة إلى خطورة المناهج الغربية المستوردة إلى المجتمع، أو ثقافاتها الّتي تتبنّاها الدّول في المنطقة من الثّقافات الغربية الهابطة.حيث يرد أحياناً خلال دراسة الطّالب لمثل هذه المناهج أن يجد في الكتاب المدرسي شخصاً يصفونه بالبطل في الدّرس ليقتدي به الطّالب، وقد يكون ممّا يقوم به شرب الخمر، أو الزّنا والعياذ بالله. أو قد يجد صور النّساء العاريات، وهذا لا يتناسب مع ثقافته الّتي تحثّ على العفاف والقيم الاجتماعية.

وأمّا التّعليم الإسلامي قديماً فقد ظلّ ينمو ويتطوّر من القرن السّابع الهجري حتى - أواخر القرن الثّالث عشر، ثمّ بدأ يتقلّص بسبب الاستعمار الّذي حارب الفكر الإسلامي واللّغة العربية، وعمل على نشر الثقافة الأوروبية واللّغة الإنجليزية والفرنسية بالبلاد فأخذت اللّغة الإنجليزية تحلّ محلّ اللّغة العربية بعد أن مهّد الإنجليز لتعلّمها السّبل والأساليب ورفعوا شأن من عرفها وجعلوها لغة رسمية للبلاد ، كالحالة نفسها في الدّول الّتي استعمرتها فرنسا.

ثانياً: الثّقافة الغربية وأنظمتها التّعليمية:

عرف الإنكليز هذه البلاد عام ١٥٥٣م على أثرِ مغامراتهم السّياحية في شواطئ أفريقيا، وبدأوا في التّجارة مع أهلها، وكانت النّخاسة أهمّ سلعهم التّجارية، ولما ألغيت في أوربا عام ١٨٠٧م تحوّلت إلى غلات البلاد وحاصلاتها، لقاء ما يأتون به من منسوجات ومصنوعات وأدوات زراعية وغيرها، ولمّا تفتّحت أعينهم على خيرات البلاد صاروا يتكالبون عليها حتّى اضطروا إلى عقد مؤتمر في برلين عام ١٨٨٤م يضع حداً للتّنافس الدّولي على شواطئ أفريقيا، فسارعت كلّ من بريطانيا وفرنسا وألمانيا إلى وضع يدها على الأرض الّتي احتلّتها، وإلى عقد اتفاقيات مع ملوك تلك البلاد على إبرام الصّداقة التّجارية بين الطّرفين. ومنع تجارة الرّقيق وتحريمها بتاتاً، وكذلك إطلاق حرية التّبشير المسيحي في طول البلاد وعرضها، وإيقاف الحروب بين القبائل وتأمين طرق المواصلات.

ولم يكتفوا بهذه الاتفاقيات، بل صاروا يطمحون إلى ما وراءها في شئون الحكم وإدارة البلاد واستعمارها واستغلالها بالتّدريج. ولمّا شعر الملوك والأمراء بانفلات الزّمام من أيديهم هزّوا رؤوسَهم امتناعاً، فقامت بين الطّرفين مناوشات طويلة انتهت بسقوط الضّعيف تحت أقدام القوى، فسقطت لاغوس أوّل ما سقطت تحت إقدام الإنكليز عام ١٨٦٢م .

ثمّ تغلغلوا في داخل البلاد وفعلوا بأهلها ما فعلوا بأهل لاغوس، فتمّ لهم الاستيلاء عيها ورفع رايتهم فوقها، وأطلقوا على بعضها المحمية الشمالية، وعلى البعض الآخر المحمية الجنوبية. ولقد أبت الإمارات الشمالية، وعلى رأسها حفيد ابن فودي المسمّى السّلطان الطّاهر، أن تستسلم للانكليز بل قاومتهم مدة قبل أن تنهزم عام ١٩٠٣م. فخرج السّلطان مهاجراً وتبعه خلق كثير، فاقتفى الحاكم الإنكليزي أثره، وأدركه في بلاد غمبي، وقامت بينهما معركة شديدة واستشهد فيها السّلطان والوجهاء والأعيان، ولم يفلح منهم إلا محمّد بللو الملقب بـ(ما يرنو) ومحمّد بن الأمير، وطائفة من العلماء فتأخّر الأوّل قرب مدينة سنار في السّودان الشّرقي واختط بها مدينة عرفت بلقبه (ما يرنو) ولازمها حتّى توفّي عام ١٦٤٠م وجاور الباقون مكّة المكرّمة إلى أن توفّوا هناك رحم الله الجميع.

أمّا من ناحية فرنسا فلقد بدأت فرنسا في استعمار غرب أفريقيا بالتّجارة كما بدأ الإنكليز، ثمّ بعقد المعاهدات الودية مع الملوك والزّعماء ولما انكشف سرهم للزّعماء المسلمين في الاستعمار قاوموهم مقاومة شديدة أذهلتهم طويلاً ولم يتمكّنوا من التّغلّب عليها إلا بشراء الضّمائر وسياسة التّفريق للزّعماء المختلفين.

اتّخذت فرنسا مدينة دكار قاعدة لحكومتها في غرب إفريقيا، ومنها بدأ الاستعمار، ثم نشطت إلى احتلال السّنغال كلّه عام ١٨١٧م. وحاربت الفولانيين والموريتانيين سنين طويلة. ولما تعيّن الجنرال (فدهرب) حاكما على السّنغال، وكان داهية كبيرة عمل على توسع حكومته فيما حولها، وصادف وقت قيام الحاج عمر الفوتي بالجهاد الإسلامي، وتأسيسه لدولة إسلامية في التّور وماسينا وتمبكتو، فقام بين الحاج عمر وقدهرب قتال عنيف، ونضال طويل، انتصر في مواقعها الحاج عمر مراراً غير أنّه وافاه الأجل عام ١٨٦٢م .

فقام بالأمر بعده ابنه أحمد الّذي أقلق الجنود الفرنسيين وأوقف مصالحهم طويلاً حتّى اضطرّوا إلى التّهادن معه، كما تهادنوا مع زعماء المقاطعات الّذين قبلوا حماية فرنسا واحداً بعد احد فتمّ استيلاؤهم على السّنغال نهائياً ١٨٩٣م. فهاجر أحمد بن عمر إلى شمال نيجيريا فمات بها.

ومهما تنس فرنسا لا تنسى ما لقيته من ساموري وكراموغو ومحمد الأمين في غرب أفريقيا. ولمّا تمّ استيلاء الفرنج على غرب إفريقيا، تدافقت أمواج الإرساليات التّبشيرية بالتّتابع من انجلترا وفرنسا في شكل جمعيات مختلفة لبناء المدارس، والكنائس والمستشفيات في المدن والأرياف، ثمّ لما تحرّر العبيد السّود من أوروبا وتأسّست في سيراليون مدينة سميت بـ(فريتاون) عام ١٧٧٢م بادر المبشّرون إلى إنشاء كلية فورابي لتخريج الأساقفة من هؤلاء العبيد المتحرِّرين ليرسلوهم إلى تلك المستعمرات الجديدة مبشرين.

ونزلت الدّفعة الأولى من موجات التّبشير المسيحي إلى نيجيريا عام ١٨٤١م. ومن بينهم (صمويل أجاي كرواثر) الّذي تحرّر من المتحرّرين، وتخرّج مع المبشّرين ثمّ أرسل إلى نيجيريا مع المرسلين . وعمل بجدٍ ونشاطٍ لوضع الأحجار الأساسية للتّبشير الصّليبي بالتّعاون مع الاستعمار، ووضع الحروف اللاّتينية لكتابة لغة يوربا لترجمة الإنجيل بدل الكتابة العربية الّتي كان المسلمون يكتبون بها لغة يوربا هناك، وأوّل مدرسة تبشيرية في لاغوس بنيجريا هي المدرسة الكاثوليكية الرّومانية ١٨٤٤م. ثمّ مدرسة الجمعيات الإرساليات الكنسية عام ١٨٥٩م ثمّ مدرسة البنات للجمعية المذكورة عام ١٨٦٨م.

وأوّل مدرسة حكومية غير تبشيرية بنيت عام ١٨٨٢م. على أن الاستعمار كان يعمل جنباً إلى جنب مع التّبشير، وكلاهما يمهّد السّبيل للآخر، ويضع كلّ إمكانياته تحت تصرّف زميله، بل يخدم التّبشير الاستعمار أحياناً أكثر مما يخدم صليبه، كأن يختار الاستعمار كبار موظّفيه من كبار الأساقفة والمطارنة، فلا يستطيع المسلم أن يفرق بين الموظفين الحكوميين، وبين الأساقفة المبشّرين.

ولقد علمت أن الحضارة العربية الإسلامية هي الّتي تمكّنت في جميع الأجزاء الشّمالية في غرب أفريقيا قبل دخول الإفرنج، أما الأجزاء الجنوبية القريبة من شواطئ المحيط الّتي يقل بها العمران في القرون الوسطى، فهي الجهات التي لم يكن فيها الإسلام قوياً، كسواحل العاج والذّهب (ساح العاج وغانا حاليا) والدّاهومي ونيجيريا الجنوبية، ولقد كان التّعليم العربي منتشراً في جميع البلاد الّتي استوى فيها الإسلام مستوى الاستقرار والنّضوج، وكانت الثّقافة الإسلامية برّاقة في جميع البلاد الّتي تحكم بالشّريعة الإسلامية. بل كانت الحضارة العربية قائمة في جميع البلاد الّتي قامت فيها الحكومة الإسلامية.

ولمّا جاء المستعمرون والمبشرون غاظهم كلّ الغيظ أن يلتقوا بالإسلام في غرب أفريقيا ليس ديناً متمكناً في النّفوس فحسب، ولكنّه قوة حاكمة، ودولة قائمة، فلبسوا للمسلمين جلود النّمر، وصلّتُوا عليهم سيوف المكر، لا يرغبون فيهم إلاَّ ولا ذمة، بل شمّروا عن ساعدهم في سبيل القضاء على آثار الإسلام بكل جائز ومستحيل، حتّى ضربوا الثّقافة العربية بثقافتهم الإفرنجية، وهدموا بنيان علماء الإسلام بمعاول قساوسة الصّليب، وبدلوا الشّريعة بالقانون، وطاردوا الفقهاء من الدّواوين، وأحلّوا محلّهم المحامين، وأغروا طلاب اللّغة العربية بطلاب اللّغة الانجليزية والفرنسية، حيث تغلغلوا في القرى والأرياف، واقتنصوا أبناء الفلاحين وأغروهم بالأموال والأعراض، وأرسلوا من آمن بالصّليب منهم إلى أوربا، ليكملوا بها علومهم وليرجعوا إلى بلادهم زعماء معتبرين لدى الخاص والعام، فاغتر طائفة من أبناء المسلمين بتلك المظاهر فتنصّروا، فبقي المتمسكون بدينهم خارج الحظيرة ضعفاء مساكين متروكين في زاويا الإهمال يعيشون على هامش الحياة، ويأكلون من فتات الموائد، فلا جرم أن يحارب الاستعمار التّعليم العربي بالتعليم الإفرنجي بغية تحويل المسلمين عن دينهم، أو تسميم مناهج التّعليم العربي بالتّعليم الإفرنجي نفسه عليهم، حتّى يصير المسلمون أنفسهم حرباً على الإسلام وثقافته، لترسخ أقدام المستعمرين في بلاد الإسلام، ولتشييد النّصرانية على أنقاض الإسلام. وإنّ نزع لغة القرآن وتعاليم الإسلام من قلوب مسلمي غرب أفريقيا خطة مدبّرة، وحيلة منظمة، من الإنكليز وفرنسا على السّواء. ما ذا يعمل المسلمون واللّغة الإنكليزية أو الفرنسية أصبحت ضرورية؟.ومن صور تدبيرهم لنزع القرآن ما قال (لورد كرومر) وزير خارجية بريطانيا، في برلمانهم بمطلع القرن العشرين قولته المشهورة: "إنّ قدم الإمبراطورية الإنكليزية لن تَرسخ في البلاد الإسلامية ما دام هذا القرآن بيد المسلمين".

لذلك فإنّ الّذين تلقّوا الإنجليزية أو الفرنسية في المدارس التّنصيرية الصّليبية بغربي أفريقيا، وظلّوا على دينهم الإسلامي قلّةٌ. وكلّ منهم كالقابض على جمرة نار.

بقي المسلمون في نيجيريا الإنكليزية محتارين في حالتهم هذه إلى أن جاء رجل من سيراليون اسمه (الدّكتور ويلمت بليدن)، كان مستشرقاً كبيراً، كما كان مديراً لمصلحة المعارف في سيراليون وسبق أن درس مثل هذه المشكلة مع المسلمين في سيراليون، فأكسبته خبرته لمعرفة طريقة حلّ هذه المشكلة في نيجيريا حسب طريقة حلّها في سيراليون. فطلب من الحكومة البريطانية عام ١٨٩٥م إنشاء مدرسة حكومية خاصّة يتعلّم فيها أبناء المسلمين المعارف الإنكليزية إلى جانب ديانتهم الإسلامية، فوافقت الحكومة على هذا الطّلب، فأنشأت المدرسة في لاغوس عام ١٨٩٧م، فانفتح الباب الحر أمام أبناء المسلمين ليتعلّموا.

ولمّا تأسست المدرسة الإسلامية الحكومية وتحسنت بها أحوال المسلمين الثّقافية، احتجّ المبشرون على ذلك بأن المدارس الحكومية من شأنها أن تتجرّد عن الشّارات الدّينية، فألغيت كلمة (الإسلامية) من اسم المدرسة، وبقيت حكومية، واختير ناظرها مدرسوها من غير المسلمين. فاستيقظ المسلمون على هذه المؤامرات، وعملوا على إنشاء الجمعيات الّتي تهتمّ بفتح المدارس الإسلامية، فتأسّست جمعية أنصار الإسلام ١٩٢٣م، ثمّ الزّمرة الإسلامية ١٩٢٦م، ثمّ جمعية نور الدين ١٩٣٤م، ثمّ جمعية أنصار الإسلام ١٩٤٥م. فملأوا المدن والقرى بالمدارس الإسلامية، الّتي جعلت همتها تسليح أبناء المسلمين بالثّقافة الانكليزية الّتي أصبحت ضرورة لأبناء البلاد، مع الإلمام بمبادئ الدّين، والتّاريخ الإسلامي، وقد أعدت هذه المدارس الطّبقة المثقّفة من أبناء المسلمين الّذين يشاركون أقرانهم المسيحيين في مختلف الميادين اليوم.

أنماط التعليم الغربي في غرب أفريقيا:

فقد بدأ التّعليم الإنجليزي ظهوره بنيجيريا مثلاً سنة (١٨٤١)م كما أشرنا إليه آنفاً على أيدي المبشّرين المنصّرين لغرس العقيدة النّصرانية في نفوس الأطفال وكان المبشرون بداية أمرهم يجمعون أطفال القرى باستعمال آلات اللّهو واللّعب ويوزعون الحلوى والأكسية عليهم، وكما كانوا يستعملون الكتب المصوّرة ذات الألوان الزّاهية بهدف جذب الأطفال إلى هذه المدرسة، وكان اتجاه المبشرين مركّزاً على شرق نيجيريا وغربها . حيث كان نصيب الشّمال في التّعليم ضئيلاً جداً.

وفيما يتّصل بالتّعليم العالي، فإنّ أوّل مدرسة عالية في نيجيريا هي كلية يابا الحكومية وقد أنشأت سنة (١٩٣٤م)، وأدّى دوراً كبيراً قبل إنشاء الجامعات، وكانت أولى جامعات في نيجيريا أنشئت في مدينة إبادن تسمى جامعة إبادن (*UNIVERSITY OF IBADAN*) في الإقليم الغربي سنة (١٩٣٨م) ، كما تمّ قبل هذه الجامعة إنشاء كلية جامعية تنصيرية بسيراليون، وهي جامعة فورابى (*Forahbay College University of Sierra Leone*))الّتي أشارنا إليها سابقاً، عام ١٨٢٧م.

ولعدم اهتمام الاستعمار بنشر الثّقافة والتّعليم بالشّمال حينذاك، حينما اتجه بكلّ جهده إلى الشّرق والغرب، ومن أجل هذا دبت اليقظة والغيرة في نفوس أهل الشّمال فأعادوا للثّقافة العربية نهضتها من جديد كما فتحوا بها المدارس المختلفة ليلحقوا أبناءهم بركب الثقافة المدنية وهكذا أنشأ أمراء المسلمين بالشّمال مدرسة العلوم العربية في كنو (*KANO*) سنة ١٩٣٤، كما أنشأوا مراكز التعليم العربي الإسلامي في أبي أكوتة (*ABEOKUTA*)ومنها المركز الإسلامي للشيخ المرحوم آدم عبد الله الألوري في أغيغى) *AGEGE* سنة ١٩٥٩م). واتجه كذلك أبناء المسلمين بالإقليم الغربي لإحياء الثقافة العربية والإسلامية فأنشأوا عدداً من المدارس لهذا الغرض واتجه أبناء الشّمال والغرب إلى إرسال المبعوثين إلى مصر، والسّودان وإلى البلاد العربية ليتفقهوا في الدّين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

إلاّ أنّ في الوقت الحاضر في أغلبية دول غرب أفريقيا فإنّ أنماط التّعليم من حيث المراحل تكمن في المدارس الابتدائية والثّانوية والمعاهد العليا والجامعات.

آثار الأنظمة الوافدة على مجتمع غرب إفريقيا:

وما من نظام تعليمي إلا وله جملة من الأهداف والغايات الّتي يسعى إلى تحقيقها من خلال العملية التّعليمية. وتنبثق الأهداف في أغلب الأحيان عن المرجعية، الّتي تشكل القاعدة المنتجة والموجهة للأهداف، الأمر الّذي يعني وجود علاقة جدلية ترابطية بين المرجعية والأهداف، فإذا كانت مرجعية نظام ما مادية، فإن أهدافه تغدو هي الأخرى - في أغلب الأحيان- مادية، وإذا كانت مرجعيته روحية، فإن ذلك سينعكس على الأهداف، وكذلك الحال فيما لو كانت مرجعيته مادية روحية، فإن أهدافها ستصبح أهدافًا مادية روحية مترابطة.

وتوجد في عصرنا هذا نظم تعليمية عديدة ومنها الأنظمة التّعليمية الغربية، وهي الأنظمة التي تسود أوروبا الغربية (النظام التعليمي

الفرنسي، والنظام التعليمي الإنجليزي، والنظام التعليمي البرتغالي، والنظام التعليمي الإيطالي).. والأنظمة التّعليمية الشّرقية، وتشمل الأنظمة التعليمية الّتي كانت تسود أوروبا الشّرقية(نظام تعليمي شيوعي، سوفياتي سابقًا). وكذلك الأنظمة التّعليمية العربية الإسلامية الّتي نبعت من الجزيرة العربية. وسأركّز حديثي على الأنظمة التّعليمية الغربية والأنظمة التّعليمية العربية الإسلامية لعلاقة تأثيرهما المباشر على مجتمع غرب أفريقيا.

وهدف الأنظمة التّعليمية الغربية هي تربية النّزعة الفردية، وهو اعتبار إنتاج فرد مادي (مواطن صالح) أسمى غاية وأعلى هدفٍ يرجى ويُتوقع من العملية التّعليمية، إذ ترى تلك الأنظمة أن زرع النزعة الفردية هو الوسيلة العليا لإنتاج فرد حريصٍ على مصالحه الخاصة، وجادٍّ في تحقيق رغباته وشهواته المختلفة بشتىً الطرق والوسائل، ولذلك فإنّ الفرد في هذه المجتمعات لا يرى لنفسه قيمةً ولا وزنًا إذا عجز عن تلبية رغباته الآنية والمستقبلية. وبما أن تحقيق ملكية فردية يتوقف على تمتّع الفرد برغبة جامحة في العمل والجدية، والنشاط المضاعف، لذلك يجد المرء مبدأ العمل في هذه المجتمعات مبدأ أساسيًا ومهمًّا للبقاء، وأضف إلى ذلك أن العمل أيًّا كان نوعه في هذه المجتمعات، مقدَّس ومقبول وصحيح، مادام يحقِّق للفرد حيازة مال، فليس في هذه المجتمعات عمل دنيء أو وضيع أو شريف، فشرف العمل ودناءته مرتبط بناتجه، فالعمل الذي يترتب عليه جني نتائج جمة هو العمل الشّريف والعظيم، وأما العمل الّذي يترتّب عليه جني نتائج ضئيلة هو العمل الوضيع الدّنيء. وأيًّا ما كان الأمر، فإنّ الأنظمة التّعليمية تُصمَّم في هذه المجتمعات هادفة إلى تحقيق هذا المبدأ، مستندة إلى وحي مرجعية العلمانية، الّتي تقصي المبادئ والقيم الإلهية عن دائرة التّوجيه والإرشاد، وتوكل إلى العقل والذّوق البشريين مهمّة تحديد المبادئ والقيم، الّتي ينبغي اعتمادها والرّجوع إليها.

وأمّا هدف الأنظمة التعليمية الشّرقية: فهي تربية النّزعة الجماعية، فإنتاج مجتمع مادي، والفكرة الشّيوعية الّتي تعتنق المادية الجدلية قد نشأت كردة فعلٍ على الفكرة الرّأسمالية، الّتي تتبنى العلمانية القائمة على تأليه الملكية الفردية، والدّفاع عنها، إذاً فإنّ الهدف الأسمى والغاية العليا من الأنظمة التّعليمية الشّرقية هو تربية النّزعة الجماعية لإنتاج مجتمع مادي جماعي.

ويتحقّق هذا الهدف بمصادرة الملكية الفردية الّتي هي مصدر كلّ الشرور والأهوال، والفواجع والكوارث. وإنّ هذه الأنظمة تفسّر المبادئ والقيم في المجتمعات بأنّها مخلّفات القديم البائد، ولذلك فلا اعتبار لأية قيمة تقف حاجزًا أمام تحقيق هدف إيجاد مجتمع مادي جماعي. وإن كان لابدّ من الاعتداد بقيمةٍ، فلتكن تلك القيمة قيمةً تقود إلى انتصار فكرة

المادية الجدلية القائمة على مصادرة جميع نوازع الملكية الفردية، في سائر أشكالها ووسائلها. وبناءً على هذا المنطلق الّذي يقوم على القضاء على جميع صور الملكية الفردية، فإنّ هذه الأنظمة استطاعت أن تنتج مجتمعًا ماديًا ينتعش فيه الكسل والعطالة والبطالة، وما ذلك إلاّ لأنّ الفكرة في حدّ ذاتها تتعارض مع الفطرة الإنسانية، وتقتل في الأفراد روح المبادرة والإبداع والابتكار، إذ أنّ ناتج عمل العامل، وثمار كدّ الكادح ليست له، ولا حقّ له فيها على الإطلاق، وإنّما لجميع أفراد المجتمع، للعامل منهم وللكسول، للنّائم وللصاحي، وهكذا دواليك.

وعلى العموم، فإنّه يمكن القول: بأنّ أهداف الأنظمة التعليمية السائدة، الغربية والشرقية أهداف مادية بحتة، حيث تسعى الأنظمة التّعليمية الغربية إلى إنتاج فرد مادي، ولكن الأنظمة التّعليمية الشّرقية فتسعى إلى إنتاج مجتمع مادي، وكلاهما خاليان من الجانب الرّوحي السّامي..وأمّا الأنظمة العربية الإسلامية فتتميّز على غيرها من حيث أنّ سعيها هو إنتاج الفرد الصّالح الّذي ينطلق من توجيهات الوحي، ويتعامل بفعالية مع الواقع المعاش، ويسعى إلى تحقيق رفاهة شاملة لكلّ فردٍ من أفراد المجتمع، تحقيقًا لرسالته الكبرى المتمثّلة في إنقاذ البشرية جمعاءً من براثن الشر والهلاك..

فكأن الاختلاف بين أهداف هذه الأنظمة يكاد ينحصر في دائرة نقطة البدء والتّركيز، إذ أنها تتقاسم الاتفاق على الاهتمام بالجانب المادي، والتركيز عليه، فإنتاج الفرد المادي أو إنتاج الجماعة المادية.. وبناءً عليه، فليست ثمة غرابة في أن ينعدم الإحساس والمشاعر الإنسانية في حياة الأفراد والمجتمعات التي أنتجتها هذه الأنظمة، وأن تغدو المبادئ والقيم المعنوية قضايا نسبية لا قرار لها، ولا دور لها.

إنّ أهداف الأنظمة غير الإسلامية هذه على اختلاف درجاتها، غريبة على الحياة في المنطقة، ووافدة عليها، وذلك لأنّها أهداف تشكلت من خلال ظروف وأوضاع لا تعرفها المنطقة، ولا تربطها بها أية رابطة، بل هي أهداف تمّت صياغتها بعيدًا عن الواقع الإفريقي الغربي، وظروف الحياة في المنطقة، وبالتّالي عندما استوردت إليها وطُبِّقت في بعض أرجائها، جلبت لتلك الأرجاء صنوف المآسي والفظائع والفواجع والكوارث، لم تعرف المنطقة حتى هذه اللّحظة سبيلاً للخروج منها.

فهدف إنتاج الفرد المادي -على سبيل المثال- أورث غرب أفريقيا أمراض الأنانية البغيضة، والرّشوة والحقد والحسد، والفساد السِّياسي والإداري، والانحلال الخلقي، وغيرها من خصال وأدواء التّخلف والتأخر، والتّقهقر، وغدت الانقلابات العسكرية، المبرَّرة وغير المبرَّرة

أساسًا ومبدأ لا ينازع في مشروعيته، طمعًا في الاستئثار بثروات الأمم وخيراتها، والانفراد بها دون الآخرين، مما زاد المنطقة تخلفًا وتوسعًا، واستمراءً لحياة التأخر والتقهقر والهامشية. ولئن استطاعت الأنظمة التّعليمية الغربية إنتاج الفرد المادي ذي النّزعة الفردية، وخلت مجتمعات تلك الأنظمة من فشو أدواء التّخلف وخصاله، فإنّ مردَّ ذلك إلى وجود جملة من السّياج القانوني والاجتماعي والنّفسي والعقلي، والّذي ظلّ ولا يزال عامل ترشيد وتهذيب لتلك النّزعة الفردية، بحيث إذا ما حاولت الحياد والانحراف بالفرد عن المسار المرسوم، كان ذلك السّياج مقوِّمًا ومصحِّحًا لاعوجاج النّزعة.

ولما تبنت دول غرب إفريقيا هذه الأنظمة الغربية وحلُمَت بتحقيق هذا المبدأ، لم يكن ثمّ سياج قانوني قادرٌ على حماية مصالح عامّة النّاس، الأمر الّذي ترتّب عليه أن غدت تربية تلك النّزعة في شخصية الإنسان الإفريقي الغربي عامل هدمٍ وتدميرٍ.

المغرب:

المغرب، الاسم الكامل المملكة المغربية، دولة تقع في أقصى غرب شمال أفريقيا عاصمتها الرباط، تقع على ضفاف البحر المتوسط شمالاً والمحيط الأطلسي غرباً؛ حدودها شرقا مع الجزائر وجنوبا مع موريتانيا؛ تطل شمالا على إسبانيا والبرتغال.

لعب المغرب أدوارا هامة في منطقة المغرب الكبير والأندلس، امتدت حدوده قديما إلى شبه جزيرة إيبيريا شمالا ونهر السينغال جنوبا؛ وحاليا هو عضو في جامعة الدول العربية، واتحاد المغرب العربي، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والمنظمة الدولية للفرانكوفونية، ومجموعة الحوار المتوسطي، ومجموعة الـ٧٧، وهو حليف رئيسي خارج الناتو.

أصل التسمية

ترجع تسمية المغرب إلى المسلمين القدماء الذين سكنوا شبه الجزيرة العربية، وتعني بالعربية مكان غروب الشمس، لأن المسلمين القدماء اعتقدوا حينها أن الشمس تشرق عندهم وتغرب في أرض المغرب. وقد اتصل المسلمون العرب بالمغرب أثناء الفتح الإسلامي للشمال أفريقيا أيام الفتوحات الإسلامية.المغاربة الأمازيغ يستعملون أحيانا اسم المروك، واسم المروك اسم محلي مغربي أمازيغي، وهو اختصار لاسم مراكش التي تعني أرض الله أو أرض الرب بالأمازيغية، ويعتقد أنها استعملت لأول مرة من قبل الأسبان الذين هزمهم المغاربة أيام المرابطين، والسبب هو أن مراكش كانت عاصمة المرابطين. وكان المتحدثون الأمازيغ القدماء يسمون المغرب عدة أسماء من بينها "تامورت نغ" (أرضنا)

العلم والشعار:

علم المغرب هو اللواء الأحمر الذي تتوسطه خطوط نجمة خماسية خضراء، يعتقد أن اللون الأحمر يرمز إلى الجهاد ودماء المدافعين عن الوطن، النجمة الخماسية إلى أركان الإسلام الخمسة، واللون الأخضر إلى الانتماء العربي الإسلامي. كان علم المغرب منذ ١٦٦٦ عبارة عن علم أحمر تتوسطه نجمة سداسية، في عام ١٩١٥ تم تغيير النجمة السداسية بنجمة خماسية من طرف المقيم العام الفرنسي، وهو علم المغرب حتى الآن.

شعار المغرب عبارة عن ترس حمري، بمعلاته نصف شمس مشرقة، ذات ١٥ شعاعا من ذهب فوق ساحة لازودية تضم جبال الأطلس، وعلى جانبي الشعار أسدين أطلسيين: أسد اليمين يرى من الجانبية وأسد اليسار متنمر، وبالترس لافتة من ذهب بها آية قرآنية. (يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبّت أقدامكم) [سورة محمد: الآية ٧].

في منحنى تنازلي مستمر، تراجع المغرب في ترتيب التنمية البشرية بثلاث نقط إذ انتقل إلى الرتبة ١٢٦ من بين ١٧٧ دولة، وقد صنف تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية لعام ٢٠٠٧ ـ ٢٠٠٨ المغرب ضمن البلدان ذات التنمية البشرية المتوسطة لكن بمؤشر أقل من المتوسط العالمي. وقد تم تصنيف الدول وفقا لأربع مؤشرات مركبة تضم متوسط العمر، مستوى التعليم، مستوى الدخل الفردي وكيفية توزيع الثروة.

رغم ارتفاع معدل الحياة في المغرب ليتجاوز ٧٠ سنة فإن هذا المعدل يظل أقل من معدلات الحياة المحققة في الدول المتقدمة، وكذا المؤشرت المتعلقة بصحة الطفل والأم حيث لازالت مبعث قلق ومصدر ذي انعكاسات سلبية على التنمية البشرية بالبلاد، حيث يرى البعض أنها لم تصل بعد إلى التعامل الأمثل مع الأمراض المنتشرة في البلدان الفقيرة، إضافة إلى ذلك، يظل ولوج الخدمات الطبية غير كاف وغير متكافئ. كما أن حالة الوحدات التطبيبية والمستشفيات ظلت تتأرجح بين الاستقرار والتراجع.

وعلى الرغم من مجهودات الدولة الموجهة إلى مكافحة آفة الفقر والتقليص من حدته حيث استطاعت أن تقلل من نسبته من ٥٠% خلال سنة ١٩٦٠ إلى ١٤,٢% حاليا، إلا أنه نظرا للنمو الديمغرافي فإن العدد

المطلق للفقراء استقر في خمسة ملايين أي في المعدل المتوسط، من بينهم ثلاثة أرباع من يتواجدون بالعالم القروي.

المغرب بلد متعدد الإثنيات مع ثقافة وحضارة غنيتين. عبر التاريخ المغربي، استضاف هذا البلد العديد من الاشخاص القادمين من الشرق (الفينيقيون واليهود والعرب)، ومن الجنوب (أفريقيا جنوب الصحراء)، ومن الشمال (الرومان، الوندال، المور واليهود). وكان لكل هذه الفئات جميعها اثر على التركيبة الاجتماعية للمغرب حيث أنها تضم العديد من المعتقدات، كاليهودية والمسيحية والإسلام.

تمتلك كل منطقة مغربية خصوصياتها، وتساهم بالتالي في صنع فسيفساء الثقافة والإرث الحضاري المغربي، حيث وضعت المملكة ضمن أولوياتها المحافظة على تراثها الثقافي وحماية تنوعها وخصوصيتها.

عرف عدد سكان المغرب تزايداً هاماً إذ ارتفع خلال الفترة الممتدة ما بين ١٩٦٠ و١٩٨٢ إلى ١١.٦٢٦.٠٠٠ نسمة، مسجلا نسبة تزايد معدلها ٢,٨% في السنة. وحسب إحصاء ٢ شتنبر ١٩٩٤، بلغ العدد الإجمالي لسكان المغرب ٢٦.٠٧٣.٧١٧ نسمة، في حين وصل هذا العدد حسب احصاء ٢٠٠٤ إلى ٢٩.٨٤٠.٢٧٣ مليون نسمة من بينهم ٥١.٤٣٥ أجنبياً. ويتبين من خلال هذه الأرقام أن نسبة الزيادة السنوية تقدر بـ ٢,٠٦%، وهي نسبة في انخفاض مقارنة مع تلك التي تم رصدها خلال الفترة الممتدة ما بين سنتي ١٩٧١ - ١٩٨٢، والتي بلغت 2,6 %.

ويتوزع السكان حسب وسط الإقامة إلى ١٣.٤١٥.٦٥٩ نسمة بالمحيط الحضري أي نسبة ٥١.٤%، و١٢.٦٥٨.٠٥٨ نسمة بالوسط القروي، أي نسبة ٤٨.٦% يرجع أصل تسمية المغرب إلى العرب القدماء، حيث يعني الاسم "مكان غروب الشمس"؛ إذ أنهم اعتقدوا حينها أن الشمس تغرب في تلك الناحية من العالم. دخل العرب المسلمون المغرب أثناء فتح شمال أفريقيا. كان المؤرخون العرب في القرون الوسطى يستعملون لفظ "المغرب" للدلالة على جميع المناطق التي تُشكل المغرب العربي حاليّا، أي تونس والجزائر والمغرب، وكانوا يقسمون هذه المناطق إلى ٣ أقاليم: المغرب الأدنى، أي تونس؛ المغرب الأوسط، أي الجزائر؛ والمغرب الأقصى، أو المملكة المغربية الحالية.

كان الاسم اللاتيني المستخدم في العصور الوسطى هو "موروتش" (بالاتينية *Morroch*: وهو اختصار اسم "مراكش" عاصمة المرابطين. يستعمل الأتراك كلمة "فاس *Fas*" نسبة إلى عاصمة المغرب القديمة مدينة فاس أو مملكة فاس بينما يستعمل الإيرانيون كلمة "مراكش" نسبة إلى مملكة مراكش. قديما أطلق اللاتينيون تسمية "مملكة موريطانيا" على

المغرب وتعني بلاد المورو (سكان شمال أفريقيا الأمازيغ والعرب) وكانت تجمع المغرب وأجزاء من الجزائر وبلاد شنقيط، أصبحت هذه التسمية تشير حالياً إلى دولة موريتانيا.

كما يرجع أصل تسمية المغرب إلى العرب القدماء، حيث يعني الاسم "مكان غروب الشمس"؛ إذ أنهم اعتقدوا حينها أن الشمس تغرب في تلك الناحية من العالم. دخل العرب المسلمون المغرب أثناء فتح شمال أفريقيا. كان المؤرخون العرب في القرون الوسطى يستعملون لفظ "المغرب" للدلالة على جميع المناطق التي تُشكل المغرب العربي حاليّاً، أي تونس والجزائر والمغرب، وكانوا يقسمون هذه المناطق إلى ٣ أقاليم: المغرب الأدنى، أي تونس؛ المغرب الأوسط، أي الجزائر؛ والمغرب الأقصى، أو المملكة المغربية الحالية.

تاريخ الإسلام في المغرب

المقصود بالمغرب هي المناطق التي تمتد من الحدود الغربية لمصر، وحتى شواطئ المحيط الأطلسي، سكنها البربر وسيطر عليها البيزنطيون، وقد احتل الرومان المغرب، ثم جاء الإسلام وتم الفتح في عصر عمر بن الخطاب ومَنْ بعده، وكان لفتنة عثمان بن عفان أثر في مواصلة الفتح، فبعد فتح مصر وليبيا، تم إنشاء مدن منها مدينة تونس ودار صناعة السفن بها، ومدينة القيروان، ثم ظهر عصر الولاة عصر التقلبات السياسية، ثم ظهرت الدول المحلية كالأغالبة والأدارسة والعُبيديين، وقد انتشر المذهب المالكي في المغرب الإسلامي.

ولم يستقر أمر ولاة إفريقية في عصر بني أمية فسيطر الخوارج الصفرية على المغرب الأقصى، وظهرت الإباضية في المغرب الأدنى والأوسط، وشهد العصر العباسي تقلص سلطة الخلافة على الولايات؛ وظهرت الفتنة الكبرى، فاستقلت الولايات الإفريقية وصارت دولاً مستقلة؛ مثل: دولة بني مدرار في سجلماسة، والدولة الرستمية في تاهرت، ودولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، ودولة الأغالبة في تونس.

وظهر المرابطون في صحراء موريتانيا، وكان من مبادئهم إبقاء عقيدة الأمة نقية، وتوحيد المغرب، وحماية الأمة من المفسدين، وحفظ الشريعة، وإعداد الأمة إعدادًا جهاديًّا، وكان من حكامها يوسف بن تاشفين فاستنجد به أمراء الطوائف بالأندلس، فمنحهم الله النصر في موقعة الزَّلاَّقة، وبعد سنوات ضَمَّ الأندلس إليه للحفاظ على المسلمين هناك.

وبعد عهد يوسف بن تاشفين ضعف المرابطون، لانغماسهم في الملذات، وانحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثي، والتعصب المذهبي، وحلول الجفاف بالأندلس والمغرب، وانتشار الأوبئة، وظهور الموحدين على يد محمد بن تومرت.

وعندما تولَّى أبو يوسف يعقوب الموحدي كان عهده العصر الذهبي لدولة الموحدين، ثم بدأ عصر الضعف من جرَّاء ظلمهم وسفكهم للدماء، وثورات الأعراب والأندلسيين عليهم، والنزاع على الخلافة بينهم، والانهيار العسكري، والانغماس في الشهوات، وتقلُّص الدولة في إفريقية والمغرب والأندلس، فقامت دولة الحفصيين في تونس، ودولة بني عبد الواد في تلمسان، وحُكْم بني مرين في المغرب الأقصى، واحتل البرتغاليون شواطئ المغرب، فظهر السعديون بقيادة القائم بأمر الله، فأنهى حكم بني وطاس، وانتصر على البرتغاليين، وكان العثمانيون يدعمون السعديين، فأوقعوا بينهما، فضم العثمانيون المغرب الأقصى إليهم، وازداد النفوذ اليهودي في الدولة العثمانية، ومع ضعف الدولة العثمانية برزت الأسرة القرمانية في ليبيا.

وكان الاحتلال البرتغالي لتعقب المسلمين وتطويق العالم الإسلامي واستعانوا في ذلك بالحبشة فظهرت الكشوف الجغرافية وتلاها الاستعمار الأوربي للقارة، فظهرت المقاومة الإسلامية في مواجهة الاحتلال حتى نالت استقلالها؛ كما في ليبيا بقيادة الشيخ أحمد السنوسي ومعه الشيخ عمر المختار، والجزائر بقيادة محيي الدين الحسني، والمغرب بقيادة الشيخ الهبة ابن الشيخ ماء العينيين، وغيرهم.

شمال إفريقيا والبربر:

يرادف لفظ أو مصطلح "المغرب" اصطلاح "شمال إفريقيا"، والذي استعمله الجغرافيون والمؤرِّخون عند الحديث عن المناطق التي تمتد من الحدود الغربية لمصر، وحتى شواطئ المحيط الأطلسي.

وكانت بلاد المغرب الأدنى تضم برقة، وطرابلس وتمتد غربًا حتى بجاية أو تاهرت، وقاعدتها مدينة القيروان. أما بلاد المغرب الأوسط فتضم المنطقة الممتدة من تاهرت وحتى وادي ملوية وجبال تازة غربًا، وقاعدتها تلمسان وجزائر بني مزغنة. وأما المغرب الأقصى فيمتد من وادي ملوية وحتى مدينة أسفى على المحيط الأطلسي وجبال درن جنوبًا.

وكان المغرب موطنًا لصنفين من البشر، هما:

- **البربر:** وهم أهل الإقليم.
- **البيزنطيون:** وهم المحتلون للإقليم، وكان تركزهم في المناطق الساحلية أكثر من وجودهم داخل البلاد.يجب أن نتعرَّف بدايةً على صفات الشخصية البربرية؛ لكي نستطيع تفسير ما جرى في أحداث الفتح من مقاومة شديدة من قِبَل البربر للإسلام، ثم اندفاعة البربر

بعد إسلامهم نحو الفتوح بكل قوة.فالبربر يصفهم ابن خلدون بأنهم مرهوبو الجانب، شديدو البأس، تخلقوا بالفضائل الإنسانية من خلق وعز وكرم. ومفتاح شخصية هذا البربري هو تمسكه بحريته، يدافع عنها بإصرار، وتاريخه يُنبئ عن هذا، ومقاومته ضد الرومان والبيزنطيين نجحت أحيانًا في بعض المناطق، فتأسست على أساسها دويلات بربرية مستقلة، ولم يُثْنِ البربر عن ثورتهم طوال فترة الثورة التضحياتُ بالروح والمال.

تاريخ المغرب قبل الإسلام وبعده:

تمل قصة المغرب على عدة عصور؛ إذ كانت محتلة من قِبَل الرومان قبل الفتح الإسلامي، أما بعد ذلك فكان هناك عصر الفتح الإسلامي، والذي امتد من سنة ٢١هـ إلى سنة ٩٨هـ، بينما بدأ عصر الولاة من ٩٨هـ إلى ما بين ١٤٤ - ١٨٤هـ حسب اختلاف الولايات، ثم عصر الدول المحلية كالأغالبة، والأدارسة، والعُبيديين (الذين انتسبوا زورًا للسيدة فاطمة رضي الله عنها، وسموا أنفسهم الفاطميين)، ثم دولة المرابطين، فالموحدين، والدولة الحفصية، والرُّستمية، والمرينية وغيرها، حتى وقعت الدول المغربية تحت الاحتلال الأجنبي في القرن التاسع عشر.

يُعتَبر عصر الفتح عصر جهاد دائم ومستمر، واجه فيه المسلمون انتفاضات البربر المستمرة بزعامة الكاهنة، كما واجهوا الروم، وانتصروا عليهم، حتى استقر الأمر للمسلمين، وقد تمَّ فتح المغرب - منذ بدايته حتى استقرار الإسلام به - خلال فترة حُكم عدد من الخلفاء، هم:

١. عمر بن الخطاب
٢. عثمان بن عفان.
٣. علي بن أبي طالب.
٤. معاوية بن أبي سفيان.
٥. عبد الملك بن مروان.
٦. الوليد بن عبد الملك.

وكان القادة الكبار الذين تولوا تبعاته، هم:

أولاً: قادة فتح ليبيا:

١. عمرو بن العاص
٢. عبد الله بن سعد بن أبي السرح.
٣. معاوية بن حديج.

٤. بسر بن أبي أرطاة العامري.
٥. عبد الله بن الزبير بن العوام.

ثانيًا: قادة فتح تونس:

١. عبد الملك بن مروان.

٢. رويفع بن ثابت الأنصاري.

ثالثًا: قادة فتح الجزائر :

١. أبو المهاجر دينار.

٢. عقبة بن نافع الفهري.

٣. زهير بن قيس البلوي.

٤. حسان بن النعمان الغساني.

رابعًا: قادة فتح المغرب:

١. عقبة بن نافع الفهري.

٢. حسان بن النعمان الغساني.

٣. موسى بن نصير اللخمي.

وكان عصر الولاة عصر تقلبات سياسية، وانتفاضات بربرية، ثم أتى عصر الدول المحلية التي انفصلت عن الخلافة العباسية، وكان منها دول شيعية، وأخرى خارجية، وثالثة سُنية.

تطلع أهل ليبيا للخلاص الإسلامي:

نبدأ قصة المغرب من عصر الفتوح؛ إذ سبق الفتح الإسلامي للمغرب إرهاصات وأحداث وقضايا سياسية، ونزاعات عرقية وثورات محلية في مدينتي برقة وطرابلس، كان لها أثر بالغ في تغيير مجريات الأحداث السياسية والدينية في المنطقة، وتهيئة نفوس أهالي ليبيا لقبول الإسلام؛ حيث إنهم كانت قد بلغتهم أخبار فتح المسلمين لبلاد الشام ومصر، فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي المسلمين من أولئك البيزنطيين وحكمهم الجائر التعسفي.

لذلك حاول نفر من أهالي ليبيا التمرد على نظام الإمبراطورية البيزنطية والخروج إلى ناحية مصر، حتى يلتقوا بقائد الجيوش المسلمة عمرو بن العاص رضي الله عنه، وكان يومئذٍ حاكم مصر، وما أن وصل هؤلاء النفر حتى أعلنوا إسلامهم ودخلوا في دين الله سبحانه، وأعطوا ولاءهم لقيادة المسلمين بقيادة عمرو بن العاص، نيابة عن خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.ولما كان الحال في المغرب كذلك، فقد قرَّر عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يضع إستراتيجية أمنية وقائية لمصر من الناحية الغربية؛ حتى يأمن شرَّ الروم القاطنين ناحية برقة وطرابلس، بعد أن أمن فتوحاته الشامية، وذلك بفتحه الإسكندرية.

كما قرَّر عمرو بن العاص رضي الله عنه إرسال عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه في سنة ٢٢ هـ/ ٦٤٢م - على الأرجح بعد استئذان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه - كمقدمة استطلاعية لفتح المغرب، فافتتح عقبة زويلة صلحًا.

وفي نفس العام سار عمرو بن العاص بنفسه من مصر حتى بلغ برقة، وكانت تنزلها بعض بطون من قبائل لتوانة وزواغة، وكانت هذه القبائل ساخطة على البيزنطيين لما كانوا عليه من الظلم والعسف وجباية الضرائب منهم، فصالحوا المسلمين على الجزية، وكان أهلها يرسلون ما عليهم من الأموال إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث.

وفي نفس السنة (٢٢ هـ/ ٦٤٢م) وصل عمرو بن العاص إلى مدينة أجدابية فافتتحها صلحًا على أن يدفع أهلها خمسة آلاف دينار، ولكن ما لبثوا على دفع الجزية إلا قليلاً، حتى أسلم معظم أهلها بعد أن رأوا من الفاتحين من العدالة والمساواة والصدق والأمانة والطهارة والعفة ما لم يروه من قبل في جيوش تلك الإمبراطوريات الهالكة.

بعد وفاة عمر رضي الله عنه تولى عثمان رضي الله عنه، وكان من أهم أعماله أنه عمل على توطيد نفوذ المسلمين في كثير من البلاد التي تمَّ فتحها من قبل، كما نجح ولاته في ضم مناطق جديدة إلى حوزة الدولة الإسلامية.وحين تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه خلافة المسلمين عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر سنة (٢٦ هـ/ ٦٤٦م) وعقدها لعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وطلب عبد الله بن سعد بن أبي سرح الإذن من عثمان رضي الله عنه لاستكمال الفتوح في إفريقيا.

الفتنة تؤخر الفتوح الإفريقية:

كان لا بد أن تؤثر فتنة عثمان رضي الله عنه وما تلاها من أحداث في نشاط الفتوح الإسلامية؛ إذ لم يكن من الميسور للقادة والجند أن يستمروا فيما كانوا آخذين فيه من فتوح بعد أن شبت نيران هذه الفتنة، ولا شك أن الأمداد قد انقطعت عنهم، وتوقعوا أن تحول حروب الداخل دون إرسال الجند إلى الأطراف فتركوا ما بأيديهم، ولبث بعضهم حيث هو ينتظر نتيجة الصراع المحتدم، وعاد البعض الآخر إلى الحجاز والشام ليسهم في هذه الأحداث. لقد شغل المسلمون عن إفريقية والفتوح عامة بسبب فتنة عثمان رضي الله عنه ، ثم الحرب بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، ولم يتجدد نشاط الفتوح مرة أخرى إلا بعد استقرار الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ/ ٦٦١م.

نشطت حركة الفتوح خلال عصر الدولة الأموية، وبدأ المسلمون يمارسون دورهم الحضاري في النهضة بأمر البربر، مع ترسيخ الوجود الإسلامي في المغرب، وقد كان من مظاهر ذلك:

١- <u>إنشاء المدن والعناية بها:</u>

✓ بناء تونس:

اختط هذه المدينة القائد حسان بن النعمان الغساني عام ٨٢هـ؛ لتكون قاعدة عسكرية بحرية، ولتحول دون تكرار البيزنطيين الهجوم على قرطاجة عام ٧٨هـ. بنى حسان بن النعمان مدينة تونس على أنقاض قرية قديمة عرفت باسم ترشيش القديمة، وإنما سميت تونس في أيام الإسلام لوجود صومعة الراهب، وكانت سرايا المسلمين تنزل بإزاء صومعته، وتأنس لصوت الراهب، فيقولون: هذه الصومعة تؤنس؛ فلزمها هذا الاسم فسميت باسم تونس. واختط حسان تونس غربي البحر المتوسط بنحو عشرة أميال، فقام بحفر قناة تصل المدينة بالبحر لتكون ميناء بحريًّا ومركزًا للأسطول الإسلامي بعد أن أنشأ فيها صناعة المراكب، بخبراء في هذه الصناعة زوده بها والي مصر عبد العزيز بن مروان بناءً على توجيه الخليفة عبد الملك. وقد بنيت مدينة تونس طبقًا لأهداف سياسية إستراتيجية، وأهداف اقتصادية اجتماعية تبناها الخليفة عبد الملك.

أمّا الأهداف السياسية البعيدة المدى، فيتضح ذلك بوضع حد لاعتداءات الروم والمتمثلة بإغارتهم على الساحل الإفريقي، والسبيل الأمثل هو إيجاد قاعدة بحرية، وصناعة بحرية قادرة على إنشاء أسطوله مهمته صد العدوان الرومي بادئ الأمر، ثم الانتقال من مرحلة التصدي إلى الغزو والفتح فيما بعد، وقد تمثل تطبيق هذه المرحلة من قبل الخليفة

عبد الملك فقام بالإيعاز لشقيقه والي مصر عبد العزيز بن مروان، لإرسال ألفي قبطي من مهرة الصناع لإقامة صناعة مراكب بحرية، وقام هؤلاء بالمهمة الموكلة إليهم خير قيام.

وأما الهدف الثاني: فيتمثل بإيجاد حياة اجتماعية بإيجاد المؤسسات القادرة على خدمة الأفراد، فأقام في المدينة المسجد الجامع، ودار الإمارة، وثكنات للجند للمرابطة، وأخذ يقوم بتدوين الدواوين، وتنظيم الخراج والعناية بالدعوة الإسلامية بين البربر، فقام بإرسال الفقهاء ليعلموهم اللغة العربية والدين الإسلامي، وصارت المدينة معسكرًا حربيًّا في البداية، ومركز استيطان وإدارة لدعم الفتوحات، وأخيرًا مركزًا حضاريًّا ومركز إشعاع فكري وعلمي وثقافي.

وهكذا رسخ الخليفة عبد الملك بن مروان أقدام الدولة الأموية بتأسيس مدينة تونس، وقطع دابر الغارات البيزنطية بإيجاد مدينة إسلامية مرتبطة بالأهداف العليا للدولة.

✓ القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب

لم تبدأ الحياة العلمية المركَّزة إلا بعد تأسيس القيروان سنة ٥٠هـ، فسرعان ما أصبحت القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمته العلمية، منها انطلق الدعاة وإليها رحل طلاب العلم من الآفاق. ولا شك أن الصحابة الذين كانوا في جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود في مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء تأسيس القيروان ثمانية عشر صحابيًّا، وقد مكثوا فيها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها - ولا شك - نشر اللغة العربية، وتعليم القرآن والسنة في جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غيابًا طويلاً عن القيروان، أمّا في غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابيًّا، وسائر جيشه من التابعين.ولقد استقطبت القيروان أعدادًا هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة: "فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبُرَ جمعُه، ودخل أكثر البربر في الإسلام ورسخ الدين، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة."

ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكرًا في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام، ولما جاء أبو المهاجر دينار لولاية إفريقية تألَّف كُسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجًا ودعّم حسان بن النعمان - فيما بعد - جهود عقبة في نشر الإسلام بين البربر حيث خصّص ثلاثة عشر فقيهًا من

التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام، وواصل موسى بن نُصير هذه المهمة حيث: أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن، وأن يفقّهوهم في الدِّين، وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهًا لتعليم أهله.

٢-إنشاء دار صناعة السفن بتونس:

عزَّزت الدولة الأموية القوة العسكرية بإنشاء سلاح البحرية، وأقامت دارًا لصناعة السفن في تونس، وزودت هذه الدار بما يلزمها من المواد والصناع

٣-التوسع في الصناعات الحربية:

توسعت هذه الصناعة في عهد عبد الملك بن مروان وفتح دارًا بتونس لصناعة السفن الحربية، وكانت نواة تلك الدار ألف عامل متخصص في صناعة السفن تم نقلهم من دار الصناعة - المنطقة الصناعية - بمصر، وقد تم وضع التنظيم اللازم وطريقة إمداد تلك الدار بالأخشاب من الغابات الإفريقية الداخلية، واختيار جماعات من البربر من سكان تلك المناطق للقيام بتلك المهمة، حيث هم أخبر الناس بمناطق وجود الأخشاب الجيدة الملائمة لتلك الصناعة.وفي إرسال دار الصناعة بمصر لألف عامل ليكونوا نواة التصنيع بتونس، ما يدل على مدى تطور تلك الصناعة بمصر وكبر حجمها. وفي تطور لاحق لصناعة السفن الحربية بتونس، قام والي تونس بتوسيع دار الصناعة بها؛ فشق قناة بين الميناء وبين المدينة بطول اثني عشر ميلاً، وشكلت هذه القناة ما يماثل اليوم أحواض بناء السفن أو الأحواض الجافة، وأصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكاني.

عصر الولاة:

عرف المغرب بداية عصر الولاة بدءًا من عام ٩٨هـ، والذي كان عصر قلاقل واضطرابات، وقد بدأت تلك الاضطرابات بعدما اختار سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم واليًا على إفريقية، وكان شديدًا كالحجّاج، وأراد أن يسير فيهم سيرة الحجّاج في أهل العراق؛ فكانت النتيجة أن قتلوه، ومن بعدها لم يستقر أمر ولاة إفريقية في عصر بني أمية، وشهد المغرب الفتنة المغربية الكبرى التي تضخمت في العصر العباسي، حتى وصلت إلى استقلال الولايات الإفريقية، وإقامة دول مستقلة فيها.

لقد سيطر الخوارج على المغرب في أواخر عهد الدولة الأموية، وسار إليهم محمد بن الأشعث فدخل إفريقية وفيها عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري يقاتل الخوارج.

فقد برزت الخوارج الصفرية في المغرب الأقصى وسيطرت عليه، وظهرت الإباضية في المغرب الأدنى والأوسط، وأخضعت أجزاءً واسعة لنفوذها، وكان عبد الرحمن بن حبيب يقاتل الخوارج عندما قامت الدولة العباسية.وفي عام ١٥٥هـ جاء يزيد بن أبي حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة واليًا على إفريقية فانتصر على الخوارج الإباضية والصفرية، واستطاع أن يفرض نفوذ العباسيين في المغرب قبل نهاية حكم المنصور، وبقي يزيد بن حاتم في المغرب حتى عام ١٧٠هـ.

ثم سادت الاضطرابات في إفريقية اعتبارًا من عام ١٧١ هـ/ ٧٨٧م بفعل خروج الخوارج وقادة الجند والبربر؛ فأرسل الرشيد هرثمة بن أعين واليًا على إفريقية، وأمره بقمع الانتفاضات وتوطيد الأمن، فنجح في مهمته ودخل القيروان وأمَّن الناس.

ويبدو أن الخلافات بين الفئات الإسلامية المتعددة كانت واسعة فتجددت القلاقل، ولم يتمكن هرثمة من رأب الصدع، فعزله الخليفة بناءً على طلبه في عام ١٨٠ هـ/ ٧٩٦م، كما لم يتمكن الولاة الذين جاءوا من بعده من السيطرة على الموقف، فاستغل إبراهيم بن الأغلب عامل إقليم الزاب (في الجزائر اليوم) هذه الأوضاع القلقة، وطلب من الخليفة توليته على إفريقية ووعده بتهدئة الوضع، استجاب الخليفة لطلبه، وعهد إليه بالولاية على إفريقية في عام ١٨٤ هـ/ ٨٠٠م، ونجح إبراهيم في تحقيق الاستقرار متبعًا في ذلك سياسة معتدلة، وازدهرت إفريقية في عهده وشهدت حركة عمرانية واسعة ونشاطًا اقتصاديًّا كبيرًا، وقد مهَّد إبراهيم بهذا لقيام دولة الأغالبة التي ما لبثت أن استقلت عن الإدارة المركزية في بغداد، واتخذت القيروان حاضرة لها.

لقد شهد العصر العباسي تقلص سلطة الخلافة عن الولايات؛ مما مهَّد السبيل لكل ناقم على الدولة، أو مخالف لها لأن يقيم دولته الوراثية الخاصة في أطراف الخلافة، وقد كان من هؤلاء إبرهيم بن الأغلب الذي أقام دولة الأغالبة، ولكن بموافقة الخلافة العباسية.

<u>وهذه نماذج لبعض الدول المحلية:</u>

✓ دولة بني مدرار في سجلماسة (١٤٠ ـ ٣٤٩هـ/ ٧٥٧ ـ ٩٦٠م):

توفي أبو القاسم سمكو مؤسس دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة (جنوب المغرب) عام ١٦٨هـ، وخلفه ابنه إلياس بن أبي القاسم والذي عرف باسم "أبو الوزير"، واستمرت أيامه حتى عام ١٧٤هـ، وخلفه أخوه اليسع بن أبي القاسم، وبقي في حكم هذه الدولة حتى عام ٢٠٨هـ، وقد عرف باسم "أبو المنصور"، وقد ثارت الإباضية في أيامه في وادي درعة، ولكنه قضى على ثورتهم وبطش بهم.

وكما هادن الإباضيون ولاة العباسيين في القيروان، كذلك هادنهم الصفرية الذين اتجهوا نحو أوضاعهم الداخلية والاقتصادية حيث كانوا تجارًا بين الشمال والجنوب عبر الصحراء، وكذلك فقد جعلوا الحكم وراثيًّا كالإباضيين.

كانت الصفرية والإباضية من أكثر المذاهب الخارجية المنتشرة بالمغرب، وإنهما من أكثر مذاهب الخوارج تسامحًا واعتدالاً مع مخالفيهم في الرأي، إذا ما قورنوا بفرق الأزارقة والحرورية في المشرق؛ لأن الصفرية والإباضية لم ترضيا إباحة دماء المسلمين، أو جواز سبي النساء والذرية، ولا يريان قتال أحد من الناس سوى جيش السلطان، فلم يكفروا القاعدين عن القتال، ولم يُسقطوا الرجم، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم في النار، ومرتكب الكبيرة عندهم عاصٍ وليس كافرًا مشركًا.

الدولة الرستمية في تاهرت (١٤٤ ـ ٢٩٦ هـ / ٧٦١ ـ ٩٠٨ م): امت دولة للخوارج الإباضية في تاهرت (غرب الجزائر) إذ أسسوا هذه المدينة عام ١٦١هـ، وأصبح عبد الرحمن بن رستم إمامًا لهذه الدولة، وقد هادن ولاة القيروان .وبعد وفاته عام ١٧١هـ، خلفه ابنه عبد الوهاب واستمر حكمه إلى ما بعد هارون الرشيد، وقد هادن ولاة إفريقية من قبل العباسيين، وقد لقي عبد الوهاب حركات ضده بسبب مخالفته للمذهب الإباضي الذي لا يقبل بالحكم الوراثي، وإنما يكون الرأي في اختيار الحاكم لأهل الحل والعقد، أما عبد الوهاب فقد تسلم الحكم من أبيه رغم وجود من هو أفضل منه وأكثر علمًا؛ لذا فقد قامت حركة قادها يزيد بن فندين وعرفت بالنُكّار، أي الذين ينكرون تصرف ولي الأمر بالحكم. وعقيدة الإباضية تتفق مع أهل السنة في الكثير، وتختلف في القليل، فهم يعترفون بالقرآن والحديث كمصدر للعلوم الدينية، ويقولون بالرأي، ويأخذون بالإجماع. ولعل أهم خلاف بينهم وبين السنة قولهم بالتنزيه المطلق؛ ولذلك فإنهم يقولون: إن رؤية الله منفية في الدنيا والآخرة. ويقولون أيضًا: إن الوعد والوعيد لا يتخلفان، بمعنى أن وعيد الله لا يتخلف، فمن دخل النار فهو خالد فيها، والمذنب تطهره التوبة، ولا يدخل السعيد النار.

- ✓ **دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (مراكش 172)(٣٧٥ هـ/٧٨٨ - ٩٨٥م)**

فرَّ إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من الحجاز، وقد نجا من موقعة فخ عام ١٦٩هـ / ٧٨٥م، إلى المغرب

الأقصى حيث استطاع أن يؤسس دولة مستقلة عن الخلافة العباسية عام ١٧٢ هـ، وبنى في المكان المعروف باسم جراوة مدينة فاس، واتخذها عاصمة له، واستمر في حكمه حتى توفي مسمومًا عام ١٧٧ هـ، فخلفه ابنه إدريس الثاني الذي كان جنينًا في بطن أمه عندما مات أبوه، وقام بشئون البربر مولى أبيه راشد، فلما قتل راشد كفل إدريس أبو خالد العبدي، حتى كبر فتولى الأمر عام ١٨٨ هـ، وبنى مدينة العالية وهي مقابل مدينة فاس.

ومن أشهر أمراء الأدارسة إدريس الثاني (١٧٧ ـ ٢١٣ هـ)، علي بن عمر بن إدريس الثاني (٢٢١ ـ ٢٣٤ هـ)، ويحيى الرابع بن إدريس بن عمر (٢٩٢ ـ ٣١٠ هـ)

✓ دولة الأغالبة في المغرب الأدنى (تونس 184)) ٢٩٦ هـ/ ٨٠٠ ـ ٩٠٩ م

في عام ١٨٤ هـ ولَّى الخليفة هارون الرشيد إمارة إفريقية لإبراهيم بن الأغلب، ومنذ أن تولى إبراهيم الإمارة بدأ يعمل على تأسيس دولة له ولأبنائه من بعده.

عرف الرشيد رغبة إبراهيم بن الأغلب، ومع ذلك فقد استبقاه في الإمارة بل ودعمه ما دام يعمل باسم العباسيين، وخاصة أن الرشيد كان مشغولاً بحرب الروم، وهجوم الخزر، ومشكلات المشرق، وفي الوقت نفسه يريد أن يحمي الأجزاء الغربية من الإمارات التي قامت في المغرب والأندلس من خوارج وأدارسة وأمويين، ولم يكن لدى الرشيد أسطول يحمي أقاليم البحر المتوسط فاكتفى بالإشراف على دولة إبراهيم بن الأغلب، ورأى ذلك خيرًا وأفضل من أن يخرجوا من إشرافه نهائيًّا كباقي الإمارات.

ومن أشهر أمراء دولة الأغالبة إبراهيم بن الأغلب (١٨٤ ـ ١٩٦هـ)، وعبد الله الأول (١٩٦ ـ ٢٠١ هـ)، وزيادة الله الأول (٢٠١ ـ ٢٢٣ هـ)، ومحمد الأول أبو العباس (٢٢٦ ـ ٢٤٢ هـ)

دولة المرابطين ومبادئهم :

في صحراء موريتانيا البلد الإسلامي الكبير، وبالتحديد في الجنوب القاحل حيث الصحراء الممتدة، والجدب المقفر، والحرّ الشديد، كانت تعيش بعض قبائل البربر، ومن قبائل البربر الكبيرة كانت قبيلة "صنهاجة"، وكانت قبيلتا "جُدَالَة ولَمْتُونة" أكبر فرعين في "صنهاجة."

كانت "جُدَالة" تقطن جنوب موريتانيا، وكانت قد دخلت في الإسلام منذ قرون، وكان على رأس جدالة رئيسهم يحيى بن إبراهيم الجدالي، وكان لهذا الرجل فطرة سويّة وأخلاق حَسَنة.

نظر يحيى بن إبراهيم في قبيلته فوجد أمورًا عجيبة، فقد أدمنوا الخمور، وألِفوا الزنا، فقد فشا الزنا بشكل مريع في جنوب موريتانيا في ذلك الزمن، وكثر الزواج من أكثر من أربعة، والناس ما زالوا مسلمين ولا ينكر عليهم أحد ما يفعلونه، فالسلب والنهب هو العرف السائد، القبائل مشتتة ومفرقة، القبيلة القوية تأكل الضعيفة.

كان يحيى بن إبراهيم الجُدالي صاحب الفطرة النقيّة يعلم أن كلّ ما يفعله قومه من المنكرات، لكنه لم يكن بمقدوره التغيير؛ فالشعب كله في ضلال وعمى، وبعيد كل البعد عن الدين، كما أن الرجل نفسه لا يملك من العلم ما يستطيع به أن يغيّر الناس.

وبعد حيْرة وتفكّر هداه ربُّه لأن يذهب إلى الحج، ثم وهو في طريق عودته يُعرّج على حاضرة الإسلام في المنطقة وهي مدينة القيروان (في تونس الآن)، فيكلّم علماءَها المشهورين بالعلم لعلّ واحدًا منهم أن يأتي معه فيُعلّم قبيلته الإسلام.

وبالفعل أكرمه الله عزَّ وجلَّ بالشيخ عبد الله بن ياسين) الزعيم الأول للمرابطين، وجامع شملهم، وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم، ت ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) من شيوخ المالكية الكبار، الذي جاء معه، وأخذ يدعو الناس؛ فنفروا منه وضربوه، لكنه لم ييئس هو والأمير؛ فأقاما رباطًا يتعبدان فيه، فأخذ الناس يأتون إليهما طلبًا للهداية.

تجمع من التائبين عدد كبير منهم يحيى بن عمر اللمتوني زعيم لمتونة،ثم خَلَفَه بعد وفاته أبو بكر بن عمر، فانطلقوا بقيادة عبد الله بن ياسين الروحية، وقيادة يحيى بن عمر اللمتوني السياسية والعسكرية يدعون قومهم، ثم القبائل الأخرى التي كانت وثنية، أو عادت إلى الوثنية بعد أن كانت مسلمة؛ فمن قَبِل صار معهم، ومن عاند وعادى دعوة الحق حاربوه؛ حتى أقاموا دولـةً كبيرةً سُمِّيَت بالمرابطين؛ لأن ابن ياسين وجماعته كانوا يرابطون على نهر السنغال في خيام متأهبين للجهاد في سبيل الله تعالى.

وقد قامت دولة المرابطين على عدد من المبادئ، من أهمها:

١. العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية.
٢. توحيد المغرب تحت راية الخلافة الإسلامية.
٣. العمل على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين.
٤. العمل على حماية الأمة من أعداء الخارج.
٥. حفظ ما وُضِعَت الشريعة لأجله.
٦. إعداد الأمة إعدادًا جهاديًّا.
٧. القيام على تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفيء.
٨. تحري الأمانة في اختيار المناصب.
٩. الإشراف المباشر على شئون الدولة.

ومات عبد الله بن ياسين مجاهدًا، ثم انطلق يحيى بن عمر مجاهدًا في أواسط إفريقيا وغربها، وترك ابن عمه يوسف بن تاشفين على قيادة دولة المرابطين؛ فوسعها، واتخذ الجهاد سبيلاً، حتى أقام دولةً عظيمةً للمرابطين، صار لديها خمسمائة ألف مقاتل.

كان عهد يوسف بن تاشفين عهد قوة للمرابطين؛ حيث استنجد به أمراء الطوائف بالأندلس ضد عدوهم الصليبي، فانتقل إليهم بسبعة آلاف مقاتل فقط، وتجمَّع لديه من المجاهدين المتطوعين بالأندلس ثلاثون ألفًا، ومنحهم الله عزَّ وجلَّ النصر على عدوهم في موقعة الزَّلاَّقة العظيمة، التي أُبِيد فيها جيش الصليبيين على بكرة أبيه، ثم بعد سنوات لما زاد تصارع أمراء الطوائف، ضم يوسف الأندلس إلى دولة المرابطين؛ لكي يحفظ الإسلام والمسلمين فيها.

أسباب سقوط المرابطين:

أولاً: بعد عهد يوسف بن تاشفين دخلت دولة المرابطين في انحراف عن مبادئها؛ مما أدخلها في عهد ضعفٍ انتهى بقيام دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت، وكان فاسد العقيدة، فادَّعى أنه المهدي المنتظر، واستباح دماء المرابطين، وكانت الدماء يسيرةً عليه.

ثانيًا: ظهور السفور والاختلاط بين النساء والرجال.

ثالثًا: انحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثي.

رابعًا: الضيق الفكري الذي أصاب فقهاء المرابطين وحجرهم على أفكار الناس، ومحاولة إلزامهم بفروع مذهب الإمام مالك وحده، وعملوا على منع بقية المذاهب السنية تعصبًا لمذهبهم.

خامسًا: فَقْد دولة المرابطين لكثير من قياداتها وعلمائها العظام أمثال سير بن أبي بكر، ومحمد بن مزدلي، ومحمد بن الحاج، وأبي إسحاق بن دانية، وأبي بكر بن واسينو.

سادسًا: الأزمة الاقتصادية الحادة التي مرت بها دولة المرابطين نتيجة لانحباس المطر لعدة سنوات، وحلول الجفاف والقحط بالأندلس والمغرب، وزاد من حدَّة الأزمة الاقتصادية أن أسراب الجراد هاجمت ما بقي من الأخضر على وجه البلاد؛ مما هيأ الظروف لانتشار مختلف الأوبئة بين كثير من السكان، ووقعت هذه الأزمة في الفترة الواقعة ما بين أعوام ٥٢٤ - ٥٣٠هـ.

سابعًا: الصدام المسلح بين دولة المرابطين وجيوش الموحدين :بعد محمد بن تومرت تولى عدد من الحكام كان أبرزهم عبد المؤمن بن علي الذي كان عهده عهد قوة؛ إذ قام بمضاعفة القوة العسكرية، كما قام بنهضة عمرانية كبيرة.

استمر عهد قوة الموحدين بعد تولي أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي (٥٥٤ - ٥٩٥هـ/ ١١٦٠ - ١١٩٩م)ويمثل عهده الذي امتد خمس عشرة سنةً العصر الذهبي لدولة الموحدين.

تولَّى أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي، وكان عمره خمسًا وعشرين سنةً فقط، وقد قام بالأمر أحسن ما يكون القيام، ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، ونظر في أمور الدين والوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتي هي أحسن، واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي أن يغير كثيرًا من أسلوب السابقين له، فكان سمته الهدوء والسكينة والعدل والحلم، حتى إنه كان يقف ليقضي حاجة المرأة وحاجة الضعيف في قارعة الطريق، وكان يؤمُّ الناس في الصلوات الخمس، وكان زاهدًا يلبس الصوف الخشن من الثياب، وقد أقام الحدود حتى في أهله وعشيرته، فاستقامت الأحوال في البلاد وعظمت الفتوحات.

بلغت أعمال أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي الجليلة في دولته أوجها، حتى وصلت إلى أن حارب الخمور، واهتم بالطب والهندسة، وألغى المناظرات العقيمة التي كانت في أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحدين، وقد أسقط الديون عن الأفراد، وزاد كثيرًا في العطاء للعلماء، ومال إلى مذهب ابن حزم الظاهري لكنه لم يفرضه على الناس، ومن أجلِّ أعماله أنه تبرأ من أباطيل ابن تومرت.

وفي سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٥م انطلقت الجيوش الإسلامية من المغرب والصحراء وعبرت مضيق جبل طارق إلى بلاد الأندلس لتلتقي مع قوات الصليبيين الرابضة هناك في موقعة الأرك الخالدة التي انتصر فيها المسلمون انتصارًا باهرًا. وبعد وفاة المنصور الموحدي سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٩م بدأت النهاية لدولة الموحدين.

✓ **أسباب سقوط دولة الموحدين:**

١. ظلمهم الفظيع للمرابطين، وسفكهم للدماء، واعتداؤهم على الأموال، وسبيهم للنساء بدون وجه حق.
٢. ثورة بني غانية، وهم من بقايا المرابطين.
٣. ثورات الأعراب المتتالية.
٤. ثورات الأندلس ضد دولة الموحدين.
٥. النزاع على الخلافة بين الموحدين، ولم يستطيعوا أن يضعوا نظامًا ثابتًا لتولي الخلافة عندهم.
٦. الانهيار العسكري الذي أصاب دولة الموحدين، وتغير أهداف الجيش الموحدي.
٧. الترف والانغماس في الشهوات.
٨. تقلُّص أراضي الدولة في إفريقية والمغرب والأندلس.

<u>البرتغاليون يحتلون شواطئ المغرب:</u>

قامت في بلاد المغرب على أنقاض دولة الموحدين عدة دول؛ وهي دولة الحفصيين في تونس، ودولة بني عبد الواد في تلمسان، وحكم بني مرين في المغرب الأقصى، ثم خلفهم عام ٨٢٣هـ بنو وطاس، واستمر أمرهم حتى عام ٩١٦هـ، وفي أيامهم احتل البرتغاليون شواطئ المغرب، فضاق المسلمون بهذا التوسع الصليبي، وخاصة أن النصارى من أسبان وبرتغال قد طردوا المسلمين من الأندلس، ونكلوا بهم أشد تنكيل، فانطلقت هذه الجموع نحو المغرب، واتجهت الأنظار نحو شيخ السعديين أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله، فأنهى حكم بني وطاس، وأعلن الجهاد، وقاتل البرتغاليين وانتصر عليهم، وأجلاهم عن المراكز التي بقوا في بعضها اثنتين وسبعين سنة، وبعد وفاة أبي عبد الله محمد خلفه ابنه أحمد الأعرج.

كان العثمانيون يدعمون السعديين ويحثونهم على قتال الصليبيين ويقدمون لهم المساعدات، ويشجعونهم على العمل معًا لاستعادة الأندلس، ولكن الصليبيين نجحوا في الإيقاع بين العثمانيين والسعديين.

هزيمة العثمانيين وضعف دول المغرب:

وفي عام ٩٦١هـ ضم العثمانيون المغرب الأقصى، وخطب للسلطان العثماني على المنابر، ولكن لم يلبث العثمانيون أن خرجوا من المغرب أمام مقاومة السكان الذين شحنوا بكراهية العثمانيين نتيجة الدعاية الصليبية.

وعندما هزم العثمانيون عام ٩٧٨هـ وتحطم أسطولهم تمامًا أمام أسطول إسبانيا والبندقية لم يعودوا يفكرون في دخول المغرب، وإن عدوها منطقة مواجهة مع الدول النصرانية.

وهذا الضعف أطمع النصارى في الأندلس فبدءوا ينزلون على سواحل المغرب واحتلوا عددًا من الموانئ، وتمركزوا في بعض المواقع، هذا إضافةً إلى بقية النصارى الذين اتجهوا إلى سواحل شمالي المغرب مثل فرسان مالطة الذين كانوا قد سيطروا على منطقة ليبيا، ثم جاء العثمانيون فاستطاعوا أن ينقذوا ما أمكنهم إنقاذه، حتى إذا ضعف أمرهم أيضًا مع مرور الزمن عاد الصليبيون فاحتلوا بلاد المغرب ثانية،وتقاسموا أرضه وخيراته.

بعد الضعف الذي أصاب دول المغرب احتل فرسان مالطة منطقة برقة في ليبيا، واحتل الإسبان طرابلس عام ٩١٦ هـ، وقد بقوا فيها حتى تمكن (طرغول) القائد البحري العثماني من دخولها عام ٩٥٨ هـ، وقد حاولت إسبانيا احتلالها دون جدوى.

ومع ضعف الدولة العثمانية برزت الأسرة القرمانية التي فرضت سيطرتها على منطقة ليبيا، وإن كانت تخضع للدولة العثمانية إلا أنها كانت تتصرف تصرف المستقل منذ عام ١١٢٣هـ، ولكن الدولة العثمانية أنهت حكم الأسرة القرمانية عام ١٢٥١هـ، وعملت على تحسين الأوضاع الاقتصادية للسكان، ومع ذلك فلم تسلم المنطقة من محاولات تدخل الدول الأوروبية بحجة حماية الأقلية النصرانية.

زيادة النفوذ اليهودي:

كانت الدولة العثمانية قد تساهلت مع اليهود، وسمحت لهم بالإقامة في المناطق التي تتبعها بعد طردهم من الأندلس، فأساءوا كثيرًا، وزادت أطماعهم وظهر جشعهم، فانتقلوا إلى الشمال الإفريقي، وبقية أرجاء الدولة العثمانية، وأقام منهم في ليبيا أكثر من ثمانمائة أسرة، وبدأ مركزهم يزيد نتيجة للتجارة، وتساهل والي ليبيا العثماني رجب باشا مع اليهود، وكان يرغب بإعطاء الأراضي لهم خوفًا من التوسع الإيطالي؛ ولهذا حرصت إيطاليا على طلب نقله من ليبيا ليلة الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني الخليفة العثماني، وقد عينه رجال الانقلاب من جماعة الاتحاد

والترقي وزيرًا للحربية لكنه توفي يوم تعينه، وفقد اليهود نصيرهم فهو من جماعة الاتحاد والترقي وإن كان يعمل في السر.

وكان لليهود دور كبير في الإطاحة بالخليفة العثماني ثم بالخلافة، وكان مشروع رجب باشا إسكان اليهود في منطقة الجبل الأخضر، وقد قامت دراسات كافية في هذا الشأن، ورغم الخلاف بين ما كان يخطط له رجب باشا وبين الطليان فإن اليهود قد دعموا الاحتلال الإيطالي لليبيا، وساعدوا على ارتكاب الأعمال الوحشية الإيطالية هناك.

اشتداد الصراع على دول المغرب:

أمّا في تونس، ففي عام ١٥٢٦م تولى أمر الدولة الحفصية الحسن الحفصي الذي كان يميل إلى ملك النمسا شارلكان، مما جعل السكان ينقمون عليه ويستنجدون بالعثمانيين، فاستدعى الخليفة العثماني سليمان القانوني أمير البحر خير الدين بربروس إلى إستانبول عام ٩٤٠ هـ، وكلفه بإنشاء السفن الكافية والاستعداد لفتح تونس، فامتثل لطلب الخليفة العثماني، وقصد تونس عام ٩٤٢ هـ، وأعلن للسكان أنه قادم لعزل السلطان مولاي الحسن الحفصي لصلته بالدول النصرانية وعلاقته بشارلكان، فاستقبله السكان ورحبوا به فاستولى بسهولة على تونس؛ فاستنجد السلطان الحسن الحفصي بالنصارى، فاتفق شارلكان مع البابا وأمراء إيطاليا، ورهبنة القديس حنا الأورشليمي في مالطة، وجهز أسطولاً كبيرًا، وانطلق بنفسه من برشلونة مع بعض الأمراء الإسبان، واستطاع أن يستولي على تونس، وأن يعيد السلطان الحفصي إلى حكمه، الذي أصبح خاضعًا له، وعندما دخل شارلكان تونس بعد حصار دام أكثر من شهر سمح لجنده أن يتصرفوا كما شاءوا فنهبوا وسلبوا وارتكبوا أبشع الأعمال الوحشية والمحرمات، ثم كتب معاهدة مع الحفصي كلها خزي، مما جعل السكان يكرهون سلطانهم بصورة أشد من كرههم له في السابق، وما أن غادر شارلكان تونس حتى عادت الفوضى السياسية.

تمكن الوالي العثماني طرغول في طرابلس أن يحتل قفصة عام ٩٦٣هـ، ثم القيروان ٩٦٥هـ، وأرسلت إسبانيا عام ٩٦٨ هـ أسطولاً للحد من نشاطه لكنه تحطم، وفي سنة ٩٨١ هـ دخل سنان باشا تونس وبقي فيها العثمانيون بعد ذلك.

وعندما غادر سنان باشا تونس ترك فيها واليًا ممثلاً للخليفة اشتهر بلقب باي (بيلر باي)، ويساعده ديوان استشاري مؤلف من عسكريين يمثلون الفرق العسكرية هناك، ويلقب كل منهم بـ (الداي) إضافةً إلى موظف الشئون المالية، غير أن الدايات قد سيطروا على الباي منذ عام ٩٩٩ هـ، وتفردوا بالسلطة حتى عام ١٠٥٠ هـ، مع وجود الباي، وكان الدايات ينتخبون من بينهم الداي الذي يسند إليه الحكم.

وعندما احتلَّت فرنسا الجزائر عام ١٢٤٥هـ احتجت الدولة العثمانية على ذلك، وأرادت أن تستعيد ولاية الجزائر بالمفاوضات السياسية غير أنها قد عجزت؛ فلجأت إلى الطريقة العسكرية فتخلصت من الأسرة القرمانية في ليبيا عام ١٢٥١ هـ، وأرادت أن تقضي على الأسرة الحسينية في تونس لتكون على مقربة من الجزائر، غير أن فرنسا قد هددت بذلك، وكلما اتجه الأسطول العثماني من ليبيا نحو تونس تحرك الأسطول الفرنسي من الجزائر نحو الشرق.

وكانت فرنسا تعامل بايات تونس كحكام مستقلين، وكان هذا يثير احتجاج الدولة العثمانية.

حاول الباي في تونس النهوض بالبلاد ولكنه اعتمد في ذلك على الديون الأجنبية، إذ كانت فرنسا تمده بالقروض، وهي تعلم أنه سيعجز عن سدها، وهذا ما يفسح لها المجال للتدخل في شئونه، وبالفعل لم يستطع السداد فأرسلت لجنة مالية لمراقبة المالية التونسية، وبعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٦هـ اعترفت فرنسا لإنجلترا بقبرص مقابل الاعتراف لها بتونس.

أمَّا في الجزائر، فبعد عام ٩٤٠هـ كان الإسبان بالأندلس قد قوي أمرهم فبدءوا بالاستيلاء على موانئ البحر المتوسط الإفريقية، وزاد أملهم بحكم شمالي إفريقية، وأخذها من يد المسلمين، بعد الاستيلاء على غرناطة وطرد المسلمين من الأندلس نهائيًّا عام ٨٩٨ هـ، وقامت سفن قراصنتهم تلاحق المسلمين الأندلسيين الذين فروا إلى شمالي إفريقية، فوجدت محاولة رد الفعل ضد الحقد الصليبي، وبدءوا يغيرون على سواحل الأندلس، وجاء العثمانيون بحرًا إلى المنطقة، ورحب المسلمون بهذا المجيء ترحيبًا كبيرًا ما دام القتال مستعرًا بين المسلمين والنصارى.

وبدأ المغيرون يمتلكون سفنًا خاصة يغيرون بها على خصومهم،ومن هؤلاء الأخوان: عروج وخير الدين، وتقرب عروج من السلطان الحفصي فدعمه وقدم له موانئه يتخذها قواعد له، وتمكن من الانتصار على الإسبان في عدد من المعارك البحرية، واستطاع أن يسترجع ميناء بجاية من الإسبان، وهذا ما رفع من شأنه فنقل مقره من تونس إلى ميناء صغير يقع إلى الشرق من مدينة الجزائر، وطلب منه حاكم مدينة الجزائر (سالم السالمي) أن يساعده ضد الغزو النصراني الإسباني فاستجاب لطلبه وصد هجومًا نصرانيًّا على الجزائر عام ٩٢٢ هـ، ثم رأى تفرق الأمراء في المغرب الأوسط وخلاف بعضهم مع بعض فقرر أن يتخلص من هؤلاء الأمراء؛ لكي يتمكن من الوقوف أمام النصارى الأسبان، فبدأ بحاكم مدينة الجزائر فأنهى حكمه وتسلم مكانه،

وأصبحت مدينة الجزائر قاعدته البحرية ومركز حكمه عام ٩٢٣ هـ، ثم اتجه نحو الداخل ليستولي على الإمارات القائمة هناك، وكان أكبرها إمارة بني زيان في تلمسان، وأميرها (أبو حمو) ورعيته يكرهونه؛ لأنه يمد يده إلى النصارى الأسبان، فاتصلوا بعروج فسار إليهم ودخل مدينة تلمسان، غير أن (أبو حمو) اتصل بالأسبان بعد أن فر إليهم فجاءوا بقوة إلى تلمسان وتمكنوا من دخولها، وفتكوا بحاميتها، واستطاع عروج أن يفر، غير أن الأسبان قد لاحقوه وقتلوه.

فأكمل أخوه خير الدين جهاده ضد الصليبيين الأسبان، وفي عام ٩٣٦هـ أصبحت منطقة المغرب الأوسط نيابة عثمانية، وعين الخليفة العثماني خير الدين قائدًا عامًّا للأسطول العثماني؛ مكافأة لما قام به من جهود في الوقوف ضد الصليبيين وخدمة الدولة العثمانية.

الحملات على إفريقيا:

كان الاحتلال البرتغالي لبعض أجزاء إفريقيا يهدف إلى تعقب المسلمين الفارين من الأندلس بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين هناك سنة ١٤٩٢م، كما كان يهدف إلى تطويق العالم الإسلامي واستنزاف ثرواته وقد استعانوا في ذلك بالمملكة المسيحية في الحبشة مما أدى إلى ما يسمى بالكشوف الجغرافية التي لم تكن في حقيقتها إلا صراع دموي مع الإمارات والممالك الإسلامية في شمال القارة وشرقها وغربها، وقد باركت البابوية هذا العمل العدائي ضد المسلمين؛ ولذلك سيرت إسبانيا والبرتغال الحملات إلى إفريقيا، وتلاها في ذلك باقي الدول الأوروبية كإنجلترا وفرنسا وغيرهما بقصد القضاء على حضارة المسلمين والتحكم في المناطق الإستراتيجية بالقارة بغية السيطرة على أجزائها لضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للثورة الصناعية التي قامت في أوروبا، ولم يحدث في التاريخ أن استنزفت موارد قارة بشرية وطبيعية لصالح أوروبا مثل ما حدث لإفريقيا، كما لم يحدث في التاريخ عن قارة قسمت إلى أشلاء ودويلات قزمية بأيدي الأوروبيين مثل ما حدث في إفريقيا عقب مؤتمر التقسيم في برلين عام ١٨٨٤ - ١٨٨٥م الذي حضره مندوبو أربع عشرة دولة هي: النمسا والمجر وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا وهولندا والبرتغال وروسيا وإسبانيا والسويد والنرويج وتركيا والولايات المتحدة وبريطانيا.

وبعد مناقشات بين الوفود تمت الموافقة النهائية على مواد الاحتلال الفعلي على أن تكون في فصل مستقل من المرسوم النهائي.

وهكذا تمَّ في مدينة برلين ومن دون حضور ممثلين عن الدول الإفريقية وضع أسس تقسيم القارة الإفريقية، ذلك التقسيم الذي لم يضع في الاعتبار توزيعات القبائل والعشائر، فحوَّل إفريقيا إلى وحدات قزمية صغيرة أصبحت الأساس للحدود الإفريقية الحالية.

المقاومة الإسلامية في مواجهة الاحتلال:

ساءت أحوال بلاد المغرب في العصر الحديث؛ إذ تعرَّضت بلاده للاحتلال الغربي الذي دمَّر البلاد، وسفك الدماء، وانتهك الحُرُمات، وقسَّم البلاد على النحو الذي أقره الغرب الصليبي في مؤتمر برلين، ولكن قامت حركات مقاومة إسلامية في أغلبها، وقدمت ملايين الشهداء، حتى منَّ الله على هذه البلاد بالتحرير.

ففي عام ١٩١١م تعرضت ليبيا للغزو الإيطالي فقاد المقاومة الإسلامية الشيخ أحمد السنوسي ومعه الشيخ عمر المختار، وعاشت ليبيا مأساة محزنة في ظل الاحتلال الإيطالي حيث اتبع الإيطاليون سياسة الإبادة، وقد بلغ عدد الشهداء الليبيين خلال السنوات العشر الأولى من الاحتلال حوالي سبعين ألف شهيد، وقد عومل السكان أسوأ معاملة فألقي بكثير منهم من الطائرات، وهتكت الأعراض، كما سيق العمال والمجندون إلى الخدمة مع الجيش الإيطالي في الحبشة والصحراء الغربية.

وبعد كفاح مرير ضد الاستعمار حصلت ليبيا على استقلالها عام ١٩٥١م. أمَّا تونس، فبعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٦هـ اعترفت فرنسا لإنجلترا بقبرص مقابل الاعتراف لها بتونس. وفي عام ١٢٩٨ هـ ادعت فرنسا أن قبيلة تونسية قد اعتدت على بعض المواقع الفرنسية، فجهزت حملة واستولت على تونس.

حاربت فرنسا اللغة العربية والفكر الإسلامي وفرضت تعليم اللغة الفرنسية، كما شجعت على التنصير وقامت بقطع المعونات عن المدارس الإسلامية حتى ضعفت وقضي على معظمها، وقد فرضت فرنسا الأحكام العرفية لأكثر من عشرين عامًا. وفي ٨ شعبان ١٣٧٥ هـ/ ٢٠ من مارس ١٩٥٦م حصلت تونس على الاستقلال بعد جهاد طويل.

وفي الجزائر احتل الفرنسيون ميناء سيدي فرج بالقرب من مدينة الجزائر في عام ١٨٣٠م، وبعد الاحتلال لم يستجب الجزائريون للفرنسة وإن كان قد قبلها اليهود الجزائريون، فبطشت الحكومة الفرنسية بمسلمي الجزائر، وحاربت لغتهم العربية والثقافة الإسلامية، وقامت بإغلاق المدارس الإسلامية والكتاتيب، وهدم المساجد وإلغاء القضاء الشرعي والاستيلاء على أموال الأوقاف، كما أهدرت حقوق الشعب وداست مقدساته، فقد دنس جنودها المساجد ونبشوا القبور وأعدموا شيوخًا من الصالحين وغير ذلك من الفظائع.

فظهرت الحركات الجهادية ضد المستعمر الفرنسي، ففي عام ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٠م قاد محيي الدين الحسني انتفاضة القبائل ضد الوجود الفرنسي، وبعد سنتين تولى القيادة ابنه البطل عبد القادر الجزائري وظل يقاومهم حتى أسر عام ١٢٦١ هـ/ ١٨٤٧م، وبقي أسيرًا حتى عام ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م.

وفي عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م قاد حركة الجهاد محمد المقراني الذي انضم إليه مائة ألف مقاتل اكتسح بهم قوات فرنسا في منطقة كبيرة من الجزائر، ودارت بينهم وبين المجاهدين ٣٤٠ معركة، استشهد فيها ستون ألف جزائري، وقتل عشرون ألف فرنسي، وأعدمت فرنسا في أثنائها ستة آلاف جزائري.

وفي عام ١٩٤٥م إبان احتفال الحلفاء بالانتصار على دول المحور في الحرب العالمية الثانية، خرج الجزائريون في مظاهرة يطالبون بالحرية والاستقلال، فاعتدى عليهم الجنود الفرنسيون وحدثت مذبحة رهيبة بلغ عدد شهدائها ٤٥ ألفًا من الرجال والنساء والأطفال، ودفن بعض المثقفين أحياء، ودمرت قرى بكاملها، وحلت كل الهيئات وزجّ بأنصارها في السجون.

وفي عام ١٩٥٤م قامت ثورة التحرير الجزائرية التي استشهد فيها حوالي المليون ونصف المليون شهيد.

وفي ٣ صفر ١٣٨٢ هـ/ ٥ من يوليو ١٩٦٢م أعلن استقلال الجزائر وقامت الدولة الجزائرية.

وفي المغرب احتلت إسبانيا منطقة الريف في عام ١٣٢٢ هـ/ ١٩٠٤م، ولكن السكان هناك قاوموا الاحتلال الإسباني، وانتصروا على المارشال (مارينا) سنة ١٣٢٧ هـ/ ١٩٠٩م، وفي عام ١٣٣١ هـ/ ١٩١٢م ثار السكان وأبادوا الحامية الفرنسية في فاس، وفي عام ١٣٣٦ هـ/ ١٩١٧م أتم الفرنسيون احتلال مراكش، ولكن الوطنيين أوقعوا بهم هزائم كبيرة بقيادة الشيخ الهبة ابن الشيخ ماء العينيين.

وفي عام ١٣٦٣ هـ/ ١٩٤٤م احتل الفرنسيون أكثر وظائف الدولة، كما استولوا على أكثر مصادر الثروة وبخاصة الأراضي الزراعية؛ مما أشاع الفقر والجهل بين الشعب، هذا فضلاً عن تشجيع حركات الانحلال الخلقي بين الشباب، والقضاء على الحركات التحررية، وإثارة روح العصبية بين العرب والبربر.

ومنذ عام ١٣٣٨ هـ/ ١٩٢٠م قاد الأمير عبد الكريم الخطابي الجهاد ضد الأسبان، وبعد وفاته حمل راية الجهاد ابنه القاضي محمد الذي التقى عام ١٣٣٩ هـ / ١٩٢١م بالأسبان وهزمهم، واعترف الأسبان بخسارة خمسة عشر ألف جندي قتيلاً و٥٧٠ أسيرًا.

وفـي عـام ١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٣م قتـل أكثـر مـن أربعـة آلاف مغربـي حينمـا أعلـن حـزب الاستقلال المغربـي والاتحـاد النقـابي الإضـراب العـام، واعتقلت فرنسا السلطان محمد الخامس. وفي عام ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٥م عاد السلطان واستقلت المغرب (مراكش)، أمـا الجيوب الإسبانية كمدينـة سبتة ومليلة فما زالتا تحت الاحتلال الإسباني.

كانت هذه هي قصة المغرب منذ دخول الإسلام إليه وحتـى التحـررٍ من الاستعمار الغربـي فـي القرن العشرين، ونأمل أن يعود المغرب قوةً إسلامية كبيرة مرةً أخرى؛ ليضيف إلى قوة الأمة الإسلامية.

الفصل الرابــع
اعتناق المغاربة(إخواننا البربر الأمازيغ) للإسلام

ظهـرت أول دولــة إسـلامية بــالمغرب هــي دولــة الأدارســة سـنة ٧٨٨م: وقد كـان مؤسـس هذه الدولـة حفيد الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم هو إدريس بن عبد الله الكامل (٧٨٨-٧٩٣ م) بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول محمد بـن عبد الله، نجا بنفسه من المذبحة الرهيبة التي ارتكبها الجيش العباسي في موقعة فخ في مكة المكرمة، والتي أقامها العباسيون للعلويين سنة ٧٨٦ م وتوفى كثير من ال البيت فيها . فر إلـى وليلـي (بـالمغرب). تمت مباعيتـه قائـدا وأميرا وإماما من طرف قبائل الأمـازيغ فـي المنطقـة. وسـع حـدود مملكتـه حتـى بلـغ تلمسـان (٧٨٩ م). ثـم بـدأ فـي بنـاء فـاس. قـام الخليفـة العباسـي هارون الرشيد بتدبير اغتياله سنة ٧٩٣ م. لـإدريس الأول (مولاي إدريس في المغرب) مكانة كبيرة بين المغاربة ويعتبر ضريحه بـالقرب مـن وليلـي بزرهون (أو مولاي إدريس زرهون اليوم) مزاراً مشهوراً.

إدريس الأول أو مـولاي ادريس هـو إدريس بـن عبـد الله الكامـل بـن الحسـن المثنـى بـن الحسـن بـن علـي بـن أبـي طالـب وفاطمـة الزهـراء بنـت الرسول محمد بن عبد الله، ولد سنة ١٢٧ هـ،أمه عاتكة بنت عبد الملـك بـن الحرث الشاعر بن خالد بن العاص بن هشـام بـن المغيـرة المخزومـي. فهـو إذن، قرشي من الأبوين، ومنزلته وجيهة في الأسـرة العلويـة. كـان إدريس الأول مُؤسس أول دولة إسلامية بالمغرب.

الحركة العلوية:

منذ أن تولى العباسيون الخلافة سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م، أصـبح أبنـاء عمهم العلويون في نزاع شديد معهم، لأنهم اعتبروهم غاصـبين للمنصـب الأعلـى فـي الدولـة الإسـلامية وأن الحـق فـي توليـه يرجـع إلـيهم بالأسـبقية. فصاروا يتحينون الفرصة للثورة عليهم.

كـان أول مـن تـزعم الحركـة محمـد بـن عبـد الله بـن الحسـن، المـدعو النفس الزكية الذي ثار بالمدينة، لكن الخليفـة العباسـي أبـا جعفـر المنصـور قضـى علـى ثورته سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ كما قضـى علـى الثـورة الموازيـة لهـا التي قادها أخوه إبراهيم بالبصرة في نفس السنة، وكان محمد النفس الزكية فكر في تبليغ الدعوة إلى كل الأقاليم الإسلامية شرقا وغربا، آملا في كسب المزيد من الأنصار للقضية، فوجه بعض إخوته، ولعـل مـنهم إدريس، إلـى بلدان إسلامية مختلفة.

وبعد مرور أربع وعشرين سنة على هاته الثورة أي في سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٦، قامت ثورة أخرى بقيادة الحسين بن علي بن الحسن المثلث في ناحية مكة بمكان اسمه فخ. ولم تنجح هاته الثورة بدورها حيث قضى عليها الخليفة الهادي ابن المهدي في معركة كانت شديدة وقتل فيها كثير من العلويين.استطاع إدريس، عم الحسين، وأخو محمد النفس الزكية. أن ينجو من القتل ويفر من المكان باحثا عن ملجأ يأوي إليه. فكم يكون سنه يومئذ ؟ لا تسعفنا المصادر بجواب واضح عن هذا السؤال. ولكن إذا صدقنا ما أشار إليه البعض منها من كونه ساعد أخاه محمد النفس الزكية، فيمكننا أن نقدر سنه بين الأربعين والخمسين عند نشوب موقعة فخ.

كانت أنظار العلويين، وهم في حالة المراقبة والاضطهاد التي يعانون منها، تتجه بالخصوص إلى المغرب، لبعده عن مركز الخلافة العباسية ولاشتهاره برفع راية العصيان والمعارضة لتلك الخلافة. وقبل العلويين اتجهت أنظار الخوارج لنفس المنطقة. وأمكنهم أن يؤسسوا بها دولتين مشهورتين في تاهرت وسجلماسة، مما يدل على أن البلاد كانت مرشحة لتكون مركزا لثورة مضادة وربما لقيام خلافة مناهضة للخلافة العباسية.

وأدت الدعوة والاتصالات إلى نتائج إيجابية في أمد قصير، مما يدل على ذكاء، إدريس ودهاء مولاه راشد وهكذا لبت جملة من قبائل البربر الدعوة وقبلت أن تلتف حول إدريس. ولا شك أن انتماءه للأسرة النبوية كان له أثر قوي في هذا الإقبال، سيما والعلويون يومئذ كانوا يمثلون العنصر الثائر والمعارض. فالارتباط بدعوة إدريس معناه التحرر من كل تبعية للخلافة العباسية وضمان الاستقلال السياسي للمغرب.

وترتب عن هذا الموقف الجماعي لقبائل البربر أن حصل اتفاق بين إدريس بن عبد الله وزعيم أوربة القبيلة ذات الشوكة في المنطقة، إسحاق محمد بن عبد الحميد الأوربي. وتحول إدريس إلى مدينة وليلي، حيث تمت بيعته يوم الجمعة ٤ رمضان سنة ١٧٢ هـ الموافق ٦ فبراير ٧٨٩ م. وكانت قبيلة أوربة أول من بايعه من قبائل المغرب، نظراً لمنزلتها الكبرى في المنطقة. ثم تلتها قبائل زناتة وأصناف من قبائل أخرى مثل زواغة وزواوة ولماية وسدراته وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة الخ. وكان للقبائل في ذلك العصر أهمية أكبر من اليوم، نظرا لكون البادية كانت أكثر سكاناً من المدن ولكون ظاهرة العصبية كانت ذات تأثير خطير، على المستوى السياسي.

ويحدد القرطاس شروط البيعة، إذ يقول: "بايعوه على الإمارة والقيام بأمرهم وصلواتهم وغزوهم وأحكامهم". وكان الحدث في حد ذاته ذا أهمية قصوى في تاريخ المغرب لأنه يرمز إلى قيام الدولة المغربية المستقلة لأول مرة في حياة البلاد، بحيث كانت الدولة الإدريسية بما خلقته من تقاليد ونظم لتسيير البلاد أول صورة لدولة حقيقية في المغرب تكيف المعطيات البشرية المحلية مع تعاليم الإسلام وتراثه السياسي.

وما أن بويع إدريس حتى كون جيشا من قبائل زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة وقاده لفتح أقاليم مغربية أخرى وتوسيع مملكته. فاستولى على شالة، ثم على سائر بلاد تامسنا وتادلا. وعمل على نشر الإسلام بها. ثم عاد بجيشه إلى وليلي في آخر ذي الحجة من سنة ١٧٢ هـ. وتوقف مدة قصيرة بقصد إراحة الجنود.

ثم خرج في سنة ١٧٣ هـ لمواصلة نشر الإسلام بالمعاقل والجبال والحصون المنيعة، مثل حصون فندلاوة وحصون مديونة وبهلولة وقلاع غياثة وبلاد فازاز أي الأطلس المتوسط. وتوصل إلى نتائج إيجابية عند قيامه بتبليغ الدعوة، حيث استجاب السكان لدعوته بالقبول. ثم عاد من حملته العسكرية تلك في جمادى الأخيرة سنة ١٧٣ إلى مدينة وليلي بقصد إراحة جيشه.وفي نصف رجب من السنة ذاتها (٨ دجنبر ٧٨٩)، توجه إدريس بجيشه صوب الجهة الشرقية من المغرب الأقصى، فوصل إلى مدينة تلمسان وخيم قبالتها. فخرج إليه أميرها محمد بن خزر بن صولات المغراوي فطلب منه الأمان، فأمنه إدريس، فقدم له محمد بن خزر بيعته، ودخل إدريس إلى تلمسان بعد أن بايعته قبائل زناتة بتلك الجهات.

ضريح إدريس الأكبر مولاي إدريس زرهون هكذا حصل إدريس على نتائج كبيرة في أقل من سنتين، بفضل جده ومثابرته وشجاعته، وأصبح يضم تحت سلطته مملكة تمتد من تامسنا غربا إلى تلمسان شرقاً، مارة بتادلا والأطلس المتوسط. كل هذا أثار مخاوف الخليفة هارون الرشيد، سيما وهو يلاحظ أن إدريس في تحركاته العسكرية الأخيرة أخذ يتجه نحو الشرق وبات يشكل خطرا وشيكا على ولايتها الأمامية في المغرب: أفريقية، التي كانت يومئذ في وضع قلق وتعاني من اضطرابات مختلفة. فلم ير الرشيد بدا من التخلص من إدريس بأية وسيلة.

ولا فائدة من الدخول في تفاصيل الرواية المتداولة عن اغتيال إدريس عن طريق السم التي وقع فيها بعض الاختلاف والزيادات القصصية. والمهم في ذلك هو أن الرشيد لما رأى صعوبة توجيه جيش من العراق إلى المغرب وأدرك أنه لا يستطيع أن يعتمد كثيرا على جيشه بأفريقية، قرر اللجوء إلى أسلوب الاغتيال على يد رجل ماهر في الكذب

والتلبيس والجاسوسية. كما يحدث إلى يومنا هذا في قضايا الاغتيال السياسي. وبمساعدة إبراهيم بن الأغلب الذي كان من الرجال الثقاة عند الرشيد على الصعيد المحلي وكان مرشحاً لتولي منصب الولاية على أفريقية. هل الشخص المكلف بهاته المهمة كان هو الشماخ أو سليمان بن جرير؟ سؤال يستحيل الجواب عليه. وكل ما يمكن تأكيده هو أن ذلك الشخص تمكن من اغتيال إدريس عن طريق السم سنة ١٧٤ هـ / ٧٩١، وكان عمره ٤٧ سنة. تلك، على وجه الإجمال، هي ترجمة إدريس الأول الذي أصبح شخصا مقدساً عند المغاربة له ضريح كبير في مدينة زرهون، يقام له فيه موسم كبير في كل سنة.

ضريح إدريس الأكبر مولاي إدريس زرهون:

إدريس الثاني أو إدريس الأزهر، هو إدريس الأزهر بن إدريس (الأول) بن عبد الله الكامل ثاني حاكم مسلم للمغرب.

لا شك أن هارون الرشيد بات مطمئناً من جهة العلويين بعد تدبير اغتيال إدريس الأول سنة ١٧٧ / م٧٩٣، لاعتقاده بأن نسل الأدارسة انقطع من المغرب. ولكن إدريس ما توفي حتى ترك جارية له اسمها كنزة حاملاً. وتربص راشد مولاه ومن حوله من البربر حتى يروا المولود المنتظر فإن كان ذكراً ولوه مكان أبيه وإلا اختاروا لأنفسهم ما يليق بهم.

وحالف الحظ الأسرة العلوية، إذ وضعت كنزة ولدا ذكراً يوم الاثنين٣ رجب ١٧٧ (١٤ أكتوبر ٧٩٣) ضمن للأسرة الإدريسية استمرارها،وهي الأسرة الكبيرة التي سيلمس وجودها في كثير من منعطفات تاريخ المغرب، قديمه وحديثه. ويُفيض القرطاس في ذكر تربية إدريس وتكوينه، فيصفه بأنه كان "عارفا بالفقه والسنة والحلال والحرام وفصول الأحكام ". ولا شك أن راشداً مولاه سهر على ذلك التكوين، لأن ترشيحه لمنصب الإمامة كان يقتضي معرفة مدققة بالعلوم الدينية واللغة العربية حتى يكون منافساً عن جدارة واستحقاق للخلفاء العباسيين المعاصرين. وهو ما يؤكده نفس المصدر متحدثاً عن دور راشد: "وأقرأه القرآن فحفظه وله من السنين ثمانية أعوام، وعلمه السنة والفقه والنحو والحديث والشعر وأمثال العرب وحكمها وسير الملوك وسياستها وعرفه أيام الناس ودربه مع ذلك على ركوب الخيل والرمي بالسهام ومكايد الحرب".

وهذا التكوين جدير بأن يثير اهتمام المؤرخ للسبب الذي ذكرنا ولسبب آخر هو أن إدريس نشأ بين قوم كانوا ما زالوا حديثي عهد بالإسلام وكانت بضاعتهم من العربية قليلة. فكان الحفاظ على الدين يتطلب أن يكون الإمام ذا علم وثقافة متينة. كما أن شعوره بهويته كفرد من آل البيت كان يقتضي مثل ذلك التكوين.

ولم يتول إدريس الثاني، بالطبع، مهام الإمامة أثناء هاته الفترة من طفولته، بل ظل تحت وصاية مولاه راشد الذي اغتيل سنة ١٨٨. فتولى حينئذ مهمة الوصاية أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي. فسارع بأخذ البيعة من جميع قبائل البربر في ١ ربيع الأول سنة ١٨٨ (١٦ فبراير ٨٠٤ م) لإدريس وهو ابن إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر. وقد اعتمدنا أشهر الروايات في ذكر هاته التواريخ لأن هنالك اختلافات بين المصادر.

والظاهر أن إدريس لم يبتدئ بمباشرة شؤون الدولة بنفسه إلا بعد سنة ١٩٠. فالمصادر لا تذكر له أي عمل بَيِّن قبل ذلك التاريخ الذي بدأ يعمل فيه من أجل نقل عاصمة دولته من وليلي إلى فاس. وكل ما يمكن الإشارة إليه هو أن صمود الدولة الفتية للمكايد والصدمات أكسبها سمعة في جهات متعددة من بلاد الإسلام. فاتجهت إليها الأنظار وقصدتها الوفود والمهاجرة من أفريقية والأندلس بالخصوص فيذكر القرطاس هجرة خمسمائة فارس من القيسية والأزد ومدلج وبني يحصب والصدف وغيرهم. **وترتب عن تلك الهجرة نتيجتان**

١. إدخال العنصر العربي للدائرة المحيطة بإدريس لأنه ״كان فريداً بين البربر ليس معه عربي״. حسب تعبير القرطاس.

٢. تضخم عدد السكان بمدينة وليلي الشيء الذي دفع بإدريس ومستشاريه إلى التفكير في الانتقال إلى فاس.

هل كان إدريس الثاني هو المؤسس لمدينة فاس كما تؤكد ذلك رواية القرطاس أم الذي بدأ بتأسيسها هو إدريس الأول كما تؤكده حجج تاريخية أخرى لا سبيل لتجاهلها ؟ الظاهر من البحث التاريخي الحديث أن إدريس الثاني إنما كان مؤسسا لمدينة ثانية تحاذي المدينة الأولى وهي عدوة القرويين التي استقر بها مهاجرة أفريقية من مدينة القيروان وهي المدينة المدعوة العالية في مجموعة من الدراهم حدث سكها بعد بيعة إدريس الثاني. وقد شرع في بناء عدوة القرويين في ١ ربيع الأول ١٩٣ (٢٢ يناير ٨٠٩ م). وعن تفاصيل هذا الموضوع التاريخي الهام من الأفضل الرجوع إلى مادة فاس في معلمة المغرب.ولعل القالب الجديد الذي دخلت فيه الدولة الإدريسية بتوافد عدد كبير من العرب إليها وخروجها شيئا فشيئا من الروابط القبلية الأولى التي شاهدت ميلادها أحدث نوعا من الاستياء لدى قبيلة أوربة القوية. فإذا أضفنا إلى ذلك الدسائس التي كان يدبرها ابن الأغلب لإضعاف الدولة الإدريسية إن لم يكن للقضاء عليها، والتي منها إثارة التنافر بين إدريس والبربر لأسباب عرقية، فهمنا كيف تعرضت الدولة آنذاك لبعض المشاكل التي لم يمكن حسمها إلا بالقوة. وقد ربط ابن الأغلب خيط الاتصال مع إسحاق الأوربي الذي كان من

المؤسسين الأوائل للدولة، وحرضه على إدريس الثاني، متذرعا بميل هذا الأخير إلى الوافدين العرب الجدد. فأثار حفيظة إسحاق وقومه، الذين أخذوا يتآمرون عليه. فما كان من إدريس إلا أن تصدى للمتآمرين بقمعهم وقتل زعيمهم إسحاق سنة ١٩٢هـ.

والظاهر أن إدريس لم يكن يريد استبعاد أوربة أو الاستغناء عنهم، كما يفهم من تأويل القرطاس لأنه رغب من بعد في استمالتهم من جديد. وإنما كان قصده أن يحول دولته من الإطار القبلي إلى الإطار الإسلامي بالاعتماد على مساعدين لهم علم وخبرة بالنظم الإسلامية وتقاليدها. ولذلك، فإنه اتخذ من عمير بن مصعب الأزدي وزيرا له، ويذكر عنه القرطاس أنه ينتمي لأسرة عريقة في خدمة الدولة الإسلامية. كما عين عامر بن محمد القيسي، قاضياً "وكان رجلاً صالحاً ورعاً فقيهاً سمع من مالك وسفيان الثوري وروى عنهما كثيراً" واتخذ من عبد الله بن مالك الخزرجي الأنصاري كاتباً له. ولا شك أن هناك أسماء أخرى غفلت عن ذكرها المصادر.

ومن المعلوم أن الأدارسة قاموا بمناوأة الخلافة العباسية. فكان لا بد لهم من أن ينظموا دولتهم على غرارها وأن يتخدوا لأنفسهم دواوين يضعون على رأسها رجالا ذوي خبرة وسمعة في المجتمع الإسلامي المعاصر. وطبيعي أن لا تروق هذه السياسة أنصار الدولة الأولين من أوربة وغيرهم وأن تحدث من جراء ذلك مصاعب وأن يحاول ابن الأغلب استغلال التناقضات التي برزت في صفوفهم. وليس من المستعبد أن يكون القيروانيون الذين غادروا أفريقية وقصدوا إدريس من العناصر المعارضة للخلافة العباسية ولولاتها الأغالبة، وهذا ما زاد في حنق إبراهيم على إدريس ودفعه إلى الكيد به.

وتجلى ذلك في خطة لا تخلو من أسلوب الجاسوسية، إذ أخذ يتصل سراً بأقرب رجل إلى إدريس بهلول بن عبد الواحد المدغري، الذي كان وزيره المخصوص بثقته و"ا القائم بأمره" فأخذ يوغر صدره على إدريس ويزين له الثورة عليه ويغريه بالمال ويحثه على "ترك طاعة إدريس إلى طاعة هارون". وعلى إثر مراسلات عديدة بين الرجلين، تخلى بهلول عن إدريس والتحق بالقيروان عند ابن الأغلب الذي عد الحدث انتصارا وطير به الخبر إلى الرشيد في بغداد.حاول إدريس عبثا أن يستعيد ولاء بهلول إليه، فتضايق من دسائس ابن الأغلب وكتب إليه يستعطفه ويرجوه أن يكف عنه. والظاهر أن حاشية ابن الأغلب كانت تضم عناصر يعطفون على آل البيت وينصحون أميرهم بالاعتدال والكف عن إذاية إدريس.

وفي نفس السياق، يمكننا أن نتساءل عن مصير شخص آخر مهم وهو أبو خالد يزيد العبدي الذي رأيناه يحل محل راشد في الوصاية على عرش إدريس. والظاهر أن أيامه لم تطل في الوفاق مع هذا الأخير بعد أن تسلم مقاليد الأمور.كل هاته المشاكل لا يصح إلقاء المسؤولية فيها كاملة على الأشخاص، بل هي ناشئة، قبل كل شيء، عن مشروع مهم وجديد، ألا وهو المحاولة الجريئة التي تصدى لها كل من إدريس الأول وإدريس الثاني ألا وهو بناء دولة كبيرة بالمغرب على النسق الإسلامي. وطبيعي أن يصطدم مشروع كهذا بنظام اجتماعي متقادم مبني على القبلية وبعادات وأعراف وعقليات مختلفة عن التصور الجديد الذي أتى به الإسلام.

ومع ذلك، فقد نجح المشروع إلى حد كبير إذا اعتبرنا أن نموذج الدولة الإسلامية بالمغرب انطلق من تلك التجربة الأولى وأن المغاربة سيستوعبون درسها جيدا بعد أن خرجوا من طور المفاجأة الأولى.

وتشير الروايات التاريخية، من جهة أخرى، إلى أن إدريس تحرك هو، أيضا، بجيشه لتوطيد نفوذ دولته بالمغرب، وتجاوز الحدود التي كان قد وصل إليها والده. فتقدم نحو الأطلس الكبير، واستولى على مدينتي نفيس وأغمات وأقام نفوذ الدولة في بلاد مصامدة الجنوب، وكان ذلك في سنة ١٩٧ / ٨١٢. ثم اتجه بعد ذلك إلى الشرق نحو نفزة وتلمسان التي دخل إليها وأنجز فيها بعض البناءات وأقام بها ثلاث سنين.

وتؤكد لنا دراسة البقايا من النقود الإدريسية الأماكن التي بلغ إليها نفوذ الدولة في عهد إدريس الثاني، وهي الأماكن التي وجدت بها دور السكة. إذ نجد عددها يبلغ ستة عشر وفيها مدن مثل أصيلا والبصرة وتدغة وتلمسان وتهليت وسبو وطنجة والعالية (فاس) ومريرة (مريرت الحالية). وورغة ووازقور (ناحية أم الربيع) وطيط ووليلي وايكم. هذه الأسماء تدلنا، ولو نسبيا، على مدى اتساع المملكة التي كان يحكمها إدريس الثاني، وتبين لنا أن هذا الأمير كان يسير بخطى وئيدة في تنفيذ خطة أبيه الذي كان يهدف إلى تأسيس دولة كبيرة ينافس بها دولة العباسيين.

إلا أن هؤلاء كانوا واعين بخطر الأدارسة وحذرين منه أشد حذر، ولذلك، فإنهم ظلوا يحرضون الأغالبة على الكيد لهم. وهكذا مات إدريس فجأة في ١٠ جمادى الآخر سنة ٢١٣ (٢٩ غشت ٨٢٨) في العهد الذي كان فيه زيادة الله بن الأغلب واليا على أفريقية، وكان سن إدريس عند وفاته ستا وثلاثين سنة.ولئن ذكر القرطاس أن سبب موته هو أنه شرق بحبة عنب، فإن مصادر أخرى مثل البكري وابن عذاري تذكر أنه مات مسموماً. بل إن ابن الأبار يؤكدأن "زيادة الله احتال عليه حتى اغتاله " الحلة السيراء.

وبموت إدريس ينتهي طموح الأدارسة إلى تأسيس دولة قوية موحدة، ويدب إليهم الانقسام والتشتت شيئا فشيئا. فتبدأ صفحة غير وضيئة في تاريخهم. توفي إدريس الثاني سنة ٢١٣ هـ وترك من الولد اثنى عشر ة تولى منهم محمد ففرق البلاد على اخوته واستمالوا القبائل.

الفصل الخامس
الفتح الإسلامى لبلاد المغرب العربى

أهم ما يبرز في الكتابات العربية الكلاسيكية حول تحديد بلاد المغرب هو التضارب بين هذه الكتابات حول منطقة جغرافية مضبوطة من حيث التحديد المفهومي: "بلاد المغرب" لكنها تظل غامضة من حيث المضمون الدلالي، وتبرز صعوبة وضع حدود مضبوطة كأهم إشكالية تعرقل هذه الدلالة. لذا ننوه منذ البداية إلى أن مفهوم "الحدود" وتطوره عبر التاريخ يحتاج لدراسة مفصلة مختصة، حتى نتمكن من استيعاب بلاد المغرب (كوحدة يقصد بها التجانس)، وتطور الحدود بين بلدانها المختلفة (الأدنى – الأوسط – الأقصى) .

فقبل المؤرخين العرب، كان اليونانيون يطلقون اسم الليبيين – ومن ثم منطقة ليبيكا – على مجموع سكان أفريقيا المنتمين للجنس الأبيض، أي من غرب مصر إلى المحيط الأطلنتي، بينما ميز الرومانيون، لاحقا، بين إقليم قرطاجة، وإقليم نوميديا، وبلاد المور غرباً، وأطلقوا اسم الجيتوليين على سكان الجنوب الرحل .

ومع مجيء العرب للمنطقة أطلقوا عليها اسم "بلاد المغرب" حتى تتم المقابلة بينها وبين البلاد الأخرى أي "بلاد المشرق" (علماً بأن العرب عودونا على مثل هذه المقابلة، مثلا: بلاد السودان مقابل بلاد البيضان) لكن ما بلاد المغرب هذه وما هي حدودها؟

لا شك أن لفظ المغرب يفهم منه مباشرة الجهة التي تغرب إليها الشمس، ومن ثم يمكن لأي شخص أن يحدد جهة المغرب تبعاً للموقع الجغرافي الذي يشغله، ها هنا يمكن أن نضع الفصل الذي كتبه ابن خرداذبه بعنوان «الطريق من مدينة السلام إلى المغرب» وكذا ما سجله قدامة بن جعفر عندما كتب «ثم لنأخذ في تبيين الطريق من مدينة السلم إلى أكناف المغرب ونواحيه». فالرجلان، وبحكم وجودهما ببغداد، يجعلان المغرب كل ما يقع غرب هذه المدينة، إلا أنهما يميزان جيدا بين المغرب كجهة من الجهات الأربع، وبلاد المغرب التي نحن بصدد البحث عن مضمونها الدلالي .

يكتب ابن خرداذبه عدة صفحات يخصصها «للطريق من برقة إلى المغرب» نفهم منها أن برقة هي الحد الفاصل بين مصر وبلاد المغرب، التي يدرج ضمنها الأندلس أيضا، بينما يكتب ابن جعفر (ص٢٦٥) بأن

أول ثغور الغرب «افريقية وهي المسمى (كذا) القيروان» وهو يتوقف عندها (القيروان) ولا يصف ما يقع غربها، وكأنه يعلن ضمنيا بأن هذه المناطق قد خرجت عن دار الخلافة، فهي لا تدفع الخراج للخلافة بالمشرق، وبالتالي فلا حاجة لوصفها.

قبل ذلك كان ابن عبد الحكم والبلاذري قد أقصيا فعلا مصر من حدود بلاد المغرب، فقد ذكر الأول (١٩٦٤ ص٢٨) بأن الحد بين المنطقتين هو لوبية ومراقية (بين الإسكندرية وبرقة) «وهما كورتان من كور مصر الغربية». بينما ذكر الثاني (١٩٨٧ ص٣١٤) بأن عمرا بن العاص لما فتح الإسكندرية «سار في جنده يريد المغرب»، لكنه لا يحدد بدقة الفاصل بين الإقليمين، وهو الإشكال الذي يصادفنا أيضا عند معالجة بعض نصوص الطبري (١٩٩١ ج٢ ص٥٩٧).

وعلى حين يذكر ابن حوقل (١٩٧٩ ص٦٥) صراحة بأن الأندلس «جزيرة... في جملة المغرب»، يضيف إليها القيرواني (١٩٩٠ ص٧) أرض السودان أيضاً، يكتب صاحب الاستبصار (١٩٨٥ ص١٠٩) بأن بلاد المغرب تحدها شرقا الإسكندرية وغربا البحر المحيط دون إدخال الأندلس، رغم أنها كانت جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية الموحدية إذاك، وقبله كان الإدريسي (م١ ص٣٢٢) قد رسم الحدود بين مصر والمغرب في بلاد الواحات، وهو التحديد الذي استهوى الحميري (١٩٨٤ ص٥٥) فتبناه أيضاً، وإن أضاف (ص٣٢) بأن «الأندلس آخر المعمور في المغرب». بينما يفصل النويري (١٩٨٤ ص١٧٣) جيدا بين الأندلس والمغرب، فيكتب مثلا: «الباب السادس من القسم الخامس من الفن الخامس في أخبار أفريقية وبلاد المغرب» وكان قد خصص باباً للأندلس وحدها (ص٥٥). ثم نقرأ عند ابن عذاري (١٩٨٠ ج١ ص٥) بأن «حد المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية... إلى آخر بلاد المغرب، وحده مدينة سلا» ثم يستأنف حديثه فيقول: «وصار المغرب كالجزيرة دخل فيه بعض أعمال مصر، وأفريقية كلها والزاب والقيروان والسوس الأدنى والسوس الأقصى، وبلاد الحبشة، ومنها يتفرع نيل مصر» (ص٦) ثم لا يلبث أن يستدرك «وبلاد الأندلس أيضا من المغرب» (ص٦)، دعوة تجد صداها عند القرماني (ص٣٢٦) الذي يوافق على أن «الأندلس جزيرة كبيرة بالمغرب» لكنها لا تلاقي استحساننا من طرف ابن خلدون (١٩٧١ ج٦ ص١٠١) الذي أقصى الأندلس ومصر وبرقة ولم يعدها من بلاد المغرب، وهو التحديد الذي أثر على ابن سعيد فتبناه في كتاب الجغرافيا (١٩٨٢ ص١٢٣).

يأتي الوزان أخيراً (١٩٨٠ ج١ ص٢٥)، ليشكك في كل ذلك عندما يذكر بأن «العرب لا يكادون يعتبرون أفريقيا سوى ضاحية قرطاجة نفسها، بينما يطلقون اسم المغرب على سائر أفريقيا»، وأفريقيا هذه، التي تساوي المغرب عنده، هي الواقعة بين بلاد النيل وأعمدة هرقل، بإضافة السودان وبغض النظر عن الأندلس.

ونحن نتصفح هذه الكتابات ندرك مدى اللبس والارتباك الذي تردد فيها: لقد حاولنا ترتيبها كرونولوجيا حتى نضع أصبعنا على تطور المفهوم، لكننا وجدنا خلطاً كبيراً بين هذه المصادر، وأحياناً كثيرة بين مصدرين يعاصران بعضهما، مما جعلنا في حيرة من أمرنا حول مضمون بلاد المغرب في الإيستوغرافيا العربية، وهي حيرة نلمسها أيضاً عند القبلي.

عندما عرض لمفهوم بلاد المغرب أثناء معالجته موضوع التجارب الوحدوية الوسيطية بالمغرب الكبير، وهو ما دعاه لأن يضع ثلاث مستويات لتحديد هذا المفهوم: مستوى ديني يضع دار الإسلام مقابل دار الحرب، ومستوى جغرافي حضاري يضم الأندلس وبلاد السودان ويقف شرقاً عند حدود مصر، ثم مستوى ثالث عصبي عرقي اعتمادا على العصبيات النازلة أو الحاكمة لإقليم أو منطقة ما.

وإذا كان المستوى الأول، الديني، مرفوض في رأينا لأنه لا يتعلق ببلاد المغرب وحدها وإنما كل دار الإسلام، والمستوى الثالث، العصبوي، مرفوض أيضا لأن تحديد بلاد المغرب اعتمادا على العصبيات أمر يطرح أكثر من إشكال نظرا لتداخل هذه العصبيات، فإن المستوى الثاني، الجغرافي/الحضاري، الذي يهمنا أكثر مرفوض بدوره، لأنه انطلق من التحديد المجالي الذي رسمه القبلي لموضوعه، وليس من التحديد الذي يرد في الإيستوغرافيا العربية، مما يجعل الإشكال قائما من جديد.

فما يبدو متفقا عليه من الناحية الذهنية، هو في الواقع مثار نزاع شديد من ناحية المضمون: إن كل دراسة محدثة تتناول بالبحث هذا المجال الرحب "بلاد المغرب" (الرحب ليس من الناحية الجغرافية فقط، وإنما الإبستيمولوجية أيضاً) وتجزم بوضع حدود مضبوطة له، تكون قد انطلقت، في الواقع،من قناعات ذاتية تعكس فكر الباحث والوجهة التي يريد أن يوجه لها موضوع بحثه وليس من مفهوم "بلاد المغرب" كما يرد في الإيستوغرافيا العربية الكلاسيكية.

وضعية التمدين ببلاد المغرب قبل مجيء الإسلام:

يذكر الناصري (١٩٥٤ ج١ ص٧٤) أنه زمن خلافة عمر بن الخطاب «قدم عليه ستة نفر من البربر محلقين الرؤوس واللحى... فسألهم: ألكم مدائن؟ قالوا: لا...»، ولإضفاء الشرعية على روايته يذيلها الناصري بحديث نبوي يؤكد هذا المضمون: فهل المقصود بالبربر هنا جماعة البدو الرحل، أم جهة معينة من بلاد المغرب، أم الرواية كلها من نسج خيال لاحق يريد إشراك البربر في الإنجازات الضخمة التي حققها إسلام الفترة؟

ما يبدو من خلال الحديث الوارد في الرواية، والذي لم نعثر له على أثر ضمن كتب الحديث المختصة، أن مجال هؤلاء النفر الستة هو "بلاد المغرب"؟ فهم «قوم من المغرب ليس لديهم مدائن ولا حصون ولا أسواق» وما يعقد الأمر أكثر هو أن هؤلاء الستة «كانوا من أفخاذ شتى»، وعلى كل حال فقد حسم الناصري أمر هذا اللغز عندما ختم حديثه بقوله: «...والله أعلم»؟

ما الذي جعل الناصري يطمئن لرواية تنفي صيغة التمدين عن بلاد المغرب قبل مجيء الفاتحين المسلمين: أهو مجرد النقل الذي أنكره ابن خلدون منذ مدة طويلة على المؤرخين؟ (علماً بأن ابن خلدون نفسه كتب فصلا في مقدمته بعنوان: في أن المدن والأمصار بأفريقية والمغرب قليلة)، أم أن المدن المغربية كانت قد انجرفت فعلا لوضعية مزرية قبيل مجيء الإسلام للمنطقة؟ وهو ما نفهمه من إشارات متفرقة في بعض الكتابات المعاصرة: فسعد زغلول (١٩٦٥ ص٨٧) يذكر أن النصوص العربية تسكت نهائياً عن المدن الساحلية من برقة إلى طرابلس وهي أجدابية وسرت ولبدة، «ولا شك أن هذه المدن كانت خاملة مغمورة في ذلك الوقت»، بينما يتحدث جوليان (١٩٨٣ ج٢ ص٩) عن ردة تراجعية عرفتها المدن البيزنطية بشمال أفريقيا: فإذا كان بربر البوادي قد ألفوا حياتهم المستقلة، فإن البربر "المترومنين" بالمدن والقرى كانوا يتباعدون عن أسلوب في الحياة «طالما أحبته نفوسهم». وربما تعزى بداية هذه الردة للتخريب الذي عرفته بعض مدن المنطقة منذ مرور الوندالبين بها رغم أن البيزنطيين حاولوا تجديد الليمس الروماني، لكنه تراجع كثيرا عن سابقه: فما هي إذن أهم التطورات التي عرفتها مدن المنطقة إلى غاية مجيء الفاتحين المسلمين.

نعرف انطلاقا من أبحاث الأركيولوجيا أن منطقة الشمال الأفريقي الغربية لم تكن سباقة لحركة التمدين، وأن هذه الحركة انطلقت أصلاً من الشرق الأوسط منذ الألف ٨ ق م ، وأنها انبثقت عن القرى الأولى التي

كونها الإنسان، خاصة بلاد الرافدين، ونضجت هذه المدن في الفترة الممتدة ما بين ٨٠٠٠ ق. م، و٣٠٠٠ ق. م، ببلاد الميزوبوتاميا منذ المرحلة السومرية، وعلى ذلك فإن بلاد المغرب قد "اقتبست" مدنها انطلاقا من احتكاكها بالعالم الخارجي، وخاصة الشرق أوسطي – على الأقل في مرحلتها التأسيسية الأولى – وقد أشار أوعشي (ج١ ص١٠٢) أثناء بحثه عن أصل أهالي شمال أفريقيا إلى الشبه الكبير في النمط الهندسي المعماري بين شبه جزيرة العرب (بلاد اليمن) وبين أفريقيا الشمالية، أي بين القصور الصحراوية والحصون اليمنية، وهو ما كان ابن بطوطة قد تنبه إليه في رحلته أيضاً.

وبغض النظر عن إمكانية الاحتكاك هذه، فإن الأكيد هو أن الفينيقيين عندما وصلوا المنطقة أسسوا فيها مراكز تجارية سرعان ما تحولت إلى مدن (بروديل١٩٨٥ ص٨٣...)، وهو ما قام به القرطاجيون أيضاً، فالنص الذي يؤرخ لرحلة حانون (١٨٨٩) يعلن منذ البداية بأن هدف الرحلة كان تأسيس مدن ليبية / فينيقية، وقد تم تأسيس العديد منها فعلا على الساحل الأطلنتي، وهي على التوالي، بعد عبور أعمدة هرقل: (تيماتيريون *Thymaterion* المهدية حاليا)، ورأس صوليس *Cap Soloeis*)رأس كير حالياً)، وكاريكون *Karikon* وجيطة *Gytte*وأكرة *Acra* ومليتة *Melita* وعرمبيس *Arambys* مدن ممتدة بين مصب تانسيفت وسوس.

ويبدو أن غالبية المدن المغربية القديمة كانت ساحلية أو قريبة من الساحل، وتقل كلما توجهنا نحو الداخل، وخاصة وراء المرتفعات الجبلية. ذلك ما نلمسه من النصوص القديمة كالنص الذي أورده هيرودوت بخصوص رحلة الناسامونيين (شعب سكن سواحل سرت قديماً) الخمسة الذين اخترقوا الصحراء إلى أن وصلوا ضفاف النيل (النيجر؟) ، أو الرحلة التي أرسلها الفرعون نخاو الثاني (حوالي ٦٠٠ ق. م) للدوران حول أفريقيا ، أو النصوص المتأخرة عنها نسبيا، مثل نص سترابون الذي يصف أواسط ليبيا، أو نص بلين حول الجنوب القسنطيني، الذي يتحدث فيه عن رحلة سويتون بولين(*Suétone Paulin* القنصل الروماني)، أو وصف بطوليمي لقبائل الكارمنت، التي كانت تسكن فزان، والتي كانت تهاجم سواحل سرت وتنهبها... حيث يفهم من هذه النصوص جميعا أن المدن والتجمعات السكنية كانت تتناقص كلما توجهنا نحو الداخل، أي باتجاه الصحراء. وعلى أي فإن قرطاج تقدم أكبر نموذج عن المدن الإفريقية التي تأسست نتيجة احتكاك بلاد المغرب ببلاد الشرق، واستمرت - رغم أن اللعنة الرومانية حلت بها ولم تبق منها حجر على حجر - عندما عصى كايوس غراكشوس آلهة الجحيم وبني بها مستعمرة رومانية جديدة .

إلا أن قرطاج لم تحافظ على خصائص المدينة الفينيقية خالصة، بل مزجتها بالفن الهيليني، ونحن نعرف بأن الإغريق كانوا يخضعون مدنهم لمعمار مضبوط يراعون فيه الوظيفة والموضع التضاريسي (الطبوغرافي) بالإضافة للمواصفات الجمالية.

نفس التأثير الهيليني نكتشفه في مدينة أخرى، رومانية هذه المرة، وهي وليلي: فلا شك أن الملاحظ لهندسة المدينة سيتساءل حول العلاقة بين مدلول الرواق *Péristyle* اليوناني الأصل، وغرفة الدخول *Atrium* الإيطالية، خاصة وأن كليهما يمد بالهواء والنور الغرف المنفتحة عليه؟

لقد اقتبست وليلي هذه الهندسة من التصميم الهيليني/الروديسي، أكثر من اختيارها الروماني (بن عبد الله١٩٧٧ ص٣٨٤...)، على أن الطابع الإغريقي ممزوج بالتأثير الروماني في المرافق المتعلقة بالدور: الصالون *Oecus*وغرفة *الاستقبال* *Tricinium*، كما أن المؤثرات الرومانية بارزة جدا في ساحة *المدينة* *Forum*وبيت *العدل* *Basilique*والكابيطول وقوس النصر والشوارع التي يتعدى أوسعها)وهو الشارع العام *Maximus*) *Decumanus*اثنا عشر مترا في العرض، وبذلك تكون شوارع وليلي أكثر عرضا من أوسع شوارع المدن الرومانية بشمال أفريقيا (باناسا ستة أمتار – تيمجاد وقرطاج خمسة أمتار)، كما أن وليلي تكشف عن آثار تدل على مواصلة الحياة بها بعد الجلاء الروماني، لكن ملامحها كانت قد آلت إلى التقلص، وقد تم ترميم العديد من جوانبها في فترات لاحقة (تختلف هندستها عن الهندسة الرومانية)، وهكذا دخل المعمار الروماني طي النسيان، ونبتت أكواخ عديدة وسط الأزقة، وقد عثر بالمدينة على كتابات مسيحية ترجع إلى القرن ٧ م، تؤكد استمرار المسيحيين بالمنطقة إلى غاية مقدم الفاتحين المسلمين، كما تأكد وجود جالية يهودية بواسطة العثور على كتابة عبرية، زيادة على انتشار عبادة الأوثان، والأكيد طبعا أن قبيلة أوربة التي استقبلت إدريس الأول كانت تعرف الإسلام قبل وصول هذا الزعيم.

من خلال هذا الركام نستطيع أن نضع تصورا تقريبيا للتطور الذي عرفه التمدين ببلاد المغرب قبل مجيء الفاتحين المسلمين: فقد سكن البربري في بداياته الأولى في مساكن متنقلة تسمى "ماپاليا *Mapalia* "أو "ماباليا *Mabalia*"، وكانت تصنع من مواد نباتية كالبروق (نوع من القصب اللين) والأسل (الدوم) أو خليطهما، ثم القصب والحشف (من أغشية السنابل)، ويصف هيرودتس هذه المساكن بقوله: «كانت مساكنهم محبوكة من... الأسل والبروق وهي سهلة النقل» (الدخيسي ص١١٠...). كما سكن البربري في كهوف تحفر في قمم الهضاب والتلال، وقد كشف الباحث روهلمان عن عدد من هذه المخابئ على امتداد وادي بهت: فهل

كان ذلك يتماشى مع تطور نمط العيش، أي الزراعة التي تفترض بالضرورة وجود الاستقرار، والذي يؤدي حتما إلى ظهور القرى؟

ربما، لكننا لا نستطيع أن نجزم بأن هذه القرى قد تطورت إلى مدن، وعليه فإن التمدين الحقيقي لبلاد المغرب ظهر مع مجيء الفينيقيين، وبما أن اتصال هؤلاء بالمنطقة تم لأول مرة على السواحل فإن ذلك يسمح لنا بأن نقول بأن المدن الأولى كانت ساحلية، قبل أن تنتشر في باقي الأرجاء. وقد تطور التمدين مع مجيء القرطاجيين، ثم مع الرومان الذين حافظوا في الغالب على نفس المدن مثل قرطاج ودجة وسيكة وتامودا وزيلي وليكسوس وغيرها... وكانت هذه المدن تمزج بين فن العمارة الروماني والهيليني في آن واحد، ويتمثل ذلك في ضخامة البنايات المزينة بالتماثيل وصور الكائنات الحية وانتظام الشوارع والأزقة واتساع الأبواب وارتفاعها، مع بروز الأعمدة والأقواس والمنشآت العمومية... وتقدم لنا وليلي (قصر فرعون) نموذجاً حياً لذلك، حيث البناء المرتكز على الحجارة المتجانسة المنحوتة (بقوس النصر)، أو الحجر العادي مع الآجر (جدران المنازل)، وفي بعض المباني نجد الأرض مكسوة بالفسيفساء التي تتشكل منها عدة صور نباتية وحيوانية، أما السقوف فتغطى عادة بالحجر الكلسي وإن كنا نجد سقوفا من القرميد أيضاً... ورغم أن هذه المدن تراجعت فيما بعد عما كانت عليه زمن الحكم الروماني، إلا أنها احتفظت بوجودها وأهميتها، العسكرية على الأقل، إلى غاية احتكاك أول جيش إسلامي بالمنطقة.

ترى ماذا قصد الناصري بحكاية النفر الستة الذين وفدوا على عمر بن الخطاب وأنكروا وجود المدن ببلادهم؟

عند مطالعة الكتابات التي حاولت إيجاد تفسير لسبب اندفاع عرب الجزيرة في حركة الفتوحات، يمكن أن نصنفها إلى عدة أقسام (تبعاً للعامل الذي فسرت به هذه الفتوحات)، وهكذا يمكن أن نميز بين قراءات أرجعت ذلك للعامل الديني، وأخرى نظرت له على أنه هجرة ناتجة عن فائض السكان، وثالثة عالجته من منظور اقتصادي صرف (البحث عن الغنيمة).

فعن التيار الأول يمكن أن نستحضر نموذج غرومباوم الذي ذهب إلى أن الدين كان بالنسبة للإسلام والمسيحية «في غالب الأمر العامل الأكبر في تحديد تخوم تلك الكتل». والإسلام في رأي هذا التيار يجب ربطه بشخصية النبي، وعزله عن الظروف التي أحاطت به «وبالتالي فإن الربط بين شخصية النبي محمد والتوسع الإسلامي يعتبر أمراً جلياً» على اعتبار أن الإسلام، شأنه شأن المسيحية، حمل فكرة العالمية (دين يطمح إلى التوتاليتارية) مما يحتم على أتباعه نشره في مختلف المناطق، مما ينتهي بنا إلى فكرة التوسع. وهو أمر لا يوافق عليه برنارد لويس (ص٣١) الذي زعم أنه في السنوات الأولى للخلافة تدفق عدد كبير من العرب عبر خطوط الدفاع المنهارة للإمبراطوريات المجاورة، لذلك «فإن أحد العوامل الرئيسية التي حثت العرب على الغزو كان ضغط السكان المتزايد في شبه جزيرة العرب القاحلة»، وتفسير ذلك في رأي هؤلاء، أن البادية تتميز بمناخها الجاف والصحي، وكذا تباعد مساكن البدو عن بعضها البعض، مما يحفظها من كل وباء. وكان ابن خلدون أيضا قد لاحظ أهمية البيئة الصحراوية في التفوق الجسماني والأخلاقي للبدو على سكان الحواضر، **لثلاثة أسباب:**

١. التغذية الطبيعية واعتدال البدو في مأكلهم.
٢. المناخ الصحي مقارنة مع مناخ الحاضرة الملوث.
٣. التنقل الدائم للبدو يجعل أجسامهم في حركة دائمة.

لهذا فإن المجتمعات البدوية كانت تعرف دائما فائضا بشرياً مهماً، فإذا أضفنا لذلك أنها مجتمعات عنف وغزو وجدنا التفسير السليم للفتوحات الإسلامية. وقد تم إنجاز بعض الدراسات للدلالة على أن منطقة الشرق الأوسط عانت (بين ٥٩١ م و٦٤٠ م) من سنوات متتالية من الجفاف، وهو ما دفع بالبدو في عملية توسع خارج نطاقها الأصلي (لاحظ أن الإسلام نجح في الحواضر أولاً، والبدو/الأعراب كانوا أشد كفرا ونفاقا). فالفتح إذن كان هجرة ناتجة عن فائض السكان الذين انطلقوا بحثا عن موارد جديدة للعيش. لكن ما رأينا، والحالة هذه، في قول غوستاف لوبون

الذي سجل عكس ذلك تماما عندما كتب بأن سكان الأراضي المفتوحة «كانوا مستعدين لتلبية نداء أي فاتح يعد بإطعامهم»، فالظاهر إذن أنهم لم يكونوا بأحسن حالاً من سكان الجزيرة؟ وما رأينا أيضا في تفسير موريس لومبار الذي يرجع سبب نجاح الفتوحات الإسلامية إلى سكان مدن المناطق المفتوحة الذين انضموا للفاتحين طلبا للحماية من «الفوضى والنهب الذي سببه البدو الرحل»؟

أما عن العامل الاقتصادي كمحرك لعملية الفتوحات فنسجله عند العديد من الدارسين، وعلى رأسهم فان فلوتن الذي رأى بأن الجشع والأنانية «لم يلبثا أن وجدا طريقهما إلى نفوس العرب واستوليا على قلوبهم لما كان يفاض عليهم من كل ناحية من النعيم والثراء، ذلك الثراء الذي لم يكن مألوفاً لهم، والذي كان أقرب إلى فساد النفوس منه إلى تهذيب الأخلاق»، لذلك فإن ما يسميه المؤرخون العرب فتوح يزيد، لم يكن في الواقع «إلا ضرباً من تلك الحملات التي يجردها قطاع الطرق على البلاد الآمنة المطمئنة». وهو نفس المنحى الذي توجهه هاملتون جيب. عندما اعتبر أن الفتوحات الإسلامية عملية توسعية هدفت قطف ثمار البلاد المفتوحة، وزكاه فان فلوتن، مضيفاً بأن الفاتحين لم يتوانوا عن إعمال السيف والعنف من أجل الغنيمة – تحت ضغط الفقر والجوع والحاجة – هذه الغنيمة التي حركت جموع العرب نحو أفريقيا، حسب أندري جوليان، ودفعتهم للقيام بعدة غزوات كسبوا منها غنائم عظمى.

فأما عن دور الهجرة في الفتوحات، فيمكن أن نقول بأنه كان للعرب، مبدئيا، ذلك الاستعداد النفسي لمغادرة موطنهم الأصلي (جزيرة العرب) للاستقرار بأي مكان يتم فتحه، شريطة ألا يتعارض مع مصالحهم الخاصة، وقد عبر عن ذلك عبد الله بن عمرو بن العاص أحسن تعبير عندما قال: «لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة، فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها» بل إنهم اعتبروا بلاد المغرب "أرض هجرة".

وأما عن العاملين: الاقتصادي والديني ودورهما في الفتوحات، فقد كتب البلاذري يقول (ص١٤٩): «لما فرغ أبو بكر من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشام، فكتب إلى أهل مكة، والطائف، واليمن، وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع. » فما الذي مكن العرب من تحطيم الإمبراطورية الفارسية وتقزيم الإمبراطورية البيزنطية؟ أو بصياغة أخرى: كيف تمكن العرب من تحقيق ما حققوه رغم ضعف مستواهم الحضاري/المادي إذاك؟ وبهذا السؤال نعود من جديد لأصل الإشكال: ما هو العامل الذي حرك الفتوحات الإسلامية ووجهها؟

لن نتسرع فنقول بأن الدين وحده، وحب الاستشهاد والجنة وأشياء أخرى.. كان يختفي وراء هذه الانتصارات ويفسرها، فقبائل الهانز *Huns* الشرقية سبق لها أن دمرت الإمبراطورية الرومانية في القرن ٥ م، وقبائل المغول والتتار قوضت الخلافة العباسية خلال القرن ١٣ م، رغم أن روما كانت أكثر حضارة من "الهانز" وبغداد كانت أرقى من "التتار"، ولا نعتقد أن جموع الهانز والتتار كانت تتحرك وفق عوامل دينية من نوع طلب الشهادة و"الدار الآخرة"، ذلك أن "الدار الدنيا" أيضا حاضرة في هذه الانتصارات، وهذا يقودنا للتساؤل: هل العامل الاقتصادي هو المحرك الحقيقي للفتوحات الإسلامية؟

إن تفسير الفتوحات بالاقتصاد الصرف أمر نرفضه لعدة أسباب:

أولاً: لقد بينت ردود قبيسي (١٩٨١ ص٥٦...) على رودنسون، خاصة ما كتبه بعنوان: «في أن الجوع والفقر مفهومان نسبياً» وكذا «في أن الظروف الطبيعية لم تكن سيئة للغاية»: أن ظروف العرب مع مجيء الإسلام لم تكن سيئة فعلاً، أو على الأقل ليست بذلك السوء الذي صوره بعضهم: (برنارد لويس، فان فلوتن، مكسيم رودنسون، إبراهيم بيضون..).

ثانياً: إن الكتابات التاريخية المتعلقة بالقرن ٧ م/ ١هـ، لا تسجل أي اكتشافات طبية أو تحسن على مستوى التغذية يسمح لنا بالقول بأن جزيرة العرب قد عرفت انفجاراً ديموغرافياً شكل عبء إضافياً على الإمكانيات الغذائية التي كانت توفرها البيئة قبل ذلك، كما أن المنطقة لم تعرف تقلبات مناخية كبرى تجعل الظروف أشد سوء مما كانت عليه من قبل، فيضطر السكان بالتالي إلى مغادرة أرضهم والبحث عن مجال حيوي آخر، والشيء الوحيد الذي تسجله المصادر، وفي مقدمتها الطبري، أن خلافة عمر – التي نشطت فيها الفتوحات – عرفت سنوات متلاحقة للجفاف ووباء الطاعون أودى بحياة العديد من سكان الجزيرة والعراق والشام ومصر... مما يعني أن المناطق المفترض افتتاحها (العراق، الشام، مصر) أيضا عانت من نفس الكوارث.

ثالثاً: لاحظ بيير كلاستر (١٩٨٥ ص٣٣) في دراسته للحرب في المجتمعات البدائية، أنه مقابل "المجد" الذي يلتصق بالمحارب، والذي قد ينطوي على احتمال تحوله إلى قوة ضاغطة وبالتالي إلى ممارسة السيطرة على الآخرين، أنه محكوم على المحارب الحقيقي بالموت، لذلك فالمجد والاحترام اللذان يقدمان له، يدفع ثمنهما من موته، وهكذا فالمجتمع

هو ضد المحارب بقدر ما هو من أجل الحرب: فكيف ينتظر المحارب/العربي الثروة من الحرب إذا كان لا يضمن أصلا بقاءه حيا؟

رابعا: لو كان الاقتصاد أو قسوة الظروف الطبيعية هي التي قذفت بالعرب لبلاد المغرب، لكان "الغزو" العربي من نوع غزوات الهانز أو التتار، أو في أحسن تقدير من نوع الاحتلال الروماني والبيزنطي... في حين أننا نلاحظ أنه اختلف عن هذه الأنواع جميعا اختلافا جذريا: فالوافدون العرب لم يأتوا كلهم بصفة الغزاة العسكريين: فالخوارج والأدارسة مثلا جاؤوا إلى المنطقة فرارا من بطش الخلافة بالمشرق، ونجحوا في تكوين دول في بلاد المغرب، مما يعني أنهم لاقوا تجاوباً مع السكان الأصليين للمنطقة.

١. بداية الفتح:

بدأ الفتح الإسلامي الرسمي للمغرب الأقصى في الحملة السادسة التي قادها عقبة بن نافع سنة٦١هـ/٦٨٠م، في عهد يزيد بن معاوية الخليفة الأموي الثاني، و بهذه الحملة انتهت مرحلة المحاولات الأولى لفتح المغرب،وأطل دور الفتح الشامل الذي لم يتوقف حتى أصبح المغرب إلى ساحل المحيط الأطلسي جزءا لا يتجزأ من الأراضي الإسلامية ..

"لما توفي معاوية بن أبي سفيان وولي بعده ابنه يزيد بعث عقبة والياً على المغرب فقدمه في التاريخ المتقدم، واعتقل أبا المهاجر وخرب مدينته .. فكان عقبة أول أمير المسلمين وطئت خيله المغرب الأقصى". في الجانب المقابل، عقد البيزنطيون حلفاً جديداً مع البربر لإعاقة زحف الجيش الإسلامي، لكن بسالة الفاتحين بقيادة عقبة بن نافع ووقوفهم في وجه هؤلاء جعلت أهل هذه البلاد يقبلون على اعتناق الإسلام. وهكذا واصل عقبة الفتوحات إلى أن وصل إلى سبتة ثم طنجة ماراً بمرتفعات الأطلس وتافلالت، ثم اندفع نحو الغرب مخترقاً قبائل صنهاجة ثم سوس ليجد نفسه مواجهاً المحيط الأطلسي،**حيث ردد قولته المشهورة:** (اللهم إني لم أخرج بطرا ولا أشرا وأنك تعلم أني أطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين.. وهو أن تعبد ولا يشرك بك..اللهم إن كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضا لخضته إليها في سبيلك). وفي طريق عودة عقبة بن نافع،اشتبك معه كسيلة البربري في معركة فجائية حيث سقط شهيداً سنة(٦٥ هـ /٦٨٤ م). فأصيب الجيش على إثرها بنكسة كبيرة.

٢. حملة زهير بن قيس والقضاء على كسيلة:

حملة زهير بن قيس والقضاء على كسيلة بعد أن ثبتت أركان خلافة عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، قرر أن يثأر وينتقم لعقبة، فانتدب

لهذا الغرض زهير بن قيس البلوي قائدا للحملة الجديدة على المغرب، **يقول الناصري في الاستقصاء:** "زحف زهير إلى المغرب سنة تسع وستين في آلاف من المقاتلة.وجمع له كسيلة البرانس وسائر البربر ولقيه بممس من نواحي القيروان، واشتد القتال بين الفريقين ثم انهزمت البربر بعد حروب صعبة، وقتل كسيلة ووجوه من معه من البربر ومن لا يحصى من عامتهم.."،وهكذا خاض زهير بن قيس معركة فاصلة انتهت بمصرع كسيلة)سنة٦٧هجرية/٦٨٦م) وانهزام الأسطول البيزنطي وإجلائهم عن السواحل الإسلامية.

٣. حملة حسان بن النعمان

اختار الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان ليقود الحملة الثامنة: (٨٥ هجرية/ ٦٩٢ - ٧٠٤م) لقيادة جيش كبير لتكملة الفتح الإسلامي بالمغرب، إذ بلغ عدد الجيش أربعين ألف، فانقض على جبال الأوراس سنة (٧٢ هجرية/٦٩٥م)، ثم اقتحم قرطاجنة ليقضي فيها على الروم قضاء نهائيا سنة (٨٢هـ/٧٠١م) فصفى حسابه مع القرطاجيين.

وكان من نتائج تلك المعارك التي قادها هذا الأخير أن استسلمت قبائل المغرب للجيش الإسلامي. لذلك اعتبرت هذه الحملة كآخر مظهر من مظاهر القضاء على المقاومة الفعلية للفتح العربي وتثبيت أقدام المسلمين نهائيا في المغرب الأقصى.

هكذا أتم حسان بن النعمان الغساني فتح إفريقية والمغرب، واعتنق أغلبية البربر الإسلام تطوعا، ودخل العديد منهم في الجيش الإسلامي. فقضى حسان على كل ما من شأنه أن يزعزع استقرار الدولة الإسلامية ويهدد كيانها.

٤. ولاية موسى بن نصير(٨٥-٩٥ هجرية/٧٠٤-٧١٤م)

تم اختيار موسى بن نصير من الخليفة عبد العزيز بن مروان لولاية المغرب وتولي الفتوح فيه. وقد قام بمجهودات كبيرة احتفظت بها الذاكرة التاريخية من أجل ترسيخ دعائم الدولة الإسلامية وتثبيت أركانها. ثم إن الحملات السابقة كانت قد مهدت الطريق أمامه لذلك لم يجد صعوبة في إخضاع البربر. لما بلغ بجيوشه إلى الناحية الجنوبية من المغرب، وبالتحديد منطقة درعة، بعدها فكر في فتح الأندلس، وقد تمكن من الزحف نحو الأندلس سنة ٩٢ رية٧١١م بقيادة طارق بن زياد.

وبانتهاء ولاية موسى بن نصير تنتهي فترة فتوح المغرب، ويبدأ عصر الولاة. حيث أصبح المغرب ولاية إسلامية، مثله مثل باقي البلدان في المشرق العربي كمصر والشام والعراق، وبدأ المسلمون تجربة الحكم فيه، وهي تجربة طويلة حافلة بالمصاعب والمشاكل.

ومما تنبغي الإشارة إليه أن الفتوحات الإسلامية في المغرب صاحبتها عمليات اختلاط بشري وديني وحضاري بعيدة المدى، فقد وضعت أثناءها بذور الشعب المغربي العربي المسلم وأرست قواعد المغرب العربي، وطويت في تاريخ المغرب صفحة لتبدأ صفحات.

وقد ظهرت حركة التعريب، وظهر رجال أسهموا في تسريع عملية التعريب لتسير في خطٍّ موازٍ مع إسلام هؤلاء واعتناقهم الدين الجديد، فامتزجت الأعراق، واختلطت الدماء بين البربر والعرب.. بل إن الثورة البربرية الكبرى نفسها،ابتداء من (١٢٢هـ/٧٤٠م)، كانت مظهراً من مظاهر نجاح عملية الإسلام والتعريب، فقد قام بها عرب وبربر مستعربون مسلمون وقفوا جميعا في وجه ما تصوروا أنه انحراف عن الخط الإسلامي القويم.

وتلك نتيجة لم يصل إليها العرب بهذه السرعة التي نجدها في المغرب. من هذا المنطلق اعتبرت فترة الفتوح الإسلامية في المغرب في كثير من الدراسات التاريخية عصراً قائمًا بذاته، عصر حروب وصراع واختلاط بشري وتغير حضاري بعيد المدى يعتبر من أهم عصور تاريخ المغرب وأبعدها أثراً وأشدها حسماً.

وعندما ينتهي عصر الفتوح ويبدأ عصر الولاة الذي سيكون بدوره عصر ميلاد الشعب المغربي العربي المسلم، بالرغم من كل الصراعات والتقلبات التي شهدها في هذا المنعطف التاريخي.

فترة المخاض: عصر الولاة:

يطلق المؤرخون مصطلح "عصر الولاة" على الفترة التاريخية الممتدة بين نهاية الفتح الإسلامي على يد الفاتحين من العرب، وبين قيام أول دولة مستقلة فيه،وهي الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى.

وقد استغرقت هذه الفترة الزمنية بين سبعين وثمانين سنة. هذه الفترة التاريخية شهدت صراعا بين العناصر المختلفة التي كونت بنية المغرب الحديث العهد بالإسلام.

فبعد الفتح الإسلامي واجهت المغرب مشاكل عديدة، منها ذلك الصراع الذي نشب بين السكان الأصليين لهذه المنطقة وهم البربر وبين العرب ذوي الأصول العربية كالعرب البلديين والعرب الشاميين الذين استوطنوا هذه المنطقة بعد الفتح الإسلامي، وهؤلاء لم يعترفوا للبربر بحقوقهم.لذلك كان لزاماً على البربر –وهم السكان الأصليون لهذه المناطق- بعد أن أسلم الكثير منهم، أن يحددوا مكانتهم من هذه الدولة، وحقوقهم ودورهم فيها بعد أن دخلوا عالم التاريخ.

الأمر الذي أدى إلى نشوب صراعات على شكل ثورات في جبال الريف المتاخمة لطنجة وسبتة، وامتدت في المناطق الجبلية الموازية لساحل المحيط الأطلسي. وهكذا كان منطق الصراع والتجاذب هو المنطق السائد خلال هذه الفترة التاريخ

وفي العصر الأموي تمسك الخلفاء الأمويون بالمغرب كله والأندلس جميعاً، وبذلوا كل ما في جهدهم بغية المحافظة عليه تحت لواء مذهب السنة والجماعة. على خلاف الدولة العباسية التي وقفت عند حدود المغرب الأوسط، ولم تستطع قواها أن تتخطى ذلك الحد.

لأن همها الأكبر كان متجها نحو منطقة آسيا وبالضبط إلى العراق ونواحيها، لذلك لم تول اهتماماً كبيراً للمنطقة المتوسطية.. ومع ذلك فإن بني العباس قد استطاعوا أن يحافظوا على هوية هذه المنطقة السنية أمام ذلك السيل الجارف من التيارات والمذاهب، وإن استمرت المنطقة خلال هذا العصر -أي عصر الولاة- مسرحاً لصراعات مريرة بين مختلف الطوائف والأجناس والعقائد.

وانتهى عصر الولاة بالنسبة للمغرب الأقصى بقيام الدولة الإدريسية، التي سعت جاهدة للقضاء على مختلف الفرق الضالة والمنحرفة.

الفصل السادس

تاريخ الطب الإسلامى فى المغرب العربى

إن التنظير بين تعاليم الإسلام كدين وبين الطب كعلم يبرره اهتمام الإسلام خاصة بهذا اللون من المعرفة الإنسانية ذات التطبيقات العلمية التي تتلاءم مع ما جاء به الإسلام من توجيهات وتخطيطات في الحقل الحضاري وخاصة الاجتماعي ، وهذا هو ما فسح المجال لرجالات العلم من متكلمين وأصوليين ومحدثين للإسهام في هذا المجال الذي يعتبره البعض خاصاً موغلاً في التخصص في حين أن الإسلام يعتبره أشد علاقة من كل المؤشرات الاجتماعية لانه يكيف المجتمع ويسهر على سلامته المادية التي تعزز سلامة الروح الموكولة إلي علماء الدين بل أن المنح الرئيسي الذي سار عليه الإسلام وطبع تعاليمه بكثير من اليسر والمرونة هو المبدأ القائل بان " حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان ".

ولهذا نجد الكثير ممن تخصص في العلوم الدينية عززها بالمشاركة في الطب وما يتصل به من نفساً نيات وصيدلانيات وأن تاريخ الفكر الإسلامي ليحفل بهذا الحجم المتصاعد من جهابذة المعرفة الذين نهلوا من المنبعين لضمان التوازن بين عنصري المادة والروح الذين يشكلان الشقين المتناسقين في الهيكل البشري والعاملين الأساسيين في ضمان ذلك الكيان المتلاحم الكفيل بحفظ النوع في مثالية مزدوجة اعتبرها الإسلام القوام الأول في تعاليمه الإنسانية التي فرضت بذلك صلاحيتها لكل عصر ومصر وكل زمان ومكان .

أن الإسلام قد عني بمفهوم الإنسان وأهدافه وأبعاده في خضم الحياة ومصائرها المستقبلية دون أن يغفل ذلك الشق الآخر الذي يتصل بمآله الأبدي وكل ما يحقق هذين الهدفين يتدرج في تعاليم الإسلام التي جاءت مجملة دعماً لمرونتها وانطباعها على حاجات العصر ومقتضيات التطور.

ومنطقية ما يأمر به الإسلام أو ينهي عنه تحقق بإمكان إخضاع كل هذه المأمورات أو المنهيات لتجربة علمية برهنت مع الزمان على مثيلتها، فقد بدأنا نلمس فعلاً صحة ما كنا نؤمن به غيباً حول ما ورد من تعاليم حول نظام التغذية في الإسلام والوقاية الصحية ومكافحة الغوليات والمخدرات مع العمل الموازي من أجل تربية النفس التي تشكل دعامة

الأمراض العصبية التي دلت الإحصائيات على أنها تمثل أكثر من تسعة أعشار الإصابات البشرية.

ولا يمكن التعرف على فعالية وجدوى هذه التعاليم إلا في نطاق منهج استقرائي يحلل تطور الإنسان منذ تكوينه في الرحم إلي أن يكتمل وينمو ويترعرع ثم يهرم وينهار مع ما يتخلل ذلك من ظواهر وأحداث وكل ذلك يشكل العمود الفقري لمناهج الدراسة الإنسانية في كل مجالاتها واختصاصاتها وقد يتجلى جانب من ذلك في تحليلنا العلمي الدقيق لمحتويات القرآن والحديث في نطاق نقد لغوي دقيق ودون ضغط على المفهوم القرآني إخضاعاً له للمدلولات العلمية التي تؤكد التجارب المتوالية ضعف الكثير منها.

فإذا درسنا علوم الطب من خلال تعاليم الإسلام فإنما ندرس معطيات عارضة جاءت عفواً في مضامين قرآنية أو حديثة، وفي ثنايا ما يعلق بالإنسان أو يطرأ على سلوكه أو يكيف مجرى حياته ككائن حي متطور.

ويمكن أن نضيف إلي هذه العطاءات القرآنية والحديثة معطيات تجددت في ظل الإسلام من خلال تجارب علماء الإسلام.

وسنضرب للنوعين أمثلة حية لنتعرف على مدى إمكان ملء مجال واسع من مناهج كليات الطب الإسلامية بتلك العطاءات وهذه المعطيات ولعل الفكر المنطقي في مجراه العلمي ومجالاته الجامعية لم يطبع الحركة العلمية الطبية بأوروبا إلا في القرن التاسع عشر مع ظهور كلود بيرنار (*Clade Bernard*)الذي وضع أسس منهجية الطب التجريبي في العصور الحديثة مع أن الفكر الديني الذي دعم تسلسل السند في الحديث من خلال شروط دقيقة سار عليها المحدثون أمثال الإمام البخاري- هو الذي فسح المجال للملاحظة والتجربة في مختلف العلوم وخاصة الطب إلي حد أن هنالك مثلاً جارياً في العالم العربي منذ حقب يقول "سل المجرب قبل أن تسأل الطبيب" اللهم إلا إذا كان الطبيب هو نفسه مجرباً.

وقد لاحظ الدكتور (موريس بوكاي) أن العلم اتسم لأول مرة بطابع دولي في الجامعات الإسلامية في العصور الوسطى حيث كان العلماء أكثر تشبعاً بالروح الدينية منهم في عصرنا ولم يمنعهم ذلك من أن يكونوا في المجتمع الإسلامي مؤمنين وعلماء في آن واحد ذلك أن العلم والدين توأمان.

وقد لاحظ ابن قيم الجوزيه (الطب النبوي) أن المرض نوعان مرض الأرواح ومرض الأشباح أي الأجسام وكلاهما منصوص في القرآن وتنقسم أمراض الروح إلي نوعين: مرض الشك والريبة ومرض النزوات والشهوات. قال تعالى: (..فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ) [سورة البقرة: الآية ١٠] وقال: (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [سورة النور: الآية ٤٨-٥٠] وقال: فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا) [سورة الأحزاب: الآية ٣٢] وتعد الأحاديث النبوية المتعلقة بالأدواء والأدوية بثلاثمائة وقد ذكر حاجي خليفة في (كشف الظنون) ستة مؤلفات في (الطب النبوي) وكتب عنه كثير من الأوربيين مثل كاني وريسك وبيرون ولنور الدين أبى الحسن علي بن الجزار المصري (السر المصطفوي في الطب النبوي) ولجلال الدين أبى سليمان داود كتاب في الطب النبوي كذلك وقد ترجمه م. بيرون إلي الفرنسية وهو ينقل عن ابن البيطار وتوجد رسالتان في الطب النبوي لمؤلفين مجهولين حلل إحداهما ريسك في "رسائله الطبية" والثانية كانبي في "حياة محمد" وقد أعطت هذه الرسالة لكانبي هذا فكرة سامية عن علم الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد كان من المقرر في حضارة العرب انه لا تستوطن إلا بلدة فيها سلطان قاهر وطبيب ماهر ونهر جار وقاض عادل وسوق قائم (زهرة الآس ص ٢٤) واكتسب علم الطب في مختلف العصور الإسلامية أهمية كبرى جعلت منه فرضاً كفائياً وقد ذكر ابن فرحون في الديباج "أن محمد ألما زري كان يفزع إليه في الفتوى في الطب في بلده كما يفزع إليه في الفتوى في الفقه ويحكي أن سبب قراءته الطب ونظره فيه انه مرض فكان يطبه يهودي فقال له اليهودي يوماً يا سيدي مثلي يطب مثلكم أي قربة أجدها أتقرب بها في ديني مثل أن أفقدكم للمسلمين فمن حينئذ نظر في الطب".

وقد كلفت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات في الأمانة العامة بوضع كتاب مصادر تاريخ الطب المخطوطة وقد انتهى الدكتور المنجد من عمله وجمع ألف مخطوط عربي يبحث في الطب في مختلف أقسامه وفي مختلف العصور العربية.

إن قدسية الأحاديث النبوية حدت بعلماء الإسلام إلي ضبط المنهجية العلمية في البحث والتنقيب حتى لا نقع في الخطأ وانصبت هذه القدسية على الحقيقة العلمية حيث كانت وكيفما كانت ولعل الشروط التي وضعها المحدثون لذلك قد سبقوا بها ما وضعه العالم الفرنسي (ديكارت) بعد عدة قرون في قواعده الأربع. وقد تبلور هذا التمازج خاصة في المشاركة بين علمي الأصول الحديثية والفقهية والكلامية من جهة وعلوم الطب والصيدلة من ناحية أخرى.

وتتبلور أسس الأدواء حسب الفكر الإسلام في ثلاثة محاور هي حفظ الصحة والحمية وتنحية المواد الضارة من الجسم. وهي كلها في قوله تعالي:

١. (وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) [سورة البقرة: الآية ١٨٥]: معناها الدعوة إلي الحفاظ على الصحة والطاقة.

٢. (فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ .) [سورة البقرة: الآية ١٩٦] وفيه دعوة إلي تطهير الجسم مما يتعلق به من جراثيم وذلك بحلق الشعر خلال الإحرام للمريض وبذلك تتفتح مسام الجلد وتخرج الخبائث من الجسم .

٣. (وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا) [سورة النساء: الآية ٤٣] : العدول عن الماء إلي التراب لتلافي كل ضرر يحصل للجسم .

كل ذلك يبرز تفاعل العنصر الديني وعنصر العلاج الطبي.

وقد عنى الإسلام بحفظ الصحة (*Hygiene*) فحض على الطهارة (**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**) [سورة المدَّثر: الآية ٤] والغسل والوضوء والاستنجاء والاستبراء والسواك بدل غسل الأسنان ببول البقر في أوروبا (٩٨٧) ولوازم الفطرة (وهي حول ما برز في الجسم لحما يته كالأظافر وشعر الإبط والأنف والعانة والختان (الخ) وذلك بالإضافة إلي تطهير الثياب كل ذلك تمهيداً لتصفية الفكر وتطهير العقل من الوساوس والهواجس المثيرة للأعصاب.

وهكذا اهتم الإسلام بالطهارة كعلاج وقائي للجسم والروح معاً كما دعا إلي الالتجاء إلي الله تعوذاً من الخوف والقلق واليأس مع الابتعاد عن الخمور والمخدرات والميسر والقمار لطرد أسباب هذا القلق . وقد أبرز الأستاذ أرنيست أدولف الطبيب الجراح في جامعة سان جوهن *st.Johns* الأمريكية هذا الشرط في دعم العلاج الطبي الحقيقي.

وبخصوص الصيام ابرز الدكتور ماك مادان، "*Mac Madan*"وهو من أمهر الأطباء الأمريكان في كتاب أفرده للصيام- النتائج الباهرة التي يسفر عنها الصيام وأثره الحاسم على الأمراض المستعصية مؤكدًا أن كل إنسان هو في حاجة إلي الصوم حتى لو لم يكن مريضاً لأن السميتات (أو الديفانات*Toxines*) الغذائية والعلاجية تتراكم في الجسم مسببة التوعك مع تثاقل وتناقض في النشاط فإذا تم الصيام خف وزن الصائم وانحسرت الديفانات عن جسمه فتصفى ويتنقى كلياً مع إنبثاق شعور لديه بعد مرور أيام على صومه بحيوية وقوة لم يعهدها من قبل فالصوم يعالج كل أمراض المعدة والأدوار الدموية وأوعية الدم كالرثية (الروماتيزم). وهذا مصداق قوله عليه السلام (صوموا تصحوا). فالكشف عن الداء ووصف الدواء من أسس الشعائر الدينية في الدين الحنيف.

وقد اعتبر الإسلام أن لكل داء دواء وان المريض يجب أن يبحث لمرضه عن علاج وإلا عوقب بسبب إلقاء نفسه إلي التهلكة كما يجب أن لا ينساق مع المفهوم المخطئ للقضاء والقدر لأن محاولة العلاج أيضاً داخلة في مفهوم القدر.

وفي الوقت الذي أعتبر الإسلام المتطبب ضامناً إذا غلط في نوعية العلاج فإنه سهل مأمور يته بإباحة ما لا يباح لغيره كالنظر إلي الأعضاء المحرمة من جسمه إذا اقتضى الحال.

على أن الإسلام قد حلل أصول الخليقة في آيات وأحاديث برهن تطور العلم في العصور الحديثة على عمق تحليلاتها والله قد خلق الإنسان من (صلصال من حمأ مسنون) أو (صلصال كالفخار) أو (من سلالة من طين) أي خلاصة من مركبات جيرية على اثر تفاعلات فيزيائية كيمياوية إحيائية في مزيج مائي أدت إلي تكوين عضوي لزب متلائم الأجزاء على غرار الفخار المتماسك.

وقد تأيد هذا الوضع بأدلة علمية منها:

توافر العناصر الكيماوية الموجودة في الطين جزئياً داخل الجسم البشري وهذه " الجزئية " مضمنة في كلمة سلالة وقد تأكد من جهة أخرى في تجارب حديثة قام بها الكيماوي جيمس لاوس . *James G Lawless*، تشهد بأن الحياة نشأت في الطين وهذا يجف فتتولد عنه جزئيات تتكون منها نويات (*Nucle'otides*) يجب أن تقارن مع ما وصفه القرآن باللزوب أو الصلصال ومعنى ذلك أن التجفف يسبق تكوين الجزئيات ما قبل الإحيائية في مستنقعات كالتي توجد في (وادي الريفت) بالبحر الأحمر.

تلك بعض الجوانب الدينية التي تشكل أساس الفكر الطبي في الإسلام والتي يمكن استثمار أبعادها العلمية في تحليلات تقنية دقيقة ضمن الأبحاث الجامعية الحديثة التي يجب أن تستهدف بالدرجة الأولى وصل برامج كليات الطب مع تعاليم الإسلام وعلينا لدعم هذا الرصيد الثري أن نستعرض عطاءات الفكر الإسلامي في التجارب الطبية الرصينة التي أغنت المكتبة العلمية الإنسانية.

وبودنا أن نضرب لهذا العطاء أمثلة مستقاة خاصة من إسهامات الغرب كامتداد لإبداعات الشرق الإسلامي ويتجلى للباحث أن أبا بكر محمد بن زكرياء الرازي هو في الحقيقة أبو الطب العربي وقد ألف ما يناهز مائتي كتاب ترجمت جميعها إلي اللاتينية وقد وصف الجدري والحصبة وهو أول من استعمل الفتائل في العمليات الجراحية وكذلك الأنابيب التي يمر منها الصديد والقيح والإفرازات السامة وكان طبيباً أخصائياً حيث ألف كتاب " تجارب المارستان " فلا شك إذن أن الرازي يمكن أن يسجل في طليعة أطباء العرب.

وقد أكد (لوكلير) أنه إذا كان الكندي هو أول فيلسوف ظهر عند العرب فان الرازي هو أول طبيب عند العرب.

وقد شعر العرب منذ القرن الثاني للهجرة بأهمية علم الصيدلة في التجارب الطبية كما اقتنعوا بأن معرفة الكيمياء أساسية في البحوث الصيدلية وقد أكد (برتيلو) في كتابه " الكيمياء في القرون الوسطى) أن كتب جابر بن حيان في الكيمياء هي غاية ما وصل إليه العقل الإنساني من الابتكار وأن كل المشتغلين بهذا العلم من بعده كانوا عالة عليه. وقد سبق العرب الأوربيين إلي وضع الأواني الزجاجية الكبيرة التي تحتوي على السوائل الملونة.

ثم جاء الأستاذ (ابن سينا) فكانت اعظم مصنفاته الطبية بعد القانون هي أرجوزته المعروفة عند الأوربيين ب "كانتيكوم".

وأهم شرح لها هو الذي ألفه (ابن سينا) وقد ترجم إلي اللاتينية وكان بن زهر الأوسط يفضلها على القانون لأنها جامعة لمبادئ العلم.

يعتبر كتاب القانون لابن سينا والحاوي للرازي وكتاب علي بن عباس اعظم الموسوعات الطبية التي أنتجها العرب الوكلير.

ويوجد قرار جامعي مؤرخ ب ١٦١٧ يدل على أن كتب الرازي وابن سينا كانت أساس التعليم الطبي في جامعة لوفان في القرن السابع عشر وابن سينا كان أساس الدراسات في جامعات أوربا طوال ستة قرون (أعراف المسلمين وعاداتهم).

وأول من نظم صناعة الطب وقيدها حرصا على مصلحة الجمهور المقتدر الذي تولى الخلافة عام ٢٩٥ هـ ففرض تأدية امتحان وبلغ عدد المتخرجين في جانبي بغداد ٣١٩ هـ- ٨٦٠ رجلاً سوى من استغنى عن امتحانه باشتهاره بالتقدم في الصناعة (القفطى ص ١٣٠)

وأجرى أول امتحان للصيادلة أيام المعتصم عام ٢٢١ هـ. وقد جاء في (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) لعبد الرحمن الشعر اوي (مخطوط) أن المحتسب كان يحلف الأطباء "أن لا يعطوا أحداً دواء مراً ولا يركبوا له سماً ولا يصنعوا السمائم عند أحد من العامة ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل والغض عن المحارم وعدم إفشاء الأسرار (أو السر المهني) والتوفر على جميع الآلات".

ومن أنجع الوسائل التي كان العرب يقاومون بها الأمراض بجانب المصحات حسن التغذية وتناسب الملبوس مع الفصول والأساليب الوقائية وفي مقدمتها الطهارة.

لهذا نرى أن الحمامات كانت متوافرة بصورة غريبة وقد ألفت في حمامات دمشق كتب مثل (عدة الملمات في تعداد الحمامات) ليوسف بن عبد الهادي من رجال القرن العاشر ويقولون إن حمامات بغداد بلغت بضعة آلاف منذ القرن الثالث وفي القاهرة بلغت ثمانين فقط في القرن السابع وفي نفس الوقت كان بالفسطاط أكثر من ألف حمام.

وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه أن عدد الحما مات في عهد الرشيد والأمين بلغ ستين ألفاً وذكر ابن جبير أن في بغداد ألفين من الحمامات وقد طليت سطوحها بالقار.

وقد نوه رينو بحكمة المسلمين في اختيار أزيائهم مثل الثياب الصوفية البيضاء النى توافق الصحة في البلاد الحارة والتي لا تخزن أشعة الشمس أكثر من الحاجة وتحفظ حرارة الجسم إبان البرد زد على ذلك أن الثوب الفضفاض يساعد على تسرب الهواء الضروري للتنفس الجلدي ولا يضغط على بعض الأجهزة مثل الكبد والمعدة.

وابرز طبيب عربي ظهر في الأندلس في القرن الرابع هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهر أوي صاحب كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) وقد قال فيه أحد الجراحين الغربيين: " لا شك أن الزهر أوي أعظم طبيب في الجراحة العربية " وقد اعتمده واستند إلي بحوثه جميع مؤلفي الجراحة في القرون الوسطى وكتابه هو اللبنة الأولى في هذا الفن وهو أول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصاة المثانة واستخرجها بعملية جراحية وعالج الشلل وأول من أستعمل خيوط الحرير في العمليات الجراحية.

وذكر (لوكلير) من جهته أن الزهر أوي أعظم ممثل لعلم الجراحة فـي المدرسـة العربيـة . (والظـاهرة الطريفـة التـي امتـاز بهـا كتابـه (التصريف) للزهر أوي هو إدراجه بازاء النصوص لصور الآلات.

وقد عرف البر ابر في المغرب العربي منذ عهود سحيقة حقن جراثيم الجدري وكانوا يستعملونها لتحصين المصاب.

ونقل الكانوني في "شهيرات المغرب " (مخطوط) عن كتاب "فن الأسنان بالمغرب الأقصى " أنه كان بفاس في القرن الرابع الهجري مدرسة طبية وذلك أيام كان المغرب تحت نفوذ الأمويين.

نعم في العهد الذي كانت الأندلس خاضعة لسلطان مراكش تكونت- كما يقول لوكلير - جماعة من الأطباء التفت حول ملوك المرابطين والموحدين وسار معظمهم في ركاب هؤلاء الملوك إلي المغرب حيث قضوا بقية حياتهم في العلاج وتدريس الطب- فأفاد المغرب كثيرا من نكبة الأندلس.

ويظهر أن أبا العلاء زهر بن زهر هو أول طبيب أندلسي ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الأندلس وقد كان طبيباً خاصاً ليوسف بن تاشفين بعد أن كان طبيب المعتمد بن عباد باشبيلية.

وكانت له آراء شاذة في الطب منها منعه من الحمام اعتقاداً منه بأنه يعفن الأجسام ويفسد تركيب الأمزجة. وقد تمخضت تجارب أبي العلاء في المغرب عن تأليفه لكتاب " التذكرة " (الذي ترجمه وطبعه كولان عام ١٩١١ بباريس) وهو مجموعة من الملاحظات سجلها لولده ابن زهر لتعريفه بالأدواء الغالبة في مراكش والأدوية المناسبة.

وبعدما توفي أبو العلاء أمر علي بن يوسف بجمع ملاحظات طبية أخرى كان أبو العلاء سجلها في أوراق وهي "المجربات " التي جمعت بمراكش عام ٥٢٦ هـ والتي يوجد مخطوط منها في الاسكوريال.

وقد ترجم (جان دوكابو) التذكرة من العبرانية إلي اللاتينية (نسخة في مكتبة كلية الطب بباريس) ثم توالت التراجم عام ١٢٨٠والمطبوعات (عشر مرات بين ١٤٩٠ و ١٥٥٤)

وتوجد الآن نسخة في مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعها إلي عام ١٥٣١ وهي تحتوي أيضاً على (كليات ابن رشد).

وهنالك رسالة في أمراض الكلي) كتبها أبو العلاء لعلي بن يوسف ولا يوجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام ١٤٩٧كما يوجد مخطوط له (حول الخواص) بمكتبة باريس ومنه استقى ابن البيطار (خواص لحوم الحيوانات.)

ولأبي العلاء (مقالة في شرح رسالة يعقوب بن اسحق الكندي حول تركيب الأدوية). وولده هو أبو مروان عبد الملك بن زهر خدم المرابطين مثل أبيه وألف (كتاب الاقتصاد) لإبراهيم بن يوسف أخي علي (يوجد منه مخطوط بباريس رقم ١٩٥٩) وكذلك نسخة في الاسكوريال حسب (رينو) محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية وفرغ من كتاب عام ٥١٥ هـ .
.

وقد أوضح بكيفية عملية الفرق بين الجذام والبهق ومسألة العدوى بل أفرد لذلك رسالة لم تصلنا ويذكرون أن ابن زهر هذا أعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى الرازي في الشرق.

وقد تحدث ابن زهر في هذا الكتاب عن أطباء عصره فذكر أنهم يختلفون في الاعتناء بالمرضى وأن الناس يجهلون الطب لان الطبيب الذي يستشيره مريض من المرضى يبادر فيصف له دواء من الأدوية دون تمحيص للحالة في جميع خواصها ثم ذكر أنه استدعي يوماً من الأيام لدى أمير مرابطي فوجد جماعة من الأطباء شباباً وشيوخاً لم يسبق له أن تذاكر معهم ولكنه تأثر بتجربتهم فجرت المذاكرة حول الداء الذي يشكو منه الأمير فبادر الأطباء الحاضرون ووصف كل منهم دواء فلم يوفق في نظر ابن زهر سوى واحد منهم ومع ذلك لم يستكنه سبب الداء ومما امتاز به وخالف فيه أطباء عصره الأقدمين أنه كان يستعمل الفصد للشيوخ من سبعين سنة فأقل وللأطفال كذلك حيث فصد ابنه من ثلاث سنوات فأدهش معاصريه وكان والده أبو العلاء يوصى ببطيخ فلسطين (أي الدلاح في عرف المغاربة) في أمراض الكبد ويعالج بجس النبض والنظر إلي قوارير البول.

وكتاب (التيسير) قد كتبه أبو مر وان بن زهر بطلب من ابن رشد كتدليل لكتابه الكليات.

وقد أكد (ابن عبد الملك) في الذيل والتكملة) أن ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من أهل عصره.

وقد نهج ابن زهر في كتاب التيسير أسلوباً جديداً في الحكمة القياسية مستخدماً التمحيص العقلي للوصول إلي أحسن النتائج فهو طبيب التجربة والتمحيص العلمي وليس من صناع اليد كما يقول في "التيسير" أما في الميدان العملي فقد لاحظ ابن زهر أنه يأنف من إجراء العمليات الجراحية الكبرى بنفسه لان رؤية الجروح تثير في نفسه ضعفاً يوشك أن يسفر عن إغماء ولكنه لا يكره تحضير الأدوية غير مستعمل الخمر في تركيبها على سنن والده أبي العلاء حتى ولو أوصى بذلك (جالينوس) على خلاف الرازي.

وتحدث عن الأعمال اليدوية في الطب فلاحظ أنها موكولة لأعوان الطبيب مثل الفصد والكي وفتح الشرايين أما مهمة الطبيب فهي تقرير نظام الأكل عند المريض ووصف الأدوية له فهو لا يتناول شيئا بيده ولا يركب دواء وحكى أن والده لم يباشر شيئاً من هذا القبيل بيده طوال حياته وحتى لو أراد ذلك لما وفق لعدم الأستيناس وتحدث عبد الملك عن نفسه فذكر أنه كان هو نفسه ولوعاً بالمباشرة اليدوية في الصيدلة وتجربة الأدوية والتوصل إلي قيمتها وتركيباتها.

ولعل أبا مروان توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية إلي الكشف عن أمراض جديدة لم تدرس قبله فقد اهتم بالأمراض الرئوية وأجريت له عملية القصبة المؤدية إلي الرئة وتمكن هو بعد ذلك من تشريح القصبة في مرض الذبحة فعولج المريض.

وقد اختص ابن زهر في أمراض الجهاز الهضمي واستعمل أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع واستعمل الحقن المغذية واكتشف طفيلية الجرب وسماها (صؤابة الجرب) كما بسط طرق العلاج القديمة وأوضح أن الطبيعة- إذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشري- تكفي وحدها في الغالب لعلاج الأدواء (حضارة العرب جوستاف لوبون ص ٥٣٠ من الطبعة الفرنسية).

وكان أبو مروان إذا عالج مريضاً نسى نفسه واستهلك في مريضه وهذا هو سر عبقريته فإذا عرضت عليه حالة شائكة حاول أن يعيشها واستمد من ذكرياته وتجاربه ومنطقه ولهذا كان نسيج وحده وانكب أطباء القرون الوسطى على دراسة كتابة التيسير الذي ترجم عن العبرانية من طرف شخص مجهول (مخطوط لمكتبة ليد) ثم إلي الإيطالية عام ١٢٦٠ م .

وقد تحدث ابن زهر في كتاب التيسير عن (يمين إبقراط) الذي كان يطالب بها جميع من يدرس مصنفاته ويقتضي منهم إلزام تلاميذهم بها.

والحفيد أبو بكر بن أبي مروان كان طبيباً شاعراً متين الدين خدم الدولتين اللمتونية والموحدية (عبد المؤمن ويوسف ويعقوب والناصر) توفي عام ٥٩٦ هـ بمراكش ألف (الترياق الخمسيني) ليعقوب المنصور.

وكان أبو بكر يحفظ صحيح البخاري بأسانيده ولم يكن في زمانه اعلم منه باللغة وكان يحفظ شعر (ذي الرمة) وهو ثلث لغة العرب.

ومنهم أيضا أبو الوليد بن رشد الذي تميز في الطب وله (كتاب الكليات) الذي ترجم إلي اللاتينية وطبع ولما ألف كتابه هذا قصد من ابن زهر أن يؤلف كتاباً في الأمور الجزئية اشكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب.

ولابن رشد (تلخيص كتاب العلل والأعراض والتصـرف والحميات والأدوية المفردة وحيلة البرء).

وقد اقترح ابن رشد في شرحه لابن سينا ما يصفه الأطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الأمراض الرئوية وقد أشار إلي جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز

أحمد بن محمد أبو جعفر الذهبي المتوفى بتلمسان عام ٦٠١ هـ/ ١٢٠٢ م كان عالماً بصناعة الطب فيلسوف الأندلس مع تبريز في الفقه والقراءات والنحو واللغة عينه المنصور الموحدى نقيب الطلبة والأطباء بمراكش وطبيبه الخاص وكذلك لولده الناصر الموحدي. وله شرح علي صحيح مسلم.

أبو يحيى هانيء بن الحسن اللخمي الغرناطي له مشاركة في الحديث والأصول والطب تتلمذ لابن فرتون بفاس توفي عام ٦١٤ هـ .

وقد رحل إلي المشرق أطباء مغاربة منهم علي بن يقظان السبتي الطبيب الشاعر الأديب الذي توجه إلي مصر عام ٥٤٤ هـ ثم إلي اليمن والعراق (القفط ص ١٦٠) وكذلك يوسف بن يحمى بن إسحاق السبتي أبو الحجاج نزيل حلب ويعرف في سبته بابن سمعون كان طبيباً من أهل فاس " وقرأ يوسف الحكمة ببلاده (أي سبته) فساد فيها ". وذكر ا لوكلير أنه كان طبيب ميمون أمير حلب وطبيب الملك الظاهر وصديقاً للقفطي.

أبو جعفر عمر بن علي القلعي المغوبي طبيب ماهر في الآدمية والأمراض وعلاجها كتب ملاحظات على كتب ابن سينا ولد بالمغرب وعاش في دمشق حيث كان له دكان للعيادة توفي عام ٥٧٦ هـ .

أما المستشفيات فمما أنشأه أبو يوسف الموحدي (دار الفرج) في شرقي الجامع المكرم وهو مارستان المرضى يدخل العليل فيه فيعاين ما اعد فيه من المنازل و مياه والرياحين والأطعمة الشهية والايضربة المفوهة ويستطعمها ويسيغها من حينه. (الاستبصار في عجائب الأمصار).

ووصف (عبد الواحد المراكشي) المستشفى الموحدي بمراكش فقال: "وبنى بمراكش بيمرستانا ما أظن أن في الدنيا مثله وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد وامر البنائين بإتقانه علي أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات واجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت.

واجرى لـه ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجاً عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه الصيادلة لعمل الأشربه والأدهان والأكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فإذا نقه المريض فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وان كان غنياً دفع له ماله... ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلي أن يستريح أو يموت وكان في كل جمعه بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى... ولم يزل مستمراً على هذا إلي أن مات.

وذكر (*Millet* في كتابه الموحدون) المؤلف عام ١٩٢٣ ص ١٢٩ أن هذا المستشفى "لا يخلف وراءه مصحات أوروبا المسيحية فحسب بل تخجل منه حتى اليوم مستشفيات باريس".

ولا بدع إذا كان مستشفى الموحدين بهذه المثابة بالنسبة لأوروبا فقد قال (ولتر) في (مختصر التاريخ): "ازدهر علم الطب والتداوي عند العرب على حين كان الأوربيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون أربابه إذا إن الكنيسة كانت قد حرمته عليهم وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائر القديسين وبالتعاويذ والرقى التي كان يبيعها رجال الدين " إلي أن قال: وكان الأوربيون يستكنون من النظافة لأنها تشبه الوضوء عند المسلمين".

وأبو يوسف المرينى هو الذي صنع المارستانات في جنوب المغرب للغرباء والمجانين واجرى عليها النفقات وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية وما يشتهونه من الفواكه وامر الأطباء بتفقد أحوالهم في كل أمورهم ومداواتهم وما يصلح أحوالهم (الذخيرة السنية ص ١٠٠) ولم تكد تخلو مدينة من مارستان.

على أن الطب كان في أفريقية- كما كان في المغرب- مشاعاً بين طبقة وافرة من الفقهاء والمحدثين والأدباء .فهذا مثلاً الأمام السنوسي شارح البخاري له شرح على رجز ابن سينا في الطب وله شرح كبير على (الحوفية) في الفرائض والحساب ألفه وهو ابن تسعة عشر عاماً.

وقد أكد (رينو) أن علم الطب كان يدرس في جامعة القرويين بواسطة كتب ابقراط وجالينوس وديجينوس المعربة إلا أن كتب خزانة القرويين اندرس بعضها على يد الأسبان عام ١١٦١ م ولم تعد تدرس العلوم والطب رسمياً اللهم إلا ما كان من دروس يلقيها (أطباء) في جوامع العاصمة أو بعض زوايا المدن الأخرى حيث يعلقون على المصنفات العربية المخطوطة أو المطبوعة الموجودة في الطب بالمغرب محافظين

بذلك على ما يعرفونه من الطب التطبيقي وقد ازدهر في هذا الأبان بالشرق والأندلس خاصة علم البنات وطب العيون وظهر أمثال النبطي وتلميذه ابن البيطار وهما أندلسيان ورشيد الدين الصوري المتوفي عام ٦٣٩ وهو أكبر نباتي العرب طرافة وأصالة وقد عرف الشرق نوعاً من الاختصاص في المستشفيات فأضيفت مثلاً إلي مارستانات دمشق أجنحة للكحالة أو طب العيون.

والنبطي هذا هو أبو العباس أحمد بن محمد مفرج المعروف بابن الرومية ولد في اشبيلية عام ٥٦١ هـ (وفي رواية أخرى ٥٦٧ هـ) ودرس الأعشاب شخصياً دون اعتماد على ديسقور يدس وجالينوس واقتبس منه، تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص وعلمه الواسع وقد رحل إلي الشرق عام ٦١٣ هـ (أو ٦١٤) بعدما درس أعشاب الأندلس ومر بالمغرب حيث أشار في كتابه إلي أعشاب ومدن مغربية ودعاه الملك الأفضل للاستيطان بالقاهرة.

وقد صنف كتاباً حسناً كثير الفائدة، في الحشائش ورتب فيه أسماءها على حروف المعجم وفاق أهل زمانه في معرفة النبات وقعد في دكان لبيعه توفي باشبيليه عام ٦٣٨ .

أما ابن البيطار فقد ذكر لوكلير: أنه اعظم نباتي العرب وأنه لا يضاهيه من أطباء العرب سوى الغافقي والشريف الأدريسي وأبى العباس النبطي ورشيد الدين الصوري الذين درسوا كلهم الطبيعة ووسعوا دائرة المعلومات البشرية وقد استفاد ابن البيطار مما كتبه الصوري وتنقل في جبال الشام صحبة رسام كان يصور له الأعشاب خلف لنا اعظم مجموعة في العلوم الطبيعية الطبية عند العرب. وقد رحل إلي الشرق عام ١٢١٦ م أو ١٢١٧ م ومر بالمغرب وسجل ملاحظات شتى حول الأعشاب وبعض الأسماء البربرية التي اندرجت منذ ذاك في القاموس العربي .

وكان ابن البيطار يتجول مع تلميذه ابن أبى اصيبعة للبحث عن الأعشاب وقد مات في دمشق عام ١٢٤٨ م خلافا لما زعمه الحسن الوزان من أنه مات بالأندلس وذكر المقري أن ابن البيطار حشر في كتابه ما سمع به وقرأه في تصانيف الأدوية المفردة، ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الأدريسي السبتي وغيرها وضبطه على حروف المعجم كان أوحد زمانه في معرفة النباتات سافر إلي بلاد الأغارقه وأقصى بلاد الروم والمغرب وخدم (الكامل بن العادل) الذي عينه رئيس العشابين بمصر (ويسمى علماء النبات في الشرق بالعشابين والشجارين والنباتيين والحشائشيين كما في التذكرة التيمورية).

وكتابه (جامع المفردات) أكمل وأوسع ما صنفه العرب في الطب وقد ترجمه (لوكلير) إلي الفرنسية وهو يتضمن ألفى وصفة من أوصاف العقاقير.

رقد ذكر ابن البيطار عبد الله بن صالح الكتامي مع النبطي وأبي الحجاج الأشبيلي كأساتذة له ونقل عنه ابن البيطار عند تعرضه للأعشاب التي شاهدها بأسبانيا والمغرب وبالأخص أرباض فاس.

(وكتاب الأدوية) للشريف الأدريسي الذي أشار إليه ابن أبي اصيبعة والذي هو مليء بالملاحظات الشخصية قد أقتبس منه ابن البيطار في مائتي موضع من كتابه في الأعشاب. واعتمد عليه وحده في ثلاثين موضعاً وتحدث عن أعشاب المغرب وعرف أحياناً بأسمائها البربرية.

ولكن مرت فترة عصيبة بالشرق فتت عضد الفنون والفلسفة والتعاليم بسبب غارات المغول الذين ما لبثوا أن اعتنوا بالعلماء بعد إسلامهم بفضل جهود الطبيب قطب الدين الشيرازي تلميذ الفخر الرازي.

وتخرج عند ذاك أمثال القز ويني العالم في الطبيعة الذي يشبهه الغربيون بالعالم (لين) وبالأندلس ورث بنو الأحمر حضارة العرب من أوربا المسلمة وأصبحت (غر ناطة) التي ظلت تابعة لبني مرين فترة من الزمن ملجأ العلم والفن في أوربا المسلمة إلي سقوطها في يد الأسبان عام ٨٨٦ هـ. ومن ابرز مؤ رخي هذا العصر الذين عنوا بتاريخ الطب ابن الخطيب.

"ودراسة عصر ابن الخطيب مفيدة- كما يقول رينو- للطبيب لأنها عصر الطاعون الأسود الأكبر الذي هلك فيه حسب المؤرخين ثلث سكان المعمورة وقد صنف بعض الأطباء المغاربة مؤلفات في علل هذا الداء وطرق علاجها ".

ثم تعاقبت في العصور التالية أطباء واصلوا إثراء التراث العربي الإسلامي من بينهم :ابن ثابت علي بن سعيد التلمساني المتوفى (عام ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦).. له ٢٨ كتاباً خاصة في أصول الدين والطب.

عبد الرحمن سقين القصري ثم الفاسي المحدث كان مشاركاً في الأدب والتصرف والطب يقرئ ألفيه ابن سينا توفي عام ٩٥٦ هـ .

عبد الوهاب الزقاق الذي كانت له مشاركة في الأدب والأصلين والطب والتفسير والحديث والنحو ولي القضاء والفتوى بفاس.

وقد نصح المنصور السعدي ولده في رسالة وجهها إليه باستعمال الدواء إبان الطاعون الذي طرأ في عهده في وصفات تدل على براعة المنصور في الطب ومن جملة ما أوصاه به عدم فتح الرسائل إلا بعد غمسها في الخل القوي ثم تنشيفها وهذا يدل- كما يقول رينو ص ٧٩- على أن المغرب كان قد عرف إذ ذاك أن عزل المرضى أصلح وسيلة لدرء المرض.

ولا ينبغي الخلط بين الطاعون والوباء فالفرق بينهما كما يقول محمد بن أبي العاص الأندلسي صاحب (الرسالة في تحقيق الوباء) أن الطاعون مصحوب دائماً بذبيلة أي عقدة عصبية ملتهبة في حين أن الوباء قد لا يتمخض عن أي التهاب من هذا النوع ولكن كلاهما قاتل.

وبالرغم من انخفاض المستوى الاجتماعي العام كانت الوفيات قليلة إذا استثنينا الظروف الخاصة فقد ذكر (الحسن الوزان) (هوليون الأفريقي) أن في مجموع بلاد البربر بلغ معدل العمر ما بين ٦٥ و ٧٠ سنة ويرتفع هذا المعدل أحياناً إلي ٨٠ بل ١٠٠ سنة في المغرب بينما ينخفض إلي ٦٥ في ليبيا وأقل في السودان.

وقد أقام المغرب (محاجر صحية) لفصل المرضى عن الأصحاء مسهماً بذلك في محاربة التلوث المجتمعي .وكان الجذمي يعيشون في الكهوف القريبة من فاس وكانت في أرباض كثير من المدن حارات للجذمي.

ورغم ما استظهره (رينو) من أن التعليم الرسمي للطب والعلوم اندرس بجامعة القرويين أواخر القرن الماضي فإن (دلفان) أشار في كتابه حول فاس وجامعتها) (المطبوع عام ١٨٨٩) إلي اعتناء الطلبة بجملة من الكتب الطبية مثل الكامل للرازي والقانون والمنظومة لابن سينا وزبده الطب للجر جاني والتذكرة للسويدي وتذكرة الأنطاكي وكليات ابن رشد ومفردات ابن البيطار وكشف الرموز للجزائري ابن حماد وش وهو عبد الرزاق بن محمد بن محمد بن حماد وش الجزائري حج عام ١١٣٥ هـ. واهم مؤلفاته " كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب" مرتبة على الحروف (تحتوي على نحو الألف عشبه) وهو ينقل عن ابن سينا وابن البيطار والانطاكي وله أيضا " تعديل المزاج بحسب قوانين العلاج " (نحو العشرين صحيفة).

وقد تحدث (رينو) عن اهتمام الأطباء عندنا بالتشريح والعمليات الجراحية فلاحظ أن هذه العمليات لا تتحمض في الغالب عن ذيول مخطرة لندرة الاستعصاءات الناتجة عن التعفن أو الإصدار والتقييح ويستعمل الأطباء المغاربة في تضميد القروح بالزيت بعد الغليان أو القطران

الساخن والحناء والفحم وصمغ الصنوبر لاستئصال جراثيم التعفن وعند حدوث نزيف يستعملون لإيقاف الدم الصوفان والمساحيق المستخلصة من اليقطين (القرع الصغيرة) ودقيق الفول واللفافات للضغط فإذا أعياهم الآمر حاولوا الالتئام بخياطة حافتي الجرح في شكل منحرف ويلجئون كذلك إلي كي العرق أما بقضيب محمي واما بقطعة من خشب محماة ثم يضمد الجرح بالجاوي ويحكى أن القروح تلتئم في (حاحا والسوس) لا بالخياطة ولكن عن طريق عضة النمل الكبير لحافتي الجرح بحيث يقطع صدر البعوضة ويبقى الفكان عالقين بالقرح.

أما في جبر الأعضاء المنكسرة فان الأطباء المغاربة يعمدون إلي طريقة الدلك الذي سبق به المغاربة- كما يقول رينو- اكتشاف شامبيونيير، وكثيراً ما يعطى الطبيب لمن كسرت عظامه(أيلان) وهو حب يكثر في ناحية مراكش غني بمادتي الفوسفات وكاربونات الجير ويوقف داء الفتق بالات من جلد أو ثوب محشو بالصوف أما الكي فانه مستعمل في جميع الأمراض الباطنية وفي كثير من العمليات الجراحية.

وتقطع الأسنان المسوسة بأدوات خاصة ذكر رينو منها مجموعة بعضها مصنوع في المغرب وبعضها مجلوب من أوروبا ومن الأطباء من يضمخ السن بمركب من الثوم والملح والحريف (وهو الفجل الوحشي أو الحرف) ثم يملأون السن المسوسة بجذر جوز ريان بعد غمسه لا اللبن ويغطي الكل بالصمغ.

وتداوى أمراض الآذن بالجاوى والزعفران وعصير ناب الذيب أما القروح فإنها كثيراً ما تداوى بالعمليات الجراحية قي الأذن وهي عمليات خطيرة تكلل بالنجاح بسبب قلة القيوح.

أما العيون فان أمراضها كانت تشكل مع الزهري ثلثي أمراض أفريقيا الشمالية غيران للكحالين أي أطباء العيون المغاربة أساليب مفيدة لمعالجة أنواع الرمد ولهم فيه مهارة وكذلك في الجزائر ويستطيعون ان يزيلوا بحذق غشاوة العين المانعة من الأبصار بل يتقنون عمليات اصعب من هذه.

وذكر (كودار) في "وصف المغرب وتاريخها! ج ا ص ٢٣٨" أن الكي هو أعظم دواء للجراحات بالمغرب والجزائر وان هذه العملية أسفرت غالباً عن، نتائج عجيبة.

أما تبنيج المريض أثناء العمليات الجراحية فقد أكد رينو أن الأطباء المغاربة كانوا يستعملون (السيكران) وهو عشب مخدر وكذلك (جوز الطيب) في عملية الختان وقد حكى له الطبيب الجراح الحسن أنه توصل إلي تركيب دواء من السيكران والكبريت وغيرهما يكون البخار

المتصاعد من طبخة بمثابة مخدر يستمر تأثيره أربعاً وعشرين ساعة وذكر الدكتور (ميكريز) في كتابه (الأخبار) الصادر عام ١٨٥٩ بالجزائر أن الأطباء المغاربة يستخدمون وسائل الإيحاء والتنويم في معالجة مرضاهم و أجراء عمليات جراحية لهم بحيث يتوصلون إلى درجات شتى من التنويم ولا تختلف هذه المناهج عن الأساليب المستعملة عند الأوربيين ومنها تعليق زجاجة لامعة مثلاً أمام المريض فينام بينما المباخر ترسل روائح العطر والعود.

وقد وصف (كودار) كذلك في (تاريخ المغرب) (ج ا ص ٢٤٠) عمليات التنويم التي أشار إليها الدكتور ميكريز منها وضع زجاجة فوق طاولة مغطاة بخوان ابيض يتلألأ وراءها مصباح فيجلس المريض كلى مسافة قريبة مصوباً نظره نحو الضوء فيشعر بتثاقل وبعد بضع دقائق ينام وتتسارع دقات قلبه ويحرق البخور في الغرفة فيفقد النائم إحساسه.

وذكر (رينو) أن بعض الأطباء المغاربة متخصصون بعضهم في الأوجاع وبعضهم في أمراض العيون وبعضهم في الحميات أما أطباء الأسنان فإنهم كانوا يمارسون هذا الفن- في نظر رينو- بمهارة كبرى.

وكثيراً ما تستعمل أعضاء بعض الحيوانات لمعالجة الأمراض وهذه الطريقة تستعمل كثيراً في أوروبا (رينو ص١٥٥) ولا يجهل المغاربة جدوى اللحوم غير المطبوخة وقد أشار (الشيخ عبد الرزاق) صاحب (كشف الرموز) إلي خواص بعض أعضاء الحيوانات منها معالجة داء الكلب بمثقال (غرام) من كلية الكلب العقور بمجرد قتله ويؤيد هذا النوع من العلاج ما ذكره رينو من أن الدكتور (فرانتزان) نشر بحثا في " الأسبوع الطبي " (١٤ مايو ١٨٩٨) ذكر فيه أن مرارة الكلب العقور تحتوي على مادة مضادة لجراثيم داء الكلب.

ويستعمل الكحالون المغاربة أعضاء حيوانية خاصة في أمراض العيون من ذلك مستخلص الكبد والأكياس التي توجد فوق الكليتين والتي استعملها أيضاً (باطيس) في نيويورك ضد التهاب القرنية والملتحمة وكذلك (ضور) في ليون (ودرايي) في باريس.

ونشر (بنسيمون) بحثاً حول الطب والأطباء بالمغرب قبل الحماية في (مجلة المغرب الطبي) (شتنبر ١٩٥١) ذكر فيه أنه يجب أن نلاحظ أن الطب البدائي التقليدي بالمغرب كان يستعمل في عدة حالات أنواعاً من العلاج لم يعد نزاع في جدواها فمن ذلك أن المريض المصاب بالحصبة أي الحكيرة (بو حمرون) كان يجعل في غرفة يكسى فراشها وجدرانها

وأغطيتها بلون أحمر وهذه الطريقة في العلاج لا يزال يستعملها (الدكتور شاطينييز) الذي لاحظ أن إليها يرجع الفضل في تخفيف تفجر الحميرة والحمى وتدارك الاستعصاءات.

ولا يوجد بيطريون في المغرب ولكن إذا مرضت دابة يلتجأ إلي الطبيب أو الحداد على انه يوجد في جميع المدن بياطرة لهم معرفة ببعض الأمراض بل لهم اختصاص في أدواء الأفراس والبغال والحمير والجمال وبالأخص الكي والفصد أو الخصاء.

ومن المربين للخيول من يساعد على التوليد إذا صعب الوضع وقد لاحظ رينو بمزيد الدهشة استعمال المغاربة للتلقيح ضد مرض منتشر عند المعز يعرف بالبيور وهنالك أمراض مجهولة في المغرب مثل الكزار (تيتانوس).

وقد ساق رينو ٣٦ نوعاً من الأمراض التي تصاب بها الأفراس والبغال والحمير والجمال والبقر والغنم والمعز مع الأدوية المستعملة لعلاجها.

ومن العوائد البيطرية بالمغرب ما ذكره (أر كمان) في (المغرب الحديث) من انه عندما يلاحظ هزالا عند الأفراس بالرغم من حسن تغذيتها دون أن يكون لذلك سبب معلوم يعمد سائسها فيعطيها نصف رطل من الزبد النامس المذاب (أي ما يسمى عندنا بسمن الترياق) خلال ثلاثة أيام متوالية مع إخلاد الراحة.

وكثير من الأمراض المنتشرة في أوروبا غير معروفة بالمغرب ولا في الجزائر منها الحمى الوبائية المصحوبة بحبوب صغيرة والحمى الحصبية بينما تقل جداً الإصابات بالدفترية أو التيفويد.

بقدر ما كان يكثر السل في الصغار بقدر ما يقل عند الكبار أما الوباء فانه لم يظهر لا المغرب منذ ١٨١٨ م وظهرت الكوليرا لاخر مرة عام ١٨٩٥. وكان الجدري يظهر كل سبع سنوات تقريباً ويعمد بعض الناس إلي التلقيح ضد الجدري بحقن جراثيم بثور ود ما ميل العجل أو الناقة بينما يستعمل آخرون الكبريت والملح ويخلدون إلي الراحة في مكان مظلم.

وكانا داء(البواسير) كثير الانتشار لكثرة استعمال التوابل وكذلك أمراض المعدة والأمعاء بصورة عامة.

والحياة في الهواء الطلق مع قلة وسائل الدفء من شانها أن تثير السعال وداء العصب (الروماتيزم) ولكن المغاربة كانوا يستعملون كثيراً من المعاجين والأدهان التي لم تكن تخلو من جدوى واصالة.

أما الزهري (النوار أحب الإفرنج) فقد لاحظ الحسن بن محمد الوزان (ليون الأفريقي) انتشاره في المغرب في القرن العاشر الهجري بحيث كان عشر السكان مصابين به تقريباً والكبريت الموجود في حمة مولاي يعقوب نافع لهذا الداء.

ومن الأمراض الجلدية سلاطـ وهو انتفاخ الجلدـ الذي كان منتشراً بالمغرب لاسيما في سلا بقدر ما انتشر داء الفتق بالرباط وكلا المرضين كان ناتجاً عن وجود عناصر دخيلة في مياه الشرب.

وكذلك الجذام المنتشر بالمغرب وكانت بفاس حارة الجذمى بباب الخوجة ثم نقلت إلي الكهوف بعيداً عن المدينة عندما جددت الأسوار وقد لاحظ (رينو) أول هذا القرن عدم وجود حارات من هذا النوع بفاس غير أنه يوجد حي بمراكش قرب (باب دكالة) خاص بالجذمي وكذلك على بعد ساعة من (الجديدة) وكان يوجد قبل سنة ١٨٩٩ "دوار المجاذمة" يحتوي على ٢٠٠ من المرضى ولكنهم تشتتوا.

وقد أصدر السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن ظهيراً خاصاً في ١٠ رجب ٢٨٣ ١ الموافق ١٨ يونيو ١٨٦٦ جعلت بمقتضاه (جزيرة الصويرة) محجراً صحياً للدجاج.

وكان المخزن يتخذ الإجراءات اللازمة للحيلولة دون انتشار الوباء من الخارج بفضل الحصار الضيق الذي يضرب أيام الخطر ففي عام ١٠٨٩ هـ عندما ظهر الطاعون بمكناس والقصر " وقف الحراس من العبيد على (مشرع سبو) وغيره لا يتركون من يرد على فاس ومكناسة وعلى دائرة الملك وقد ظهر بفاس فأمر السلطان بتحريق ما بسوق الخميس.

وقد أشار (رينو) إلي اجتماع عقده أربعة من علماء فاس في ٨ شوال ١٣١٠ لامتحان طبيب مغربي فشهدوا بعد استفساره بتضلعه في الطب وقوانينه وتطبيقاته ومعرفته بتركيب الأدوية وتقاسيم الشرايين ووظائفها وعددها وعدد العظام وتمييزه بين أنواع العصب والعضلات في الجسم ومعرفة النباتات والأزهار والأعشاب الطبية وخواصها واسمائها وطرق أذابتها في الوقت الصالح والأوقات المناسبة لوصفها للمرضى وبعد المداولة بين العلماء خولوا للطبيب إجازة.

تلك معالم ومراسم تعطينا صورة مكبرة عن عطاءات الفكر الإسلام ي في دعم معطيات الفكر الإنساني مما يجعل أن يتخذ أساسا للدراسات الطبية في الجامعة الإسلامية.

الفصل السابع
دور المغرب في نشر الإسلام ولغة القرآن
بالغرب الإفريقي

حين يريد شخصٌ ما أن يتحدث عن انتشار الإسلام وحضارته وثقافته في المنطقة التي تُعرف اليوم بغرب أفريقيا أو منطقة جنوب الصحراء، وتُعرف قديماً بالسُّودان الغربي، سوف لن يجد أكثرَ من ثلاثة عناصر بشرية هي التي كانت وراء هذا الانتشار الواسع، وهي: العنصرُ المشرقي، والعنصُر المغربي، والعنصُر الإفريقي المحلّي.

فأما العنصر المشرقي فكان له الفضلُ في إيصال الرسالة المحمدية وحَملها من مَبعثها في المشرق ووضعها في يد الذين استَلَمُوها من بعدهم من أهل المغرب في الشمال الإفريقي. فقد كان دورُه التبليغَ وقد بَلَّغَ. ثم بعد ذلك حين رَسَخَت أقدامُ هذا الدين في الرُّبوع الإفريقية، لم تنقطع الصلةُ بالمشرق، بل ظلَّت قائمةً على الدوام بفضل ركن الحَجِّ الذي فرضَه اللهُ على المسلمين كافةً لكي يحافظوا على هذه الصلة الدائمة بينهم ولو مرةً كلَّ عام، وبفضل الرِّحلات المتبادَلة ثقافياً وتجارياً، والكُتُب العلمية والدينية التي انتشرت في أفريقيا، وأخيراً بفضل بعض العلماء المشارقة الذين كان لهم إشعاعٌ على المنطقة واتصال مستمرٌّ برجالاتها، ومن أشهرهم وأشدهم تأثيرا الإمام جلال الدين السيوطي.وقد أقامَ عددٌ منهم - على قلَّتهم - في أرض السودان ولو لفترة قصيرة، واقتصر آخرون على ما كتَبوه وألَّفوه، فقرأه الأفارقةُ وتمثَّلوه وتأثَّروا بما فيه. والمقامُ لا يسمح هنا بالتفصيل في الأثَر المشرقي في نشر الثقافة الإسلامية والعربية بالمنطقة.

أما العنصُر الإفريقي المحلّي، فهو المتمثِّلُ في أولئك الأفارقة أنفسهم الذين أسلَموا وحسُن إسلامُهم، واعتنقُوا هذا الدين عن حُبٍّ وإقبالٍ وطواعية،لما وجدوا فيه من فضل وعدلٍ ومُساواةٍ وتكريمٍ لإنسانيتهم ومؤاخاةٍ لهم مع غيرهم من أبناء الشعوب الإسلامية الأخرى على اختلاف أجناسهم لا فضل لبعضهم على بعض، ولا للَونٍ على لونٍ. فقاموا من جانبهم أيضاً بإتمام تبليغه لِمَن حولَهم ولِمَن بعدَهم ووراءهم بكل وسائل التبليغ المُمكنة، بالدعوة والموعظة الحسنَة أحياناً، وبالجهاد - إن اقتضى

الأمرُ ذلك - أحياناً أخرى. وما كان لهذا الدين الحنيف أن يستمرَّ ويصمُدَ، بل ويتوطَّد ويتجَذَّر طيلةَ القرون الماضية، لولا أن الأفارقة أنفسَهم، على اختلاف أعراقهم وقومياتهم، قد أقبلوا عليه بمحض إرادتهم ورغبتهم، وأحاطوه بحبِّهم ونَصَروه بسيوفهم، وأسكَنُوه في أعماق قلوبهم وجوارحهم.

أما العنصر المغربي فكان له دوران أساسيان: أولهما: أنه توسَّطَ بين هذين الطَّرَفين المشرقيِّ والإفريقي، بحمل المِشعل من يد هؤلاء ووضعه بكل أمانة في يد أولئك، وثانيهما: أنه بقيَ على الدوام في حماية هذا الدين ورعاية حامليه الجُدُد وإسنادهم ومُؤازرتهم وتأمين ظهورهم. إن الإسلامُ لم يكن ليستقرَّ في المنطقة التي نتحدَّث عنها إلا بواسطة المغاربة من أبناء الشمال الإفريقي عموماً والمغرب الأقصى على وجه الخصوص. فكما حمَلَ طارقُ بنُ زياد مِشعلَ الإسلام من يد والي المشرق على المغرب موسى بن نُصير، فوصَلَ به إلى العُدوة الأخرى من بَرِّ أوروبا الغربية، كذلك قام بحمل المِشعل من يد عُقبة بن نافع الفهري، ومَن جاء بعدَه من الوُلاة العرب، مجاهدون مغاربةٌ أبطالٌ انحدروا جنوباً إلى أدغال الصحراء ثم إلى ما وراءها - إلى أن وصلوا أرضَ السودان الغربيِّ عبرَ البَوّابات والمداخل المعروفة (مراكش/ أودَغست / ولاّتَة - سِجلماسة/ تَغازّة - الأغواط/ توات - طرابُلُس/ غُذامس... وغيرها من المَحَطّات والمعابر الصحراوية القديمة).

وهنا يبرُزُ دورُ عبد الله بن ياسين الجَزُولي ذلك الفقيه المجاهد الذي أمضى سبعَ سنوات يطلب العلمَ في الأندلس، وسنوات أخرى في المغرب، ورابَطَ بجانب شيخه الفقيه الزاهد الوليِّ الصالح وجَّاج بن زَلُّو اللَّمطي (ت. ٤٤٥ هـ) الذي أقام فترةً بالقيروان يتلَقَّى العلمَ والفقه المالكي على يد شيخ المذهب في عصره أبي عمران الفاسي، ثم عاد ليخُطَّ طريقَه في مجال نشر الدعوة والإسلام السُّني الصحيح ومحاربة البدَع والمُبتَدعة والخوارج وغيرهم، ويؤسس رباطه الذي أطلق عليه اسمَ (دار المرابطين).

لقد انطلق ابنُ ياسين - كما هو معلوم - من دار المرابطين هذه متجهاً نحو أقاصي الصحراء رفقةَ يحيى بن إبراهيم الجُدالي أمير قبيلة صنهاجة ذاتِ الفروع الثلاثة الكبرى المعروفة (جُدالة ولمتونة ومَسُّوفة)، وقد كُلِّفَ بهذا الأمر - بعد اختيار دقيق وصائب - من شيخه وأستاذه في الدين والمذهب والورع والجهاد وجّاج اللمطي الذي إنما فعلَ ذلك امتثالاً لتوصية الشيخ الكبير أبي عمران الفاسي نزيلِ القيروان، بأن يصطفي من قِبَله رجلاً يرتضيه لتولّي مهمة تعليم قبائل الصحراء الممتدة إلى أرض

السودان أُمورَ دينهم الذي اعتنقوه من قبلُ، وتعميق فهمهم له وإصلاح عقائدهم على مذهب أهل السُّنة والجماعة. ولكن الرجل لم يقف عند مهمته الدعوية في الصحراء، وإنما تطلَّع لما هو أعظمُ وأخطرُ، فكان المؤسِّسَ الحقيقي للدولة المرابطية. ثم استُشْهِدَ ابنُ ياسين رحمه الله في إحدى معاركه مع البرغواطيين بالمغرب الأقصى (٤٥١ هـ)، ليأخذ زمامَ صنهاجة أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي عاد إلى الصحراء رفقةَ فقيه مغربي آخر هو أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي(٣٠)، فأكمل الدور الذي بدأه ابنُ ياسين في الصحراء، وعُهِدَ إلى يوسف بن تاشفين إتمامُ مهمة تمهيد الشمال الإفريقي انطلاقاً من المغرب الأقصى. وبذلك أصبح المرابطون يتحكَّمون في إمبراطورية شاسعة مُوحَّدة تمتد أُفقياً من الحدود المصرية إلى البحر المحيط، وعَمُودياً من بلاد الأندلس إلى حدود النيجر ونهر السنغال جنوباً.

ولقد تحدَّث كثيرٌ من المؤرخين عن دور المرابطين والحاملين لواءَ دعوتهم من فقهاء ومجاهدين في نشر الإسلام بالصحراء الكبرى وما بعدها ووراءها من بلاد السودان، وقرَّر المحقِّقون منهم أن وجود الإسلام بهذه المناطق كان سابقاً لقيام أمر المُلثَّمين، وهناك شواهدُ وأدلة تاريخية كثيرةٌ على ذلك، وإنما عمل هؤلاء في المقام الأول، على تصحيح فهم هذا الدين وتنقية العقائد من الشوائب والانحرافات والبِدَع والخرافات بحكم كونهم من أهل السُّنة وأنصار المالكية. فدورُهم كان إصلاحياً بالأساس، وهو الدورُ الذي قاموا به وركَّزوا عليه في الشمال من بلاد المغرب الكبير كله شرقاً وغرباً حين حاربوا البرغواطيِّين وغيرهم من أصحاب النِّحَل والانحراف. لكن هذا لا يمنع من القول إنهم عملوا أيضاً، بجانب حركتهم الإصلاحية، على إتمام رسالة التبليغ والدعوة في المناطق الأخرى التي لم يكن الإسلامُ قد وصلَها من قبلُ. ثم إن تثبيت المرابطين لقواعدهم ورباطاتهم في أعماق الصحراء ابتداءً من أودغست، التي استولوا عليها سنة ٤٢٢هـ، وغيرها من المَحطَّات والمُدن والرِّباطات التي استقرُّوا بها، قد أعطى لوجود الإسلام - بلا شك - دفعةً جديدة وقويَّة كانت بمثابة موجة عالية حَملَته إلى نقط بعيدة فيما وراء الصحراء التي كانوا سادتَهَا بلا مُنازِع، فانطلقَ داخلَ الأرض السودانية انطلاقَ السُّيول من قِمَم الجبال. وليس من قبيل الصُّدَف أن تشهد فترةُ القرن الخامس وبدايةِ السادس الهجري - وهو عصر المرابطين في الصحراء - ظهورَ ممالكَ سُودانية ذات طابع إسلامي وسيطرة مرابطية صحراوية جزئية أو كلية، وهي: مملكة تَكرُور على نهر السنغال التي أسلم مَلِكُها في هذا القرن واندمجت في دولة مالي الإسلامية بعد ذلك. وكانت قبائلُ أمازيغية من لَمطةَ قد تدفَّقت عليها منذ القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) ، ثم مملكة غانة

التي أصبحت تحت سيطرة المرابطين منذ سنة ٤٦٠ هـ واندمجت أيضاً في دولة مالي بعد ذلك.

وأخيراً دولة تُنْبُكتُ التي أجمعت المصادر التاريخية على أن الذين أسسوها هم قبائل من الطوارق الملثَّمين قريباً من نهر النيجر. ولم يأت القرنُ السادس الهجري حتى كانت دولةُ كانم وبُرنُو قد قامت حول بُحيرة تشاد على يد أسرة من الملثَّمينالطوارق، وقد زارها ابنُ بطوطة ووجد أهلَها مسلمين ومَلِكُهم يسمى إدريس ومن ممالك الملثَّمين المُسلِمة التي زارها ابنُ بطوطة أيضاً في القرن الثامن مملكة تَكَدَّة وكان ملكُها إذ ذاك يسمى إزار، وقاضيها مغربياً يسمى إسحاق الجاناتي، وشيخُ المغاربة فيها سعيد بن علي الجزولي.. وذكر ابنُ فضل الله العُمري في "المسالك" ثلاثة ممالك بربرية إسلامية في تلك المناطق المُحاذية للسودان أصبحت أراضيها فيما بعد جزءً منه، وهي سلطنة آهير وسلطنة نموسة وسلطنة تادَمَكَّة. ثم تتابعت الممالك الإسلامية الكبرى بعد ذلك كمملكة مالي ومملكة سُنغاي ودولة آل فودي.

قام المغاربة بدور الوسيط الذي أوصل الرسالة إلى أهل السودان الغربي، وقاموا بدور آخر وهو رعاية الإسلام في تلك الديار بحكم القرب والجِوار وحماية ظهره والدفاع عن وجوده والعمل على إرساخ جذوره وتثبيت دعائمه وتصحيح مسيرته باستمرار. ولذلك فإن الحضور المغربي وتأثيره القوي كانا متميِّزَين عبر التاريخ عن باقي المُؤثِّرات الأخرى.

فأين تجلىَّ هذا الحضور والتأثير؟

أول مظهر من مظاهر الحضور الدائم والتأثير المغربي القوي يتجلى في الطابع المذهبي للإسلام الذي انتشر في أفريقيا الغربية وظلَّ قائماً على حاله إلى يوم الناس هذا. فالإسلامُ في هذه المنطقة إسلامٌ سُنِّيٌّ على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه المشهور بوسَطيَّته واعتداله، وعلى العقيدة التوحيدية السَّلفية إلى عصر المرابطين و العقيدة الأشعرية ابتداءً من عصر الموحِّدين. وكان للمرابطين وفقهائهم ودُعاتهم من المغاربة دورٌ أساسيٌّ في تثبيت هذا المذهب السُّنِّي وعقيدة التوحيد الصافية في نفوس الأفارقة. والعلماءُ والفقهاءُ الذي توافدوا على المنطقة من الشمال الإفريقي بعد ذلك وعلى مرّ العصور، كانوا جميعاً من أصحاب هذا المذهب وهذه العقيدة، وحتى الفرقُ والمذاهبُ الصوفية التي انتشرت هنالك كانت فرقاً سُنية مُعتدلة كالسَّنوسية والزرُّوقية والقادرية والتيجانية. ومناهجُ التعليم التي وُضعت وطُبِّقت عبر المراحل التاريخية المختلفة كانت تقوم على أساس كتُب الفقه المالكي بأُصوله وفروعه وشروحه وحواشيه. وكلّ العلماء الذين برَّزوا واشتهروا في السودان الغربي كانوا من فقهاء المالكية وعلمائها بلا استثناء. لذلك نجد أسماءهم تملأ كتبَ طبقات المالكية

"كالديباج" لابن فرحون، و"نيل الابتهاج وكفاية المحتاج" للتُّنبكتي، و"شجرة النور" لابن مَخلوف، وغيرها.

أما المظهر الثاني من مظاهر الحضور والتأثير، فيتجلى في مناهج التعليم ومصادره ومراجعه وأسانيده. فهي في أغلبها مغربية روحاً وجَسَداً. والمنهجُ المغربي في التعليم يبرزُ منذ الدخول إلى الكُتّاب والبدء في حفظ القرآن برواية ورش، إلى تعلُّم الكتابة بالخط المغربي المعروف والمتميِّز بشكله ورسمه ونُقَطه وترتيب حروفه، إلى حفظ المتون الفقهية واللغوية والأدبية، ثم مرحلة التبحُّر في مختلف العلوم باستخدام المصادر والمراجع المغربية والأندلسية في غالب الأحيان، باستثناء بعض المصادر السُنية المشرقية (المالكية وغيرها) كان المغاربةُ أنفُسُهم يعتمدونها ويرجعون إليها "كمختصر" خليل وشروحه وكتب السيوطي وابن حجر... وغيرها. وقد أورد المرحوم الأستاذ إبراهيم الكتاني في مقدمة تحقيق كتاب "فتح الشكور" للولاتي، قائمةً طويلة بأسماء الكتب المغربية التي كانت تُدرس في مراكز التعليم بالسودان الغربي، "كالشفا" لعياض، و"دلائل الخيرات" للجزولي، و"مقدمة ابن آجرُّوم في النحو"، و"شرح المكودي على الألفية"، و"المرشد المُعين" لابن عاشر، و"لامية الزَّقاق"، و"الدُّرَر اللوامع" لابن بَرِّي التازي، و"إضاءة الدُّجُنَّة" للمقَّري، و"شرح الحكَم العطائية" للشيخ زروق الفاسي، و"المدخل" لابن الحاج، و"الشروح المغربية للمدوَّنة" وغيرها من كتب الفقه المالكي. هذا فضلاً عما ورد في حديث طويل له عن الأسانيد المغربية في الروايات والإجازات التكرورية السودانية.

عُمق التأثير المغربي في مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي وأخيه عبد الله وابنه محمد بلُّو، وهؤلاء الثلاثة كانوا من أكبر العلماء وأكثرهم تأليفاً في عصرهم، ممن يمكن اعتبارُهم بمثابة نماذج لسواهم من علماء السودان الذين نجد في فهارسهم وأسانيد شيوخهم لائحةً بأسماء الشيوخ المغاربة والأسانيد المُتَّصِلة بهم في الرواية والأخذ والإجازة والإسناد، وفيها أيضاً صورةٌ واضحة عن هذا التأثير.

والجانب الثالثُ يتجلَّى في الطُّرُق الصوفية التي انتشرت بأفريقيا الغربية. فكلُّها طرُقٌ مغربية كالسنوسية والزرّوقية والشاذلية والناصرية الدَّرعية والتيجانية. أما القادرية فهي وإن كان منشأُها مشرقياً (نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني). إلا أنها تَكيَّفت واصطبغت بالصبغة المغربية منذ أن دخلت إلى المغرب في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) - فيما قيل - على يد الشيخ أبي مدين شُعيب الغَوث دفين الجزائر، وأخذت بعضُ فروعها أسماء مغربية. وكان الذين نشروها في

السودان الغربي هم الشيوخُ الكُنتيّون الذين أقامت أُسرتُهم فترة بمنطقة توات، ثم تعمَّقوا في قلب الصحراء ومناطق من السودان الغربي.، ومنهم أحمد البَكاء وابنُه الشيخ عمر الذي أصبح - كما يقول بول مارتي -: «الرئيس الأعلى للطريقة» وأطلق اسم أبيه على فرع القادرية الذي هو مؤسِّسُه، ويقصد الطريقة البكائية التي نشأت في زاويتهم بتوات.

وفي عهد الشيخ المختار بن أحمد الكنتي المعروف بالكُنتي الكبير (ت. ١٨١١ هـ) أُحدِثَ في أزواد فرعٌ آخر جديد للطريقة القادرية سُمِّي بالطريقة المُختارية نسبة إلى الشيخ المختار. على أن الشيخ عمر نفسه أخذ الطريقة عن الداعية الكبير أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي اعتبره بول مارتي أيضاً «الرئيس الأعلى للطريقة القادرية في الغرب الإفريقي» كله. وكان الشيخ عثمان بن فودي نفسه قادريَّ الطريقة، وقد أوصل سلسلة سنده في هذه الطريقة بالشيخ المغيلي. ولا شكَّ أن تأثير الطرق الصوفية المغربية في هذه المنطقة تأثير قويٌّ جداً ما يزال فاعلاً وحاضراً في كافة الطبقات والشرائح الاجتماعية على اختلافها، ولا شكَّ أيضاً في أنها قامت بأدوار وأدَّت خدماتٍ جليلةً بإسهامها الكبير في نشر الدين والثقافة والتعليم العربيَّين الإسلاميَّين، من جهة، وبصمود رجالها في وجه الغزو الاستعماري والثقافي في العصر الحديث من جهة أخرى.

أما المظهر الرابع فيتجلى في دور علماء المغرب وفقهائه ودُعاته، سواءٌ منهم الذين كان تأثيرُهم مباشراً بحضورهم في أرض السودان أو الحضور إليهم في أرض المغرب، أم غيرَ مُباشِر بواسطة كتُبِهم ومؤلفاتهم التي انتشرت واشتهرت في أفريقيا الغربية، وأصبحت تمثِّل المصادرَ والمراجع المعوَّل عليها والمتونَ التي لا بد من حفظها واستظهارها والاستشهاد بأقوالها ونصوصها.

فأما الوافدون من فقهاء المغرب وعلمائه ودُعاته، فكانت رحلتُهم إلى السودان الغربي مستمرّةً طيلة مراحل التاريخ الإسلامي دون انقطاع. ونحن وإن كنا لا نجد لائحةً بأسمائهم في القرون الأربعة الأولى للهجرة، فإن الدليل على وجودهم قائمٌ، وحضورهم ثابتٌ لا شكَّ فيه. فالإسلامُ لم يكن ليصل إلى تلك البقاع، ويستقرَّ في تلك الأصقاع قبل المرابطين، دون دعاة وفقهاء وأئمة كان همُّهم في نشر رسالة التوحيد وثقافة الإسلام ولغة القرآن وليس في تخليد أسمائهم. وابتداء من العصر المرابطي، بدأنا نعثر على أسماء فئةٍ من هؤلاء أمثال عبد الله بن ياسين الجزولي، وأبي بكر الحضرمي المرادي، وأبي عبد الله بن وانسول السجلماسي أحد مصادر ابن خلدون المعتمدة في أخبار مالي، والفقيه محمد بن محمد بن علي اللمتوني صاحب المسائل الفقهية التي بعث بها إلى السيوطي مستفسراً سنة ٨٩١هـ، وأبو عثمان سعيد الدكالي الذي أقام بمملكة مالي مدة طويلة

(خمسة وثلاثين عاماً) وكان من أهم مصادر ابن فضل الله العُمري الشفوية عن أحوال السودان، وهناك أسماء أخرى لفقهاء وقضاة وغيرهم ذكرهم ابنُ بطوطة في رحلته للسودان (القرن الثامن الهجري) مثل الفقيه محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان بمدينة كوكو، ومحمد بن الفقيه الجزولي بعاصمة مالي، وصهره الفقيه المقرئ عبد الواحد، وعلي الزُّودي المراكشي من الطلبة، وأبي إبراهيم إسحاق الجاناتي قاضي تَكَدَّة، والفقيه محمد بن عبد الله من أهل تكدَّة أيضاً، فضلاً عن جماعة آخرين ممن لم يذكر صفتهم.

وكان لعلماء توات - وخاصة أسرة الكُنتيّين - حظوةٌ خاصة عند ملوك بُرنو الإسلامية ويعتبرونهم من المرابطين وينظرون إليهم نظرة إكبار وتعظيم، ويسعون لاستقدامهم إليهم وإغرائهم بالإقامة بينهم. وقد احتفظت لنا بعضُ المصادر بنصّ رسالة وجَّهها أحدُ سلاطين برنو سنة ٨٤٣ هـ إلى هؤلاء المرابطين في منطقة توات يقول فيها :« فقد عجبنا من أمركم لماذا تركتم عادة كبرائكم؟ لماذا قصَّرتم عن النزول وإرسال البعثات إلى بلادنا منذ عهدكم مع كبيرنا. فأنتم لم تعودوا إلينا منذ ذلك الحين... فعليكم أن تأتوا إذن كعادتكم. لأن البلاد بلادكم كما كانت بلاد أسلافكم..».

ومن أشهر مشاهير العلماء الذين قدموا من توات، فزاروا المنطقة وأقاموا فيها واحتفظت لنا كتبُ التاريخ بأسمائهم: نذكر في مقدمتهم أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي (٩٠٩ هـ) صاحب التصانيف والرسائل والأجوبة المعروفة. كانت له حظوةٌ كبيرة عند ملوك كانُو وكاتشينا ببلاد الهوسا، وملك السُنغاي أسكيا الحاج. كما كانت له اليدُ الطُّولى في رسم خطوط السياسة الشرعية لهذه الإمارات وتعيين القضاة وإقامة الحُدود الشرعية، وإصلاح أمور المجتمع الدينية والدنيوية والتعليمية والثقافية، وتكوين الأئمة والمُرشدين والفقهاء والدعاة، وتقديم المشورة والنّصح للحكّام وذوي الأمر الذين كانوا ينزلون عند رأيه وأحكامه ومشورته ولا يُمضون شيئاً ذا بال إلا بموافقته. وقد ترك المغيلي مجموعة فتاوى ورسائل فيها تحديدٌ وتوجيه لمعالم الطريق التي ينبغي أن يسلكها الحُكام في سائر أمورهم، فصار له شأن كبيرٌ عندهم، واستمرَّ تأثيره أجيالاً من بعده حتى وجدنا خلفاء الدولة العُثمانية الفوديوية بعد حوالي ثلاثة قرون يعتبرون كتبَه ورسائله وفتاواه المِشكاةَ التي بها يستنيرون، والمَعلَمَ الذي به يهتدون، فلا يفترون عن ذكره والاحتجاج بأقواله وآرائه في كل ما تركوه من أعمال ومصنَّفات. ويندر جداً أن تجد كتاباً من كتب تاريخ السودان الغربي حديثاً أو قديماً، خالياً من ذكر المغيلي ومآثره. ولم يكن

المغيلي وحده صاحب الشأن والتأثير، فقد جاء آخرون أيضاً وكان لهم دورٌ كبير في الحياة العلمية والثقافية بكانو وكانشينا، منهم الفقيه البلبالي (مخلوف بن علي بن صالح) (ت. بعد ٩٤٩ هـ)، وعبد الرحمان سُقَّين (ت. ٩٥٦ هـ) تلميذ ابن غازي وغيرهما. وما هؤلاء الذين ذكرناهم سوى عيِّنة ممن احتفظ التاريخُ بأسمائهم، من العلماء والفقهاء الذين وفدوا إلى إفريقيا وتركوا فيها بعض آثارهم وبصماتهم. مع العلم أن كتابة تاريخ العلم والعلماء في المنطقة لم تبدأ في الظهور إلا مع أوائل القرن العاشر الهجري، أي مع ظهور كتاب كعت المسمى "تاريخ الفتاش" الذي بدأ صاحبُه في كتابته سنة ٩٢٥ هـ، وما تبعه من مؤلفات أخرى ككتابَي أحمد بابا التنبكتي "النَّيل والكفاية"، وتاريخ السعدي المعروف "بتاريخ السودان"، ثم "تذكرة النسيان"، وما تبعها من بقية الكتب الأخرى؛ أما قبل ذلك فلم تكن لدينا وثائق أو فهارس بها أسماء العلماء. ولذلك لا غرابة أن تضيع أسماءُ الكثير من العلماء والفقهاء المغاربة الذين أسهموا في نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية وبناء النهضة العلمية طيلة القرون التسعة الأولى، إلا ما جاء عَرضاً على لسان بعض الرَّحالة والمؤرخين والجغرافيّين ممن دخلوا المنطقة (كابن بطوطة وابن الوزّان) أو وصفوها من بعيد كالبكري والعُمَري والإدريسي والمقريزي وابن خلدون وسواهم.

وقد اهتم الرحّالةُ الغربيّون بدورهم منذ بدأوا استكشاف الصحراء وإفريقيا الغربية، بتسجيل ظاهرة الوجود العربي والعنصر المغاربي في المنطقة والتحدُّث بذلك في كتاباتهم. فقد كتب الرحّالة البرتغالي ألفيس دا كادا موستو (*Alfise da Cada Musto*) الذي زار منطقة السنغال في القرن الخامس عشر أنه يوجد بجانب السلطان فقهاء وأئمة دين من المغرب والصحراء يرافقونه ويُملون عليه ما ينبغي تطبيقُه من أحكام. وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي كتب مؤرخ برتغالي آخر وهو (فرنانديز: *Fernandes*) عن وجود علماء دين آخرين جاؤوا من فاس أو مراكش كانوا مقيمين في السنغال. وهناك رحّالة غربيون من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لاحظوا هذه الظاهرة أيضاً في مناطق مختلفة من إفريقية، ومنها منطقة الكاميرون، وسجَّلوها في كتاباتهم.

وهناك في مقابل الوافدين من المغرب على السودان الغربي، فئةٌ من الأفارقة قدموا إلى المغرب في رحلات عِلمية خاصة، فأقاموا به وأخذوا عن أشياخه وعلمائه، وفئةٌ أخرى جاءت في رحلات سِفارية أو حَجِّية، فوجدت في إقامتها مناسبةً للاحتكاك بعلماء المغرب والاطلاع على مؤلفاتهم وربط الصلة العلمية المُباشِرة بهم. ولعل صيتَ الأديب الشاعر أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي (ت. ٦٠٨ أو ٦٠٩ هـ) - أقدمِ

الوافدين الأفارقة المعروفين إلى المغرب - قد طرق الأسماعَ في كل بقاع الأرض، بسبب بيتين رائعين أنشدهما في مدح الأمير الموحِّدي يعقوب المنصور وهما قوله:

أزالَ حِجابَـه عنـي وعَينـي تَراهُ من المَهابة في حِجابِ

وقَرَّبنـي تفضُّـلُه ولكـن بَعُدتُ مَهابـةً عند اقترابـي

ورغم أن السبب في وجود الكانمي بالحضرة المراكشية واتصاله بأميرها المنصور غيرُ معروف على وجه الدقة، إلا أنه من الثابت أن الرجل اختلط بالأوساط العلمية لعاصمة الدولة المُوحِّدية، وكانت يومها تعجُّ بالعلم والعلماء، وقرأ فيها وأقرأ، ورحل منها إلى الأندلس ثم عاد إليها وقضى فيها بقية حياته إلى أن وافاه أجله.

ومن أعلام السودان الذين رحلوا إلى المغرب أيضاً الإمام القاضي كاتب موسى في عهد سلطان مالي منسا موسى (ق. ٨ هـ). وقد كان من كبار المشايخ وتولى إمامة المسجد الكبير بتنبكتو. قال عنه السعدي في تاريخه: «وهو من علماء السودان الذين رحلوا إلى فاس لتعلُّم العلم في دولة أهل مالي بأمر السلطان العدل الحاج موسى». وفي هذه الإشارة ما قد يفيد بأن هذا السلطان - على الأقل - كان يرسل بعثات طلابية للتعلُّم في المغرب، وربما كان يقدِّم لهم من المعونات المالية وغيرها ما يقوّي عزمَهم ويشجّعهم على تحمُّل أعباء الغربة والإقامة في طلب العلم.

ولم يكن كاتب موسى أولَ شخص يُبعَثُ إلى المغرب للتبحُّر في العلوم في عهد هذا السلطان المعروف بشغَفه بالعلم والكُتُبِ والثقافة العربية، فمن الطرائف التي حكاها السعدي في تاريخه أن الملك منسا موسى حين رحل للحج رجع ومعه الشيخ عبد الرحمان التميمي ليستعين به على نشر العلم في بلده مالي، ولكن هذا الفقيه المشرقي لم يكن له شُفوف على علماء السودان وطلبتها، فوجد نفسه مضطراً للرحلة إلى المغرب لزيادة التعلُّم وخاصة في الفقه المالكي وفروعه. قال السعدي متحدثاً عن الشيخ يحيى التادلسي (ت. ٨٦٤ هـ) وهو من علماء تُنبكتُو الكبار: «وروي أن طلبة سَنكَري إذا جاؤوه لأخذ العلم يقول: يا أهل سَنكُري، كفاكُم سيدي عبد الرحمان التميمي، وهو جاء من أرض الحجاز صحبة السلطان موسى صاحب مالي حين رجع من الحجِّ، فسكن تُنبُكتُ وأدركه حافلاً بالفقهاء السودانيّين، ولما رأى أنهم فاقوا عليه (كذا) في الفقه، رحل إلى فاس وتفقَّه هنالك، ثم رجع إليه فتوطَّن فيه...». وإذا كان لنا ما نعلِّق به على هذه القصة، فهو أن الرحلة إلى المغرب وعواصمه،

كانت عند أهل السودان من الأمور التي تُكسب صاحبَها جاهاً ومكانةً بين العلماء، وأن طريق الفقه المالكي إنما يُوتَى من المغرب لا من المشرق. والظاهر أن الذي دفع التميمي إلى الرحلة للمغرب وحَفَّزَه لها هو السلطانُ موسى، ولاسيما أنه كان بجانبه مستشارٌ أندلسيٌّ مغربي ذو كلمة نافذة هو أبو إسحاق إبراهيم الساحلي الذي زار المغرب هو الآخر في سِفارة بين سلطان مالي وأبي الحسن المرينيّ.

ويقول أحدُ الباحثين المتخصّصين في العلاقات الثقافية المغربية السّودانية، إن ظاهرة الرحلة لطلب العلم بالمغرب، أخذت مع بداية القرن التاسع الهجري، «تعرف نمُواً مطَّرداً ومُتزايداً، ويتضح لنا ذلك من خلال بروز عدد من العائلات العلمية السودانية، نخصُّ بالذكر منها عائلتَي أقيت وبُغَيغ اللتين لمع نجمُهما في بلاد السودان منذ النصف الثاني من القرن التاسع الهجري. وكان العديدُ من أعلام هاتين الأسرتين قد دخل المغرب ليأخذ من فقهائه. ومنهم من توفي ودفن بالمغرب».

وبمناسبة الحديث عن أسرة أقيت، وهي أسرة صنهاجية كبيرة، يجب أن لا نغفل ذكر عُمدة هذه الأسرة وأُسطوانتِها ورَحاها في العلم والمشيخة ومفخرتها عبر التاريخ، ونعني به أبا العباس أحمد بابا التنبكتي الصنهاجي. فرحلتُه إلى المغرب التي دامت حوالي أربعة عشر عاماً (١٠٠٢-١٠١٦ هـ) هي أشهر رحلة في تاريخ العلاقة الثقافية بين المغرب والسودان. ورغم أن الرجل لم يأت المغرب طائعاً ولا راغباً وإنما أُكرِهَ على المجيء، لكن نازلته هذه من النوازل التي يصدقُ عليها قولُ الله تعالى: وعسى أن تَكرَهُوا شيئاً وهو خَيرٌ لكُم. فقد أخذَ عنه في مراكش خلقٌ كثير، ولكنه بالمقابل أخذ وقرأ وألَّفَ واطَّلَعَ على ما لم يكن - وهو بالسودان - ليطَّلع عليه أو يصل إليه من النوادر ونفائس الكتب التي حمل بعضَها معه. وقد اعترف أحمد بابا نفسُه في بعض مؤلفاته بهذا الفضل، فضلِ إقامته بالمغرب وما عادت عليه بالنفع العميم. بل إن أحمد بابا لم يكن لينال تلك الشهرة التي نالها والصِّيتَ الذائعَ الذي أصبح له، لولا تلك الرحلة التي لقي فيها مَن لَقيَ، وتلمذَ له من تتلمذَ. وما كان مجيءُ أحمد بابا لوحده في تلك الرحلة التي أُكرِهَ عليها، وإنما جاء معه آخرون معدودون في أسرته وأصحابه، نالوا بدورهم ما ناله من نصيب الاطلاع والاستزادة من زاد المعرفة.

ومن أشهر علماء السودان الغربي الذين كانت لهم رحلةٌ إلى المغرب في نهاية القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، الشيخ محمد الأمين الكانمي الذي أصبح أميراً على بلاد بُرنو في تشاد الحالية. وكانت له قبل ذلك رحلة إلى المشرق، ثم عرَّج على بلاد المغرب فأقام في فاس مدةَ سنتين وزار طرابلس والقيروان وتلمسان وغيرها.

ومن أشهرهم أيضاً أحمد بن القاضي أبي بكر الفُوتي أصلاً الدَّوجقي مولداً ثم التُّنبُكتاوي الجَنّاوي، من أهل القرن الثالث عشر الهجري. فقد زار تونس خلال رحلته الحَجِّية، كما زار مدينة فاس وأقام بها أيام المولى سليمان العلوي، وقرأ على عدد من مشاهير علمائها في ذلك الوقت كمحمد الطيب بن كيران، وإدريس العراقي، وأحمد بن الشيخ التاودي، وأبي عبد الله محمد الزروالي، ومحمد بن عبد السلام الدرعي، وغيرهم.

ومنهم في القرن الثالث عشر الشيخ الحاج عمر بن سعيد الفُوتي (ت. ١٢٨٤ هـ) الذي كان على الطريقة الصُّوفية التيجانية، وكانت له رحلة للحج وطلب العلم، فزار فاس وتلمسان والقيروان وبرقة والقاهرة، وفيها وفي غيرها من البلاد التي مرَّ بها وأقام، جلس لتلقِّي العلم والأخذ عن علمائها.

وُيضاف هؤلاء الذي ذكرنا من الأعلام الوافدين على المغرب، إلى ما أورده المرحومُ إبراهيم الكتاني من أسماء أخرى كثيرة، في مقدمة تحقيق "فتح الشكور"، وإلى أسماء غيرها واردةٍ في مصادر متعدِّدة، فلتُراجَع في مكانها.

هذا عن العلماء الوافدين من المغرب وإليه. وبجانبهم نشأت شريحةٌ كبيرة من العلماء الأفارقة من ذوي الأصول الصحراوية والمغربية نجد أسماء عدد غير قليل من أفرادها في مؤلفات أحمد بابا التنبكتي وخاصة كتابي "النَّيل والكفاية"، وفي كتابي السَّعدي وكعت، فضلاً عما ذكره المتأخرون من أمثال الشيخ العتيق بن الشيخ سعد الدين الدغوغي السُّوقي في كتابه الموسوم "بالجوهر الثمين في أخبار صحراء الملَّثَمين ومَن يُجاورهم من السَّوادين".

ولو أردنا أن نقتصر فقط على أسماء الأسر العلمية ذات الأصول الصحراوية المغربية، لما وجدنا أحسن من كتاب البرتلِّي الولاتي المعروف بكتاب: "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التُّكرور"، شاهداً على كثرتها وتفرُّعها. فقد أتى المؤلف على ذكر مئتين وخمس عشرة ترجمة لعالم أو فقيه، أغلبُهم ينحدر من أسر مغربية أو صحراوية عربية أو أمازيغية. ومن هذه الأسر ذات الأصل الصحراوي والمغربي التي تسلسل العلمُ في أعقابها، وعلماؤها معدودون في علماء التكرور (السودان) الذين أوردهم البرتلي، نذكر على سبيل المثال: أسرة آل أقيت الصنهاجية التي ينتسب إليها أحمد بابا وجدُّه وأبوه وإخوانه، وأسرٌ أخرى كآل التواتي، والولاتي،والغلاوي،والفيلالي،والوداني، والكُنتي، والديماني، والسُّوقي، والجكني، والحنشي، والأرواني، والدليمي، والوافي، والمحضري، والبابالي، والتادلي، والدكالي ... وغيرهم.

والحديث عن الأسر العلمية المنحدرة من مناطق شمال السودان، يقودنا إلى التوقف عند مظهر خامس من مظاهر التأثير المغربي وهو المتمثِّل في العنصر البشري الطارئ على العناصر السُّكانية المحلّية. فقد كان سكانُ السودان الغربي يتكوَّنون أساسًا من عنصر زِنجي إفريقي قديم وهو الغالب، وعنصر بربري قادم من الصحراء في فترات سابقة للإسلام وهو يمثل أقلية من البيضان. ولكنه بعد دخول الإسلام أصبح العنصر البربري الصحراوي القادم من الشمال يتقَّوى جيلاً بعد جيل، ولا سيما في العصر المرابطي وما بعده. وليس التوارقُ المنتشرون في عدد من دول جنوب الصحراء (وخاصة في مالي والنيجر وتشاد وبوركينا فاصو..) إلا من هؤلاء الملثَّمين القدامى، وهم خليطٌ من البربر والعرب المُتبربرين. ولقد كان لهم دور كبير في تأسيس دول وممالك في مالي وغيرها. على أن العنصر الزِّنجي نفسه كثيراً ما وجدنا قبائل منه تحاول ربط نسبها بالعرب (من أبناء عقبة أو عرب اليمن الحِميريّين أو ترفع نسبها إلى علي بن أبي طالب). وعرف العهد الإسلامي أيضاً هجرة بعض القبائل العربية القادمة من الشرق إلى المغرب ومنهم قبائل بني حسان ومَعقل والشاوية المعروفون اليوم في نيجريا بعرب الشوا. وقد عرفت المنطقة عبر التاريخ موجات عديدة من هجرة القبائل العربية والبربرية من الصحراء إلى السودان، واندمج أبناؤها مع العنصر الزنجي على فترات، ولا سيما بعد أن توسَّعت مملكةُ السُّنغاي الإسلامية وأصبحت تضم ولاتة وتغازّة وتَدَمَكَّة وتكدَّة وأهير وغيرها من مدن الصحراء ومناطقها وتعتبرها جزءً من أراضيها وخاصة في عهدي سُنِّي علي وأسكيا الحاج. ومنذ بداية القرن الحادي عشر الهجري الذي عرف دخول جيش المنصور السَّعدي إلى مالي واستقراره مع أُسَره ومَن تناسل منه من أجيال طيلة قرون، ازدادت قوةُ العنصرين العربي والبربري وأضيفت عناصرُ أخرى من الأتراك والأندلسيّين ذوي الأصول المختلطة الإسبانية العربية الأمازيغية. وهكذا أصبح المجتمع الإفريقي في تنبكتو وجِنّي وجاوةَ وغيرها من المدن والمناطق المتَّصلة بها، مكوَّنة من خليط من العناصر السكانية، كنتَ تجد فيه الفاسيَّ والمراكشي والدرعي والزعري والدكالي،والدغوغي، والجزولي، والمسُّوفي، والصنهاجي، واللَّمتوني، والجاناتي، والأندلسي، والجزائري، والتواتي، والتلمساني، فضلاً عن العُلوج الإسبان والأتراك الذين كانوا قد دخلوا في الجيش السعدي. ومن أهل القبائل المغربية الأخرى: شراكة والشياظمة وحاحة، وتادلة، وأهل ماسّة، وشتوكة، وأولاد جرار، وأولاد عمران، والمنبهيّين، وفشتالة، ومن أهل الأطلس والغرب والصحراء وغيرها من المناطق الأخرى. وقد

تحدثت بعضُ المصادر عن أحياء تنبكتو التي كانت تقطنها هذه العناصر من جيش (الرُّماة) المغربي، وأماكن سُكناهم الأخرى في جِنّي وغيرها من المدن والقرى. وهكذا أصبح من الطبيعي أن يكون العنصر المغربي الآتي من مناطق مغربية شتى، قوياً ومؤثراً بعاداته وتقاليده ولباسه ومطبخه وثقافته ولغته.

ولو أردنا التوقُّف عند الجانب اللغوي من جوانب التأثير لهذه الكتلة السُّكانية المغربية التي تناسَلت وتكاثَرت وتعاظمَ شأنُها مع الأجيال والحقب والقرون، وأصبحت جزءً لا يتجزأ من تركيبة المجتمع السوداني إلى اليوم، لكفانا، في تلمُّس هذا الأثر، ما نجده في النصوص التاريخية الثلاثة المشهورة وهي: "تاريخ السعدي" و"تاريخ الفتاش" و"تذكرة النسيان"، من عشرات الألفاظ المغربية. وقد عنَّ لي أن أشتغل بهذا الموضوع خلال فترة إقامتي بالنيجر، فاستخرجتُ من هذه المصادر الثلاثة قاموساً غنيّاً بالألفاظ المغربية التي نقلَها المغاربةُ في جملة ما نقلوه من ثقافتهم وعاداتهم إلى السودان، سنعمل على نشره في أقرب فرصة بحول الله تعالى. وتتناول هذه الألفاظ مختلف جوانب الحياة من لباس وأدوات وأطعمة وأسلحة وحرف وصناعات ومهارات ومعارف وعادات.

وهذه نماذج مختارةٌ منها:

الباشا - البارود - البراوة/ البرا - البُرنس - البرّاح - الحانوت - الحومة - الحيوط (ج: حائط) - المخزن - المخازني - الجنان - الثقاف - التحريكة - التحزيمة - الشاشية - المحلة (المُعسكر) - الحُوت - الخابية - الرحبة - الرغايف - الزربية - الزغاريت - الزمام - المزوار - سافط (أرسل) - المشور - المشاور - شاوش - مطيار - طيّر الماء - الظهير - العرصة - غيّاط (ج: غياطة) - الفرَجية (لباس) - قربوس - قفطان - الكاهية - تكمَّش - مولاي - شربيل - الروز - الروضة (المقبرة) - الروى (الأروى) - الطار - المُونة - الشكارة - الطيفور - اللحيفة (اللحاف) - المكحلة (البندقية).... وهناك عشرات الكلمات والتعبيرات الأخرى ذات الاستعمال المغربي المعروف. وهي من حيث أصولها الاشتقاقية إما عربية محرَّفة من الفصيح، وإما أمازيغية أو متأثِّرة في صيغتها الصرفية بالأمازيغية، وإما من أصل تركي دخل مع العناصر التركية التي استعملها السعديون في جيوشهم.

وظاهرةُ انتشار الألفاظ المغربية في لغة أهل مالي، ظاهرةٌ فريدةٌ من نوعها تستحقُّ منا وقفةً خاصة. فالظاهرُ أن استعمالها لم يكن مقصوراً على أولئك الكتّاب المؤرخين الثلاثة الذين كان من المفروض أن يتجنَّبوا استعمالها لأنها من العامِّي الدارج لا من الفصيح المُستعمَل في الكتابة

والتأليف بكل أقطار العالم الإسلامي. ولكن اضطرارهم لاستعمالها دليل على كثرة شيوعها مع كثير غيرها من العامية المغربية، في بيئتهم ومجتمعهم السُّوداني، ودليلٌ أيضاً على أنها كانت طاغيةً ومتغلِّبة حتى على الفصحى نفسها، وأن الطبقة المثقَّفة في تلك البيئة لم تكن تجد حرَجاً من استعمالها في التأليف والكتابة، وربما كان في ذلك دليل على ضعف المستوى التعليمي عند هؤلاء المؤرخين. على أنه من الثابت، من ناحية أخرى، أن لا أحد من أصحاب المؤلفات الثلاثة المذكورة، غادرَ بلدَه إلى المغرب حتى نقول إنه التقطَ تلك الألفاظ من البيئة المغربية التي رحل إليها. فكلُّهم وُلدوا ونشأوا وماتوا بالسودان، وكلُّ ما هنالك أنهم نشأوا في مجتمع مكوَّن من جالية سُكانية مغربية كبيرة وذاتُ تأثير قوي، ومع مرور الوقت أصبح كلامُها جزءً من كلام السكان عامة.

وقد بحثتُ عن هذه الظاهرة في غير هذه الكتب الماليةِ الثلاثة، فلم أعثر على طائل، سوى كلمتين اثنتين وردتا في رسالة ألَّفَها أحمدُ بن القاضي الفُلاني الدَّوجقي الذي نشأ وتعلَّم وأقام تارةً في تُنبكتُو ثم جِنِي وإليهما نسبَ نفسه فقال (التنبكتاوي أُفُقاً الجناوي قراءةً)، وهي بعنوان: هَتك السِّتر عما عليه سودانُ تونس من الكُفر، وقد ألَّفها وقدَّمها لحاكم تونس حمودة باشا (ت. ١٨١٣ م) عند عودته من الحجّ وقبل زيارته لفاس التي ذكرنا سابقاً أنه أقام بها فترة ولقي فيها عدداً من العلماء والأشياخ. أي أن ابن القاضي جاء من منطقة تنبكتو وجني وهو يحمل معه آثارَ اللهجة المغربية من قبل أن يدخل المغرب ويلقى أهلَه ويستمع لكلامهم ويتأثر بلغتهم.

والطريف في كتابات ابن القاضي أن نجد عدداً من الألفاظ جاءت من أصل إفريقي، وأصبح أغلبُها مستعملاً في العامية المغربية منذ العصر السعدي (ق. ١٠ هـ/ ١٧ م) أي منذ دخول جيوش أحمد المنصور إلى تنبكتو وما وراءها من المدن والأقاليم السودانية. ومن هذه الألفاظ نذكر: گمبري (آلة موسيقية - بَمبارا - گناوة - تكدَّة – تُوري -دِردِبة - دُندُف (آلة موسيقية). فهذا ضربٌ من ضروب التأثير المتبادل بين المغرب وبلاد السودان الغربي. وضربٌ آخر تحدَّث عنه ابنُ القاضي في كتاباته أيضاً ويتجلى في بعض العادات الشعبية الإفريقية التي انتقلت إلى المغرب عن طريق المجلوبين من بلاد السودان، ومنها مظاهر السحر والشَّعوذة وفنون الرقص والغناء المرتبطة في الأصل بعبادات ومعتقدات دينية إفريقية، وقد اعتبرها ابنُ القاضي من المظاهر المنافية لروح العقيدة الإسلامية الصحيحة وطالب حكامَ تونس والمغرب بالتدخل لمحاربتها. وذلك مظهر سادس من مظاهر التأثير الذي نتحدث عنه.

والمظهر السابع، هو الذي يتحدث عنه كثير من المؤرخين والباحثين من قدامى ومُحدَثين، حين يتعرَّضون لسيرة رجل من أصل أندلسي كان مقرَّباً جداً من سلطان مالي الحاج منسا موسى، وجاء معه عند رجوعه من الحج، بعد أن أُعجِبَ به أيَّما إعجاب، فاتخذه مستشارَه الخاصَّ والمُشرفَ على إنجاز كثير من المشاريع الثقافية والعُمرانية، ونعني به أبا إسحاق إبراهيم الساحلي (ت. ٧٤٧ ﻫ) الذي كُلِّف بمهمة تطوير العُمران في دولة مالي، فأنجزَ بناءَ قصور للسلطان ومساجد وغيرها على طريقة العمران السائد في جنوب المغرب وقت ذاك، والقائم أساساً على الطين المضغوط بالخشب، والزخارف والنقوش والأصباغ الأندلسية المغربية التي اعتمد فيها على مواد محلية. فكان هذا النمط من العمران جديداً على أهل السودان، فنال إعجابَهم وإكبارَهم. وقد تناول أستاذنا العلامة محمد ابن شريفة شخصية الساحلي بالدرس والتحليل وتطرَّق إلى تكوينه الأدبي والعلمي المتعدِّد الجوانب وأعماله ومنجزاته في بلاد السودان وما كان لها من تأثير في تنمية الأذواق وتغيير أنماط اللباس والعمران والتعليم والسلوك، وختَمَ ذلك بالقول إن عمل الساحلي وتأثيره في السودان لم يكن ليقلَّ عن عمل زرياب وتأثيره في بيئة الأندلس. وقد أشار السعدي في تاريخه إلى شيء من هذا التأثير المغربي في العمارة والعُمران بالسودان وتنبكتو على الخصوص، بالمفهوم الواسع لكلمة (عُمران) الذي يشمل الحضارة والثقافة، فقال: «فكانت تنبكت خرابَ بير، ولم تأتها العمارةُ إلا من المغرب، لا في الديانات ولا في المعاملات. فأولُ الحال كانت مساكنَ الناس فيها زَريبات الأشواك وبيوت الأحشاش، ثم تحوَّلوا من هذا إلى بناء الحُيوط أسواراً قصاراً جداً، بحيث مَن وقفَ في خارجها يرى ما في داخلها. ثم بنوا مسجد الجامع على حسب الإمكان، ثم مسجد سَنكُري كذلك، ومن وقف في بابه يومئذ يرى الحيطان والبُنيان، وما ثبتَت عمارتُه إلا في أواخر القرن التاسع، وما تكامل البناءُ في الالتصاق والالتئام إلا في أواسط القرن العاشر في مدة أسكيا داوود ..».

ومما يُلحق بالعُمران بمعنى الحضارة والمدنية والثقافة أيضاً، مسألة اللباس التي لا شك في كون أهل السودان قد تأثَّروا فيها بالنمَط المغربي باتخاذهم البرانس والقفاطين الملوَّنة والفَرَجيات والمَنصوريات والشاشيات الحمراء والعمائم البيضاء والقُمصان للرجال، والشرابيل للنساء، واتخاذ الشكارات (جمع: شكارة). والحمائل، ومن الأفرشة اللحائف والزَّرابي، وكلها أشياء وردت ألفاظها ضمن المعجم المغربي السوداني الذي أشرتُ إليه سابقاً. ومما شاهدته ولمستُه من بقايا ذلك في المنطقة، أني حين زرتُ سُلطانَي صُوكوتو وكانوا في نيجيريا عام ١٩٩٦ م، لاحظتُ أن حَرَسَهم

السلطاني (المخازنية) يشبه إلى حد كبير في نظامه وهيئته الحرَسَ السلطاني وخدَمَ القُصور الخاص بالمغرب، وألبستُه مكوَّنة أساساً من قفاطين ملوَّنة وفوقها فرَجيات بيضاء ناصعة، وعلى رؤوسهم الشَّواشي الحمراء، وفي أيديهم العِصِيُّ الطويلة، وفي أرجلهم البلاغي الصفراء والبيضاء. فأحسستُ وكأني في قصر سلطان مغربي لا فرق إلا في عظمة الهيئة وحسن النظام وأبَّهة المنظر، وجلال الموقف وجودة أنواع اللباس. وقد كانت ظاهرةُ العُري من الظواهر الشائعة في أفريقيا قبل دخول الإسلام، ومع انتشاره بدأت تختفي شيئاً فشيئاً، وإن كان ابنُ بطوطة قد لاحظ في القرن الثامن بعض بقاياها في مالي، لكنه لاحظ إلى جانبها ما كان السلطانُ وعِليةُ القوم والقُضاة يلبسونه من أثواب حريرية رفيعة وعمائم وطيلسانات وغيرها. ويقول آدمُ الفُندُكي صاحب كتاب: "الآثار الكنوية" (مخطوط)، وهو يتحدث عن أيام السلطان محمد رَمفا حاكم كانُو الذي أقام عنده الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي أواخر القرن التاسع وقصَدَه مغاربةٌ آخرون أوائل التاسع: «وقد حضره كثيرٌ من العلماء والصلحاء وتصدَّق عليهم بمال جزيل، منهم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني والشيخ عبد الرحمان بن زيتا.. وفي زمنه ظهرت الأقمصةُ والعمائمُ وبدأت اللغةُ الحوسيةُ تأخذ من العربية...» إلى أن يقول: «وقد أنشأ قراءةَ المدح في زمنه، فكان يحضر بنفسه يوم تمامه لأنه متواضعٌ جداً يعظِّم العلماءَ.. وهو الذي بدأ الشريعة حسبما دعاه العلماءُ الآتية إليه من الأقطار. ومن ذلك الزمان بدأ تفسير اللغة العربية بالحَوسية...». وحسب سياق النص، فإن هذه المظاهر التي أصبحت تطبع الحياة الثقافية والدينية والاجتماعية بألوانها وملامحها الجديدة، من نشر الشريعة، وتعليم العربية وشرح كتُبها بلغة الهوسا، وإحياء عيد المولد النبوي، والتزام اللباس الإسلامي الساتر للعورة وسائر أطراف الجسم كالقُمصان ووضع العمائم على الرؤوس، كلها دخلت إلى تلك المنطقة عن طريق الوافدين من رجال الدين والتعليم والإصلاح من رجالات المغرب في الغالب وبعض المشارقة أيضاً. ويعتقد الدكتور ابن شريفة أن للأديب المهندس أبي إسحاق الساحلي المتقدِّم يداً فيما أصبح عليه أصحابُ مالي من ارتداء الثياب البيض الحِسان في العيدَين، وهي عادةٌ لاحظها وسجَّلها ابنُ بطوطة في رحلته.

والاحتفالُ بعيد المولد النبوي على الطريقة المغربية بقراءة الأمداح و"شفاء" القاضي عياض على الخصوص، أصبح عادةً منتشرة في عهد دولة مالي أيضاً بتنبكتو وغيرها، وقد تحدث السعدي ومحمود كعت في تاريخهما مراراً عن هذه الظاهرة، وأرَّخا لعدد من الذين اشتهروا بفنِّ المديح من أهل السودان. وذلك لونٌ آخر من ألوان الحضور المغربي وتأثيره الثقافي والديني.

حول اللغة العربية:

لقد تحدثنا في كل ما سبق، عن دور المغاربة في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية بمختلف مظاهرها في منطقة السودان الغربي، ولكننا لم نتحدث عن دورهم في نشر اللغة العربية لغة القرآن الكريم، سوى ما قلناه عن إدخال تلك الطائفة من الألفاظ العامية المغربية إلى منطقة مالي بعد حملة المنصور السعدي، وانتشارها في المجتمع السوداني وتأثُّر بعض الكتّاب والمؤرخين بها، وما ذكرناه أخيراً من بدء انتشار العربية في مملكة كانو على عهد السلطان محمد رمفا في القرن التاسع الهجري. ولكن الحقيقة التي أصبحت معروفة لدى الجميع، هي أن انتشار اللغة العربية كان شيئاً مُلازماً بالضرورة لانتشار الدين الإسلامي. فحيثما توجَّه الإسلامُ واستقرَّ، استقَرَّت معه لغةُ القرآن التي هي أداةٌ ضرورية لفهم الوحي والتنزيل عند المسلمين، وضرورية أيضاً لأداء فريضة الصلاة، وحفظ السُّور وقراءة الأوراد، كما هي ضرورية لفهم الكُتُب الدينية الأساسية من حديث وتفسير وقراءات وسيرة نبوية وغيرها من العلوم الإسلامية. ومن ثمَّ لم تكن العربيةُ عند المسلمين في يوم من الأيام، مجردَ لغة دينٍ وتعبُّد فقط، بل أصبحت لغةَ تعليم وتعلُّم، ولغةَ فهم وتفهُّم، ولغة ثقافة وحضارة وفنون. ومن ثمَّ تحوَّلت لتصبح جزءً من العادات والتقاليد، بل جزءً من شخصية المسلم وكيانه وهويته.

وإذن، نحن حين كنا نتحدث عن انتشار الإسلام، ودور المغاربة فيه، فإننا كنا نتحدث أيضاً عن انتشار لغة القرآن التي أصبحت لغةَ الدين والتعليم بمختلف أطواره، ولغة التأليف والشعر والأدب وسائر العلوم، ولغة القضاء، والتعامل الإداري والمُكاتَبات التجارية والدبلوماسية، وغيرها من المعاملات التي يُحتاج فيها إلى التخاطُب بالكتابة. فالكتابة لم تُعرَف في أفريقيا إلا بواسطة اللغة العربية، وكلُّ ما كان يُحتاج إلى أن يُكتب فإن كتابته كانت تتمُّ بهذه اللغة دون سواها. وبالجملة فإن الثقافة في أفريقيا كانت ثقافة شفوية إلى أن دخلت اللغةُ العربية، وتاريخُها نفسُه كان تاريخا شفويا لم تبدأ مرحلةُ تدوينه إلا بدخول هذه اللغة. فلولا اللغةُ العربية لظل تاريخ إفريقيا السوداء إلى حدود القرن التاسع عشر تاريخاً مجهولاً في العالم. وحتى اللغاتُ الإفريقيةُ الأخرى - غير العربية - حين بدأوا كتابتَها، استعملوا فيها الحرفَ العربي، لأنه لم يكن في أفريقيا قبل مرحلة الاستعمار الغربي حرفٌ سواه. فكُتبت به الهوسا، وتاماشيقت، والزّرما، والفُلانية، واليوربا، والوُلوف، والبَمبارا، وسواها في غرب إفريقيا، والسَّواحلية في شرقها. وقد ازدهرت العربية ازدهاراً كبيراً في ظل الممالك الإسلامية السُّودانية ككانم وبُرنو ومالي والسُّنغاي وماسينا ودولة الخلافة في صوكوتو وبلاد الهوسا. ورغم أنها لم تكن لغةَ التخاطب

اليومي إلا أنها، كما قلتُ، كانت هي اللغة التي تُستعملُ في أداء الوظائف الدينية والثقافية والعلمية والإدارية. وكان عددٌ من حُكّام هذه الممالك والدول يُتقنونها إتقاناً جيّداً ويُحسنون استعمالها تكلّماً وكتابةً، شعراً ونثراً وتأليفاً. ولعل أقدم هؤلاء السلاطين والحُكام معرفةً بالعربية هو سلطان مالي الحاج منسا موسى الذي دلّت القرائنُ الكثيرة على معرفته بالعربية وتذوّق شعرها وأدبها، بدليل ما يُحكَى عن إبراهيم الساحلي أنه صنع لهذا السلطان، وهما يومئذ بالمدينة المنوَّرة خلال موسم الحجّ «روضةً أدبية تحتوي على نظم ونثر وتَصِفُ الحالَ في الزَّورة النبوية. ورسمَ الملكُ المذكورُ أن تُقرأ عشيةَ كلِّ جمعة تُجاه الروضة الجليلة، وبذلَ في ذلك أموالاً جمة». وعلّق أستاذُنا ابنُ شريفة على هذه الواقعة قائلاً: «ونستفيد مما ذكر أن السلطان منسا موسى كان يفقه العربية ويتذوَّق الشعر العربي، كما أنه فيما يذكر المقريزي كان عالماً بالفقه المالكي. وقد ذكر أحمد بابَا أنه اقترحَ على محمد ابن كشتغدي أشهر فقهاء المالكية بمصر أن يشرح له "مختصر" أبي الحسن علي بن موسى الطليطلي. وجاء في "مسالك الأبصار" أن هذا السلطان كان يُجيد التكلّمَ باللسان العربي...».

والظاهر أيضا أن سلطان السُّنغاي الحاج محمد أسكيا الذي عاصره المغيلي وعاش مدةً في كنفه وألّفَ له رسائل ووصايا، ورسَمَ له حدود السياسة الشرعية السلطانية التي يجب اتِّباعُها، كان أيضاً من العارفين باللغة العربية. فهو الذي كتب إلى المغيلي أسئلته المشهورة التي استدعت الإجابةُ عنها كتابةَ أجوبة تسمى "أجوبة المغيلي على أسئلة أسكيا". وفي مقدمة هذه الأسئلة نجد السلطان يشتكي من ضعف فقهاء عصره ومملكته في علوم الدين واللغة العربية فيقول: «مذ منَّ اللهُ علينا بالإسلام أصابتنا مُصيبةٌ في هذا البلد، لعدم الأمانة فيمن يُنسَبُ إليه العلمُ من قُرّاء بلادنا، ومن ضعفهم أنهم عجَمٌ لا يفقهون من كلام العربية إلا قليلاً من كلام عربِ بلادهم على تصحيف وتحريف وعُجمة عظيمة، بحيث لا يعرفون مقاصد العلماء ولا موضعَ التَّصحيف والتحريف، ومع ذلك لهم كتبٌ يُدرّسونها وحكاياتٌ وأخبارٌ، ومنهم قُضاةٌ ومفسِّرون يتكلمون في دين الله، ويزعمون أنهم من العلماء الذين هم من دولة الأنبياء، وأنه يجب علينا الاقتداءُ بهم..». ثم طلب منه أن يفصِّل له الكلام في هذه المسألة وهل يجوز الثقةُ بعلماء من هذا المستوى والاقتداءُ بأقوالهم، كما طلب منه أن يرسم له السياسة الشرعية لإصلاح مملكته وفق الشريعة وسُننها. فهل كان لأسكيا الحاج أن يتكلم بهذه الطريقة إن لم تكن له معرفةٌ جيّدة باللغة العربية؟

أما خلفاء الدولة العُثمانية الفُوديَويّة وسلاطينُهم فكانوا قمةً في العلم والتبحُّر في العلوم الدينية والأدبية واللغوية. وقد كانت حركتُهم في أساسها حركة دينية ثقافية اجتماعية إصلاحية، وبلغت العربيةُ والثقافة الإسلامية في عهدهم ما لم تبلغه من قبل. وظهر منهم ومن أصحابهم وتلامذتهم شعراءُ وكُتّابٌ كبارٌ ومؤلِّفون وعلماء متبحّرون وبُلغاء وفُصحاء مُجيدون. وكان على رأس هؤلاء الحُكام العلماءُ الشيخ عثمان بن فودي وأخوه عبد الله الذي كان يُلقّب عندهم بعربيِّ السودان، وابنه السلطان محمد بلّو. وقد ترك هؤلاء الثلاثة من المؤلفات ودواوين الشعر والأدب ما لا نظير له في تاريخ المنطقة سابقاً ولاحقاً. وقد تسلسل العلمُ في أعقابهم وأصحابهم وأسرتهم إلى اليوم.

وكان الشيخ محمد الأمين الكانمي (ت. ١٨٣٥ م) من أهل العلم والفقه والأدب أيضاً. فقد تعلَّم بالأزهر الشريف، وأقام في عدد من عواصم العالم العربي كالقدس ومكة والمدينة المنوّرة والقيروان وطرابلس وتلمسان وفاس ثم عاد إلى بلده ليقود حركة إصلاحية في منطقة تشاد. «ومما مهَّد له الجلوسَ على عرش مملكة بُرنو اشتهارُه بالعلم والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكثرة الأتباع والتلاميذ..». ولهذا الشيخ مُراسلات سجالية مع معاصره الشيخ عثمان بن فودي، سجَّل بعضَها محمد بلّو في "إنفاق الميسور"، ومنها تتضح قدرةُ الرجل البلاغية والأدبية ومدى تضلُّعه من علوم اللغة العربية.

ومن هؤلاء الحُكّام المُعرَّبون الذين أقاموا ممالكهم ودولهم على أساس ديني إصلاحي، الشيخ أحمد لُوبُو الماسِّينيت. ١٢٦٠ هـ/ ١٨٤٤ م)، الذي درَسَ في (جِنِّي) التفسيرَ والفقه والحديث واللغة والتاريخ، ثم قاد حركةً إصلاحية في (ماسينا)، وأعلن نفسَه أميراً للمومنين وكوّن مملكة جعل عاصمتَها مدينةً جديدة أسَّسها سنة ١٨١٥ م وأطلق عليها اسم (حمد الله)، وأصبحت هذه المملكة تضمُّ منطقة مالي وبوركينافاصو.

وأخيراً، لا بد أن نشير إلى حاكم آخر أقام حركة إصلاحية دينية تحولَّت فيما بعد إلى دولة في منطقة السِّنغال وما حولها، ألا وهو الشيخ الحاج عمر بن سعيد الفُوتي (ت. ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤ م). وقد كانت للرجل - كما سبَقَ القولُ - رحلةٌ إلى المشرق والمغرب، تمكّن خلالها من تعميق معارفه في العلوم الدينية واللغوية، وله قصائد ومؤلفات.

وقد ظلت اللغة العربية سائدةَ الاستعمال في منطقة الغرب الإفريقي طيلة القرون السابقة، فكانت - كما أسلفتُ - لغةَ التعليم والتأليف والدين والثقافة، كما هي لغة الإدارة. وكُتب بها كلُّ التراث الإفريقي السابق لمرحلة الاستعمار، وحتى في هده المرحلة كان المستعمرون في البداية

وقبل أن تتجذَّر لغاتُهم الأوروبية، يُضطرُّون للتعامل مع الأهالي وحكامهم - في المواقف والمقامات التي تستدعي الكتابة - باللغة العربية. ولكن الاستعمار لما تيقَّن من أن العائق أمام تقدُّمه في أفريقيا الغربية وسيطرته التامة عليها هو الدين الإسلامي وثقافتُه المُتغلغلة في وجدان الناس، ورأى أن لا سبيل لمحاربة الإسلام إلا بمحاربة اللغة العربية، لجأ إلى الأساليب نفسها التي استعملها في محاربة التعليم العربي الإسلامي وإغلاق المدارس الدينية وكتاتيب القرآن، ومزاحمتها بفتح مدارس التَّنصير والتعليم الفرنسي، ورسَمَ لذلك خطة لا تختلف في شيء عن الخطة التي استُعملت في المغرب والشمال الإفريقي.

وقد تحدثنا في بحث سابق، بشيء من التفصيل، عن وضع العربية في منطقة جنوب الصحراء منذ دخولها إلى المرحلة الراهنة، وفي ذلك ما يغني عن زيادة الكلام في الموضوع. إلا نقطةً صغيرة جديرة بالتأمُّل والدراسة، لا بأس من إضافتها، ويتعلَّقُ الأمرُ بظاهرة الإعراب التي ما زلنا نلاحظ استعمالَها في أسماء الأعلام من ذكور المسلمين ونسائهم على اختلاف اللغات المحلِّية للمنطقة، وهي في حد ذاتها تعبِّر بوضوح تام عن بقايا تأثير العربية الفصحى منذ العصور الأولى لدخول الإسلام. فتجدهم يقولون مثلا: عَيشَتُو، وفاطمتُو، وأَمينتُو، وخديجتُو، ونحوها من أسماء الأنثيات، ويقولون: إبراهيما، وصالحُو، وإدريسا، ويونُسا، وداودَا، ويعقُوبَا، وعُمَرُو، ونحو ذلك في بقية الأسماء العربية التي تُطلق على الذكور. وقد يبالغون في تحريف هذه الأسماء وتغييرها، كما في نحو: بوريما (إبراهيمَ) وسُمَيلاَ (إسماعيلَ)، وإيلاَّ (إسماعيلَ)، وماماُدو (محمدُ)، وأمادُو (أحمدُ)، ومع ذلك تبقى العلاماتُ الإعرابية ثابتةً. فهذا جانبٌ آخر من التأثير اللغوي العربي، أحببتُ أن أشير إليه على عجَل، وهو في حاجة لدراسة معمَّقة لسانية وتاريخية واجتماعية.

مـلـحق

نـصٌّ جـديـدٌ

بين يدَي النص:

هـذا الـنصُّ هـو عبـارة عـن فصـل صـغير (مـن ص: ١٢٨ إلـى ص: ١٣٩) من كتاب: "الجوهر الثمين في أخبار صحراء المُلَثَّمين ومَن يُجاورُهم منَ السّوادين"، ومؤلفه أحدُ علماء دولة مالي المعاصرين من مدينة جاو الشهيرة في التاريخ، وهو الشيخ محمد العَتيق بن الشيخ سعد الدين السُّوقي الدغوغي، ينتسبُ إلى أسرة أصلُها من منطقة دغوغة المغربية، وترفَعُ نسبَها إلى الأدارسة ثم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب. هاجر أحدُ أجداد هذه الأسرة إلى إفريقيا الغربية، وأقام في منطقة تسمى بالعربية: (أهل السُّوق) وبالطارقية (كل السوق) منذ القرن التاسع الهجري، وتناسلت فيها ذريَّتُه، وهي من المناطق التابعة حالياً لدولة مالي، وسُكانها من الأفارقة السُّود والعرب والطوارق الذين هم خليطٌ من البربر والعرب المُتبَربرين. ثم حين اندلعت حربٌ طائفية في مالي على إثر إنشاء (جبهة تحرير أزواد) في الثمانينيات من القرن الماضي، هاجر المؤلفُ مع عدد من أهله وعشيرته من السُّوقيين إلى النيجر، وأقاموا هناك، وفيها ألَّف كتابه هذا الذي يسرد فيه قصة دخول الإسلام إلى المنطقة ويؤرخ لرجالها وعلمائها من العرب والطوارق والسَّوادين، ويتوقَّف طويلاً عند فروع السُّوقيِّين وأسرهم الكثيرة، وعن عاداتهم وتقاليدهم وما كان فيهم من العلم والعلماء، ويتحدث باستفاضة عن أسرته الدغوغية الإدريسية المغربية وفروعها، ويترجم لكثير من أعلامها ولأعلام كثيرين غيرهم من أهل السودان الغربي. ولذلك يُعتبرُ هذا الكتابُ من المصادر القيِّمة التي أرَّخت لتاريخ الإسلام والمسلمين في غرب إفريقيا، وتحدثت عن دولهم وممالكهم وثقافتهم وألَمَّت بسائر عاداتهم وأحوالهم منذ دخول الإسلام إلى نهاية القرن العشرين. والكتابُ مخطوطٌ في أكثر من ستِّ مئة صفحة من القَطع الكبير، فرغَ مؤلفُه من كتابته سنة ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م، وكان الواسطةُ بيني وبين مؤلفه ـ أدامَ اللهُ عافيَتَه ـ في الحصول على نسخة مصوَّرةٌ خاصة منه، عالِمٌ آخر من أصدقائه وبني عمومته كان يُقيم بالنيجر أيضاً، ويزورني في مكتبي كثيراً، وهو الشيخ محمد الحاج بن محمد بن أحمد بن أحمد الحسَني الأدرعي المغربي الأصل الذي وافاه أجلُه رحمه الله قبل بضع سنواتٍ خلَت.

أما الفصل الذي اخترناه من هذا الكتاب الذي نستأذنُ صاحبَه في وضعه بين يد القراء، فما يهمُّنا فيه هو ما تضمَّنَه من معلومات وافية ومستفيضة عن طُرُق التعليم ومناهج التدريس التي كانت سائدةً في المنطقة طيلةَ قرونٍ سابقة إلى عصر المؤلف، وأسماء الكتب المغربية أو المستعملة قديماً في التعليم المغربي التي انتقَلَ استعمالُها وتأثيرُها إلى السودان الغربي، وعلى المكانة العالية التي حظيت بها الثقافةُ الإسلامية واللغةُ العربيةُ في تلك الرُّبُوع.

كيفية إقراء السُّوقِيِّين وتعليمهم بحسَب ما رأيتُه في حَيِّنا وما سمعتُه عن أسلافنا، وذكرُ العلوم التي يتعلَّمونَها»

إذا بلَغَ الصَّبيُّ منهُم خمسَ سنينَ وخَمسةَ أشهُرٍ، كتبُوا له حُرُوفَ الهجاءِ حتى يُتقِنَها، ثم يأخذونَ في إقرائِه القُرآنَ بروايَة وَرشٍ عن نافعٍ. يكتبُونَ له الفاتحةَ، ثمَّ المُعَوِّذَتين، ثم الإخلاصَ، ثم قِصارَ المُفصَّلِ، ثم طِوالَهُ، إلى أن يَتَمَرَّنَ على قراءة كلِّ ما يُكتَبُ له، ثم ما بَقِيَ منَ المُنَزَّلِ. يَكتُبُ الشَّيخُ للتِّلميذِ أسطُراً أو سُطُوراً إلى ثُمُنِ الحِزبِ أو رُبُعِه أو أكثَرَ، فيُكَرِّرُهُ التِّلميذُ حتى يَحفَظَه ويقرأَهُ خَلفَ ظَهرِه، ثم يَكتُبُ لهُ، وهكذا. فمنهُم مَن يَتِمُّه مُتقناً حِفظَهُ في المُصحَفِ، ومنهم مَن يَختِمُهُ غيرَ مُتقِنٍ للحِفظِ ثم يَحفَظُه بعدَ الكِبَر. ومنهُم مَن يَختِمُهُ في عامَينِ أو أكثَرَ. وقليلٌ منهم يَختِمُه في عامٍ. وقد أدركتُ شيخاً من أعمامي من أهل تَبُرَقْ اسمُهُ سايْ بنُ القاسِمِ سَمِعتُ أنَهُ خَتَمَ القُرآنَ و"رسالةَ" بنِ أبي زَيدٍ في عامٍ واحدٍ، وقرأَ "الآجَرُّوميةَ" و"مُلحةَ" الحَريريِّ و"ألفيةَ" ابنِ مالكٍ في العام الثاني. ولم أسمَع مثلَ ذلكَ لغيره. ومنهم من يَمكُثُ على قراءتِه أعواماً ولا يَتَيَسَّرُ له حِفظُهُ. فإذا أَيِسَ شَيخُهُ أو وَلِيُّهُ من استظهارِه لهُ، أعرَضَ عن إقرائِه إيّاهُ، وشرَعَ في تعليمه فرضَ عَينِه كيلا يبلغَ جاهلاً به. فإذا فرَغَ الصَّبيُّ من قراءة القُرآن، سواءً كان فراغُه بحفظه أو بعَجزِه عن الحفظ، انتقَلَ إلى "رسالة" ابنِ أبي زَيدٍ القَيرَوانِيِّ، فيكتُبُ الشيخُ للتِّلميذِ ما يَقدرُ على حِفظِه، وحفظِ ترجمتِه باللُّغةِ التّارِقيَّةِ. فإذا حَفِظَ دَرسَهُ جعَلَ الشيخُ يُتَرجِمُ له الدَّرسَ كلمةً كلمةً حتى يُتقِنَ حِفظَهُ وفَهمَهُ. فلا يَزالُ يتَرَقَّى ويتَدَرَّجُ في فهم كَيفيَّة التَّرجمة، فمنهم من يَجمعُ بينَ تَفَهُّم ما يُمليه عليه الشَّيخُ من المسائلِ الفِقهيَّة وبينَ فهم اللغة العربية، بحيثُ يعرفُ ترجمةَ كُلِّ كلمةٍ عربيةٍ منَ الكتابِ الذي يقرَؤُهُ بمِثلِها في اللغة التّارِقيَّة. ثمَّ منهُم مَن يَختِمُ رسالةَ ابنِ أبي زَيدٍ ثم يأخُذُ في علم النَّحوِ، ومنهم مَن لا يَختِمُها.

وأما علمُ النَّحوِ فهُوَ المَقصودُ الأَهَمُّ عندَهُم، حتى صارَ عندَ بَعضِهِم معياراً على العُلُومِ، مَن أَحسَنَهُ جعلَه وسيلةً إلى غيره من العُلُوم حتى يُتقِنَها، ومَن لم يُحسِنهُ تَرَكَ التَّعَلُّمَ رأساً لاستحيائِهِ مِنَ اللَّحن في الكلامِ الذي يُوجِبُهُ الجَهلَ بالقواعِدِ النَّحوية. واللَّحنُ في القراءة عندَهُم من أقبَح القبائِح.
وسِيرَتُهم كما قال القائل:

النَّحــوُ زَيـــنٌ للفتَـــى يُكرِمُـــهُ حيـــثُ أَتَـــى
مَـــن لـــم يَكُـــن يُحسِـــنُهُ فَحقُّـــــه أن يَســــكُتَا

وكما قال ابنُ مالِكٍ في أَولِ "كافيَّته":
وبعدُ فالنَّحوُ صَلاحُ الأَلسنة ...

إلى آخرِ البَيتَين. وكيفيةُ تَعلُّمه عندَهُم أن يقرأَ الصَّبِيَّ مُقدِّمةَ ابنِ آجَرُّومَ أولاً قراءةَ تَفَهُّمٍ وتحقيقٍ إذا شَرَعَ في حَدِّ الكلام لَقَّنَهُ الشيخُ ما يُجيبُ به المُمتَحِنَ في دَرسِه، بأن يَسأَلَهُ عنِ التركيبِ أَهُوَ كلامٌ في اصطلاح النُّحاةِ أم لا؟ فلا يَزالُ يُدَرِّبُه ويُمَرِّنُه على ذلك حتى يُحَقِّقَ الفرقَ بينَ ما هو كلامٌ وما ليسَ بكلامٍ. ثم يَنقُلُه إلى تحقيقِ الفَرقِ بينَ الاسمِ والفِعلِ والحَرفِ بعدَ معرفةِ علاماتِ كُلٍّ منها حتى يُحَقِّقَ الفَرقَ بينَهُما أيضاً. ثم يَنقُلُه إلى باب الإعرابِ. فكُلَّما وقَفَ على مِثالٍ أعرَبَهُ لهُ كلمةً كَلمةً. ثم يَفعَلُ بهِ كذلكَ في سائرِ الأبوابِ حتى يُتِمَّ الكتابَ. فَمنهُم مَن يَفهَمُ كَيفِيَّةَ إعرابِ التَّراكيبِ قبلَ خَتمِ المُقدِّمة، ومنهم مَن لا يَفهَمُ إلا أَقَلَّ قَليلٍ. ثم منهم من يَقرأُ "مُلحةَ الإعرابِ" للحَريريِّ ومنهم مَن يَقرأُ "قَطرَ النَّدَى" لابنِ هِشامٍ، ثم يقرأُ "ألفيةَ" ابنِ مالكٍ و"لاميَّةَ الأفعالِ" لَهُ. وهذا هو القَدرُ الذي لا يَكتَفُون بدُونهِ. وهو المَرتَبَةُ الدُّنيا عندَهُم التي مَن قَصَّرَ عنها لا يتكلَّمُ في المجلِسِ، ولا يُؤخَذُ عنهُ منَ العلمِ إلا تحفيظُ القرآنِ. وأما العُلُومُ الشَّرعيةُ فلا يَجتَرِئُ على التَّكَلُّمِ بها سَواءً كانَ لهُ حَظٌّ منها أم لا. ثمَّ منهُم مَن يَزيدُ على هَذا قراءةَ "كافِيَّةِ" ابنِ مالِكٍ وشَرحِها، ومِنهُم من يَزيدُ عليه بقراءة "الفَريدة" للسُّيُوطيِّ. ومنهم مَن يَزيدُ عليه "مَنهَجَ السّالِكِ" للأشمُونِيِّ، ومن يقرأُ "الشّافِيَّةَ" في الصَّرف. ومنهم مَن يُضيفُ إلى هذا "قواعِدَ الإعرابِ" ومعرفَةَ أَحكامِ الجُمَلِ. فَمن حَصَّلَ هذا القَدرَ نَجَحَ في علمِ النَّحو واستَقَلَّ عنِ المَشايِخِ والمُدَرِّسينَ وصارَ منَ الأساتذةِ فيهِ. وهذه المرتَبةُ هيَ الوُسطَى التي مَن نالَها انتصَبَ لتَدريسِ التلاميذِ مع اعترافِه بقُصُوره عن مَقامِ أَهلِ المرتبة الثالثة.

ثم منهم مَن إذا وصلَ إلى هذه الغايةِ اكتفَى بها وانتقَلَ إلى العُلُوم الأُخَر. ومنهم مَن يتوَسَّعُ في المُطَوَّلاتِ والحَواشي، فيَشغَلُ كثيراً من أوقاته بالعُكُوفِ على مُطالَعة الفَنِّ. ثم ينتقِلُ بعدَ سِنينَ إلى غيره منَ العُلوم مع عَدَمِ نِسيانِه لِما حَفَظَ من كُتُبٍ ومُعاوَدةٍ لِمُطالعةِ ما لم يَحفظه منَ المُطَوَّلاتِ حتى يبلُغَ فيه مرتبةَ المُؤلِّفين، ويَدرُسَ فيه. ويُديمَ المُذاكرة فيه والبَحثَ مع قراءة غيره من الفُنُون. وأهلُ هذا المقامِ همُ الذين تُلقي إليهمُ الفُنُونُ بالأزِمَّة، فيُحَصِّلُونها في أسرعِ مُدّةٍ، ثم يتوسَّعُون فيها إلى أن يَصيروا مُشارِكينَ في سائرِ الفُنون ويَحُوزونَ السَّبقَ على الأقرانِ، وتنتهي إليهمُ الرِّياسةُ العلميةُ بعد الكُهُولة. وهذه أعلى المراتِبِ.

ثم ينتقِلُ التِّلميذُ بعدَ الفَراغ من علم النَّحو إلى معرفةِ اللُّغةِ العربية بطريق معرفةِ مُفرداتها ومعرفةِ تَراكيبِ أهلِها ومَقاصدِهِم. منهم مَن يدرُسُ "مَقاماتِ" الحَريريِّ، ومنهمُ مَن يدرُسُ مُختارَ الشِّعرِ الجاهِليِّ، ومِنهم مَن يَجمَعُ بينَهُما. ثم يشتغِلُ التِّلميذُ بمُطالعةِ ما في يَدِهِ مِن مَعاجِمِ اللُّغة مثلِ "القامُوسِ" والجَوهَريِّ وغيرهما.

وأما علمُ المَنطِقُ، فإذا حَصَّلَ التِّلميذُ ما قُدِّرَ له من النَّحو واللُّغة، على اختلافِ مَراتبِ التلاميذِ وتفاوُتها، انتقَلَ إلى علمِ المَنطِق، فيُقرِئُهُ الشيخُ "السُّلَّمَ المُرَونَقَ" للأخضَريِّ. فإذا أَحَسَّ بمَلَكةِ الفَنِّ مِن نَفسه استَقَلَّ عن المشايخ. فمنهُم مَن يكتفي بالسُّلَّم وشُروحِه. ومنهم من يتَوَسَّعُ في غيرها من عُلوم الفَنِّ.

وأما علمُ الفِقه، فبعدَ تحقيقِ الفُنون الثلاثة يختلِفُ أَمرُ التَّلاميذ فيه: منهُم مَن يشرَعُ في علم الفقه المالِكيِّ فيَستغرِقُ فيه ما بَقِيَ من عُمرهِ إلا قَدرَ ما يسمَعُ تفسيرَ القُرآنِ العَزيزِ أو ما يسمَعُ من الأحاديث "صحيحَ" البُخاريِّ ونَحوه. والغالبُ على مثل هذا أنه إذا وصَلَ إلى حَدِّ الشَّيخُوخة أَقبَلَ على التَّصَوُّفِ والعَمَلِ بما عَلِمَ. وربَّما أَعرَضَ عَمّا كان يَتَعاطاهُ قبلَ ذلكَ منَ التَّعليمِ والإفتاءِ حتى ينتهيَ أَجَلُهُ.

وأَما علمُ المَعاني والبَيانِ والبَديع، فيَقرأُ منهُ التِّلميذُ على الشَّيخِ "تَلخيصَ القَزوينِيِّ "بشَرحِ السَّعدِ" التَّفتازانِيِّ، أو "الجَوهرَ المَكنُونَ" أو "أَلفيَّةَ المَعاني". ثم يَقتَصِرُ البَعضُ على ذلكَ ويتَوَسَّعُ البعضُ في المُطَوَّلات والحَواشي. ثم ينتقِلُ منه إلى الفِقه، فيقرأُ منه على الشيخِ "مُختصَرَ خليلٍ"، فيقتَصِرُ البَعضُ على ذلكَ ويَتَوَسَّعُ البعضُ في سائرِ كُتُب الفِقهِ إلى أن يَصيرَ منَ الأئِمّة.

وأما علمُ التَّفسيرِ فلم يَصِل إليَّ على التَّحقيقِ ما يَعمَلون في تَعلُّمه قبلَ القرن الثاني عشَرَ. وأَما في القرن الثاني عشَرَ فأَخَذَ شَيخُنا حَمَّ بنُ أَحمدَ بنِ الشَّيخِ تَرجمةَ "تفسيرِ الجَلالَينِ" باللُّغة التَّارِقيَّة عن شيخٍ

مـن أَكَـلاَّدْ يُقـالُ لـه حـامَّ بـنَ محمـدِ الأَمـينِ، وهـو أَخـذَها عـن بعـض علماءِ أَيَرْ. فلما وصلتِ التَّرجمةُ إلى عُلَماء تَكَلَّتْ الذين منهُم الشيخُ حَمَّ الناقِلُ لها أَوَّلاً، تَلَقَّفَها عنهُم إخوانُهُم من سائرِ الأَحياء مع اعترافِهِم بالفضل لِمَن أَوصَلَها إليهِم أَوَّلاً ولِحَيِّهِ حتّى اشتَهَرُوا بذلك وتوارَثُوا ذلكَ المَنصِبَ الجَليلَ خَلَفاً عن سَلَفٍ إلى الآنَ. وكانت التَّرجمةُ المأخوذةُ على الشيخ الكَلادي مَقصُورةً على "تفسير الجَلالَين". لكنْ لَمّا كَثُرَ تَناقُلُ الأَشياخ لها نَحَوْا ذلكَ المَنحَى وتَوسَّعُوا في ترجمة كُتُبِ التَّفاسيرِ على النَّحو المأخُوذ عن الأَشياخ الأُوَلِ، ولم يَزَلْ ذلكَ عمَلَهُم إلى اليومِ، ويَرحَلُ إليهم أَشياخُ الآفاقِ للسَّماعِ عنهُم. وقد اختَرَعُوا في الصِّناعة التَّفسيرية مَنهَجاً عَزيزاً يَعجِزُ عنه الفُحُولُ، وهو أَنّه لا يُنتَدَبُ لأخذها عن الشيخ المُفسِّرِ إلا مَن وَثِقَ من نَفسِهِ بمعرفة عُلُوم الأَدَبِ منَ النَّحو والمعاني واللُّغة والفقه، ولا يَنتَصِبُ لسَماعِ الناسِ منه إلا مَن شَهِدَ لهُ أَقرانُهُ وشُيُوخُه بإحرازِهِ قَصَبَ السَّبقِ من سائرِ الفُنُون التي تُعتَبَرُ في آداب المُفسِّر، مع قُوَّة العارضة وجَودةِ التَّعبيرِ بكُلِّ لغة يُريدُ أن يُعبِّر بها، ومُلاحظةِ المعاني الدَّقيقة التي لا يُلاحِظُها إلا القَليلُ. فإذا عُقِدَ مَجلسُ التَّفسير حَضَرَهُ جميعُ الناس لسَماع معنَى كلامِ رَبِّهِم. ثم يختلفون في الاستماع. فمنهُم مَن يستمع للاتِّعاظ وأخذ بعض الأَحكامِ التي نصَّ عليها الذكرُ، ومنهم مَن يجلِسُ لتَفَهُّمِ المعاني، ولكنْ لا يَجترئُ على أن يُؤخَذ عنه ما أُخِذَ تعظيماً للقرآن وإشفاقاً من القول في القُرآن بغير الصَّوابِ. ومنهم من استَعَدَّ لأن يُسمِعَ ما سَمِعَ مُضَيِّقاً على نفسه أن يقول ما لم يَسمَع وإن كان صحيحاً في نفس الأَمر. ومنهم مَن لا يُضَيِّقُ على نفسه ذلك التَّضييقَ بل يَروي بالمعنى ويُعَبِّرُ عما استحسَنَ من أقوال أهل التفسير وإن لم يأخذه عن شيخه، وهؤلاء الذين يَحُوزُون وراثةَ شُيوخهم ويُلقَّبون بلَقَب فلانٍ المُفَسِّرِ. وسيأتي تَراجِمُ جماعةٍ منهم .

وأما علمُ الأُصول فيقرأُون منه "جمعَ الجوامع" لابن السُّبكي، وتتفاوتُ مراتبُهم فيه. فمنهم من يحفَظُه ويُحقِّقُ شُروحَه وحواشِيَهُ، وكثيرٌ منهم نَظَمَه ليُقَرِّبه للطالبين. ويقرأُون أيضاً أُصُولَ مذهبِ مالكٍ كالقَرافي والبقوري. ومنهم من يحفظُ "الورقاتِ" لإمام الحَرَمين ويكتفي بذلك القَدر من حفظ المُتُون الأُصُولية. وقد نظَمَها بعضُهُم في العُصُور السالفة وفي عصرنا. ومنهم من قرأَ "جمع الجوامع" قراءةَ تحقيق حتى وقفَ على ثَمَرة علم الأُصول وغايتَهُ، ثم تكاسَلَ عن مُمارسة الفَنِّ لأن العملَ بقواعده من وظائفِ المُجتهدين. وقد أكثَرَ العلماءُ من القول بانقراض الاجتهاد، فلا يرون الفائدةَ في تعلُّم ما لا يُعمَلُ به. ومنهم من يَميلُ إلى القول ببقاءِ الاجتهاد ما بَقِيَت الأُمةُ، ويُحِسُّ من نفسه بُلُوغ الاجتهاد المذهَبيِّ أو الاجتهاد في الفَتوى، ويرَى القولَ بصحَّة تَجَزُّءِ الاجتهاد. وهؤلاء همُ الذين يُمارسون كُتُبَ الفَنِّ ويعملون بمُقتَضَيات قواعده في النَّوازِلِ الحادِثَة التي

تحتاجُ إلى إعمالِ النَّظَر. وهم الذين يؤلِّفون في الأُمور التي تَنزِلُ ببلادهم ويعتَمدُهم الناسُ في الفتاوَى والدُّروس الأُصولية، وينتهُون إلَى أقوالهم عند الاختلاف والتَّنازُع. وأهلُ هذه المَرتَبة قليلُونَ بالنسبة إلى أهل المَرتَبة الوُسطى. كما أن أهلَ المرتبة الوُسطى أيضاً أقلُّ قليلٍ بالنسبة إلى غيرهم من العلماء الذين لا يُحسنون إلا النَّحوَ والفقهَ والبيانَ والتفسيرَ.

وأما علمُ الحديث فلا يُتَعَلَّمُ في المدارس عندَهُم. بل طريقتُهُم فيه أنَّ مَن حَصَّلَ العلومَ المذكُورةَ فتاقَت نفسُه إلى معرفة علمِ الحديث اشتغَلَ بمُطالعة الكُتُب الموضوعة في ذلك العلم "كألفية" العِراقيِّ وشرحها، و"ألفية" السَّيُوطيِّ وشُروحها، و"مقدمة" القسطلاني، و"توجيهِ النَّظَر في علومِ الأَثَر"، و"نُخبَةِ الفِكَر"، وغيرِها من علوم الفَنِّ، فيُمارسُها حتى تصيرَ له مَلَكةٌ في الفَنِّ. وأما كُتُبُ الحديث فلهُم منها الصَّحيحان والسُّنَنُ الأربعةُ و"المُوَطَّأ". وأشَدُّ عنايتهم من هذه الكُتُب "بصحيح" البُخاريِّ، فهو الذي يعتادون قراءَتَهُ في المساجِدِ كُلَّ عامٍ في شَهرَي رَجَبٍ وشَعبانَ.ثم يقرأون "كتابَ الشِّفا" للقاضي عياض في شهر رَمضانَ. لم يَزَل ذلك سيرةً موروثةً فيهم وفي إخوانهم من أهلِ تُنبُكتُ من لَدُنِ القرن العاشر إلى الآنَ.

وأما علمُ العَقائد فكانوا فيه أُمَّةً سَلَفيةً، لأن أولَ ما يقرأون منه عقيدةُ ابنِ أبي زَيدٍ القَيروانيِّ التي ابتدأ بها أبوابَ "رسالته". فهي التي لا تكادُ تجدُ منهم من لم يقرأها. ثم منهم من يَزيدُ عليها "صُغرى" السَّنُوسيِّ، ومنهم من يقرأ وُسطاهُ وكُبراهُ(٧٢٠) أيضاً. ومنهم من لا يقرأُ بعدها شيئاً من العقائد حتى يكبُر ويتضلَّعَ من العلم، فيستغني عن نقل كلامِ كُلِّ أَحَدٍ بما فَهِمَه من كلام الله وكلام رسوله صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ، ولا ينتَسِبُ إلى مذهبِ أحدٍ. ولكنَّ أقربَ المذاهب إليهم مذهبُ الأشعريِّ، فإنه هو الذي ينتمي إليه بعضُهم. وعندهُم من كُتُبه: "إضاءةُ الدُّجُنَّة" للمقَّري، وكتبُ السَّنوسي الثلاثة، و"الجوهرةُ"، وغيرُها. فمن قال فيهم أُمةٌ سَلَفيةٌ لا مذهبَ لهم من المذاهب المُتَجدِّدة بعد القرون الثلاثة فقد أصابَ، لِما ذكرتُ من استغناء أكثرهم بقراءة عقيدة ابنِ أبي زَيدٍ التي هي عقيدةُ السَّلَف، ولأنه لا تكاد تسأل واحداً منهم عَما عنده من مذهب الأشعري فيأتيكَ بشيءٍ إلا تأويلَ المتشابِهِ الذي ليس مذهبَ أحدٍ معيَّنٍ.

كذلك التأويلُ لم يختَصَّ به مُعيَّنٌ. ومَن نَسَبَهم إلى الأشعريِّ فلم يُخطئ لوجود كُتُب الأشاعِرة عندَهُم، ولِكونهم تابعين لعُلماء المغاربة الذين ذكَرَ صاحبُ "الاستقصا" أنهم ما زالوا في العقائد على ما عليه السَّلَفُ إلى أن أَتاهُم محمدُ بنُ تُومرتُ مَهدِيُّ الموحِّدين في المئة الخامسة قادِماً من المشرق آخذاً بمذهب الأشعريِّ في العقائد فنَشَرَهُ في أهل المغرب حتى صارَ الأمرُ عنده وعندَ أتباعه أنَّ مَن لم يَقُل بمقال الأشعريِّ

في العقائد فليس بمُوَحِّدٍ. ثم استمرَّ ذلك في البلاد المغربية إلى الآن. لكني لم أرَ مُدَرِّساً في العقائد يُوقِفُ التلاميذَ على ما انفرَدَ به الأشعريُّ عن غيره من أئمة السُّنة كالماتُريديِّ والحَنبَليِّ. ولم أرَ من الكُتُب التي بأيديهم ما خالفَ فيه الأشعريُّ غيرَهُ حتى يُنسَبَ إليه مذهبٌ فيه إلا مسائلَ يسيرةً ذكروا فيها خلافَهُ للمعتزلة. ومُخالفةُ المُعتزلة لم ينفرد بها واحدٌ من أهل السُّنة، بل كُلُّ مَن كانَ على ما كان عليه السَّلَفُ الصالحُ من أهل القرون الثلاثة يُخالفُهم قبل ولادة الأشعريِّ وبعدَها. وكذلك ما في كُتُب السَّنُوسيِّ من ذكر الصِّفات الواجبة والمُستحيلة والاستدلالِ عليها بالآيات والأحاديث، ليس مذهباً لِمُعَيَّنٍ، بل الصِّفاتُ ثابتةٌ بالكتاب والسُّنة بأدلّتها، ولا مُخالِفَ في ذلك من المسلمين. فكلُّ من لم يكُن إلا ما عليه السَّلَفُ الصالحُ من العقائد، فلا أنسُبُه إلا إليهم. ومتى وجدتُ شيئاً يختَصُّ بعضُ العلماء باستخراجه، وأخذَ الناسُ بذلك القول والتزَمُوهُ لا لدليل إلا لقوله له، نَسَبتُ ذلك المُقَلِّدَ إلى مَن قلَّده كما في المسائل الفقهية التي لا يُنسَبُ فيها المذهبُ لإمامٍ إلا إذا كانَ هو الذي أخرجَهُ باجتهاده، وأما إذا كان مَقُولاً قبلَه فلا يُنسَبُ إليه إلا مِن جهةِ أنه هو الذي نَقَلَه إلى من أخذَهُ عنه من الأتباع.

وأما علمُ القراءات وعلمُ الحساب وعلمُ النُّجوم وعلمُ التصوُّف فلهم منها أيضاً نصيبٌ وافرٌ، لكن لم تجرِ عادتُهم بتَدريسها إذ لا يَنظُرُ فيها إلا المُنتَهِي من العلوم المذكورة المُستغنِي عن مراجعة الشيوخ، لا سيما علم التصوف فإنه لا يشتغلُ به في الغالب إلا الشيوخُ. فإذا شَرَعوا فيه اشتغلوا به عن غيره حتى يكون تعلُّمُه والعملُ به آخرَ أمرهم.

وأما علمُ صناعة الإنشاء فليس عندهم من العلوم، بل لم يعرفوا أنه موجودٌ قبل أواخرِ هذا القرن الرابع عشر. ولَمَّا وَقَفوا على كُتُبه لم يلتفتوا إليها اكتفاءً بما أَلِفُوه منذُ قرونٍ مِن أنَّ مَن عَرَفَ العربيةَ تكلَّمَ بها من غير أخذ الكيفية عن أحد. فمنهم من طُبِعَ على نظم الشعر فكان له قصائدُ كثيرةٌ ولم يُخلِّف أثَراً منثوراً. ومنهم مَن هو بِعَكس ذلك يُلقي الكلامَ المَنثورَ ولا يَنظِمُ. ومنهم مَن يجمعُ بينهما. ومنهم مَن يَفُوقُ أصحابَه الناظمينَ والناثِرين في سائر العلوم، ولكنه لا يُنشِئُ لا نَظماً ولا نَثراً، وهمُ الأكثَرُ. وجُلُّهم إنما سَكَتَ تَوَرُّعاً مِن أن يقول شيئاً لم يسمعه، فاكتَفَى بنَقل ما قيلَ قبلَه. ومنهم مَن سَكَتَ عن الإنشاء حَذَراً منَ النُّقّاد. (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) [سورة المؤمنون: الآية ٥٣].

كذلك العَرُوضُ. مِنهم أَفرادٌ ينظُرون في كُتُبه، وجُلُّهم لا يلتَفِتُ إليها لأن طبيعَتَهم في الإنشاد الاحترازُ منَ العُيُوبِ التي يذكُرُها أهلُ العَرُوض.. فكانوا في ابتداء أمرهم يذكُرون تلك العُيُوبَ أخذاً بما قَرَأُوهُ مِن أشعار الجاهلية، فيحترِزُون منها حتى صارَ الاحترازُ منها سَجِيَّةً راسِخةً فيهم.

فأنشَدَ لسانُ حالهم قولَ الشاعر:

مُسْـــتَفعِلُنْ فـــاعِلُنْ فَعــولُ   مَســـــائِلُ كُلُّهــــا فُضُـــولُ
قد كان شعرُ الوَرى صحيحاً   مِــن قَبــلِ أن يُخلَــق الخَليــلُ

أما علمُ النُّجوم فحَظُّهم منه ما يتعلَّقُ بالتَّوقيت والاستقبال فقط. وأما علمُ الحسابِ فحظُّهم منه معرفةُ ضَربِ الأعداد بعضِها في بعض، يستعينون بذلك على مسائل علمِ الفرائض. وما سوى هذا من العلوم لا يتعلَّمونه. كما أن الصناعات المدرسية غيرُ معروفةٍ عندهُم. بل غايةُ التدريس عندهُم إلقاءُ الشيخ الدَّرسَ على التلاميذ يحُلُّ لهم ما أشكَلَ، ويفسِّرُ ما أعضَلَ، إمّا بالقراءة فقط إن كانوا كباراً عارفين بالعربية أو بالتَّرجمة باللغة التارقية إن كانوا صِغاراً لا يُحسنون العربيةَ. ثم يقصدُ عند كلِّ مسألةٍ يُفَهِّمُها لهم ويُبيِّن لهم ما خَفِيَ عنهم من معناها، ويَحُلُّ ما أشكَلَ مِن مَبناها. يتبَرَّعُ بذلك في بعض الأحيان، ويُجيبُ تارةً مَن سَأَلَهُ مِن نُجباء الإخوانِ، ويستعينُ بما حضَرَهُ من الشُّروح والحواشي، ويُملي عليهم ما فهِمَه من الكُتُب، ويقرأُ عليهم لفظَ الكِتاب فيكتُبون بقراءته عن التفسير. وإذا فَرَغَ الدَّرسُ شرَعُوا في تكرار ما تَرجَمَ به الشيخُ حتى يُحَصِّلوا حِفظَ لفظه، ثم يتفَرَّغون لتَفَهُّم المعنى ثم لحفظ الْمَتن. هكذا إلى آخر الكتابِ. ورُبَّما اكتَفَى بعضُهُم بسَماعِ بعض الكتاب من الشيخ ويُجيزُهُ الباقي أو يُحَصِّلُه بالمُطالعة كأنَّما سَمِعَهُ مِنَ الشيخ. هكذا حالُهم في الدروس سَماعاً وإسماعاً، وتعلُّماً وتعليماً.

وأما الوظائفُ المدرسيةُ التي نقرأُها في كُتُبِ العلماء الحَضَريّين، فهُم بمَعزلٍ عنها لأنَّ بيتَ المال مفقودٌ عندهُم، والتَّنظيماتُ الدوليةُ كذلك. لا كَلامَ للأمراءِ في أمور التعليم فضلاً عن أن يُرَتِّبوا الرَّواتِبَ. بلِ العلماءُ الذين حَبَسُوا أنفُسَهم في إقامة الدِّين هم الذين يتولَّون تعليمَ أهليهم من غير مُشاورةِ أحدٍ ومن غير عِوَض، اللهُمَّ إلا أن يرغبَ في التَّعلُّم مَن ليس في قومه مَن يُعلِّمُه فيأتي إلى زاويةِ أهل العلم فيُعاقدُ بعضَهم على أن يُقيمَ عندَه برسم التعلُّم، ويُعينُه على مَؤونته بما قَدَرَ عليه من ماله، أو يُرسِلُ بعضُ الناس وَلَدَه إلى بعض القُرّاء ليُحَفِّظَه القُرآنَ فيُؤجِرُهُ على ذلك بما تَراضَيا عليه منَ المال. وقد بلَغَني عن الأسلافِ أنَّهُم يجمعون تلاميذَ الحَيِّ في بيتٍ واحدٍ على شيخٍ واحدٍ يُقرئُهُم. وقد مضى ذلك الزَّمَنُ وآلَ الأمرُ إلى أنَّ كلَّ معلِّمٍ يقوم بتعليم أهلِه فقط، ما داموا صِغاراً، وما داموا يقرأون صِغارَ العُلوم، فإذا كبروا ورَغِبُوا في التَّعلُّم اختاروا لأنفُسهم من العلماء مَن

يجتمعون إليه فيقرأُ عليهم بعضَ الكُتُب التي يدرسونها بعدَ النَّحو واللغة، تارةً يكونُ ذلك الاجتماعُ على فَنِّ البَيان، وتارةً على الأصُول، وتارةً على الخَليل، وتارةً على التفسير. ولا مُنتدَبَ لإعانة أيٍّ منهم على ما هو فيه من الدرس أو التدريس.

ومما يتعلَّمونه في زمن التدريس صناعةُ الخَطِّ. فإنَّ الصَّبيَّ منهم إذا عرَفَ حُروفَ الهِجاء، أمَرَ الشيخُ أن يَحكِيَ صُوَرَ الحُروف التي يراها على لَوحه. فإذا عرَفَ حكايةَ صورة الحُروف، تَرَقَّى به إلى تجويد الصُّورة، ثم إلى تعريفه آدابَ الخطِّ مِن وَصلِ الموصول وفَصل المَفصُول لاسيما في ذلك المُصحَف، فإنهم يَتحَرَّزون من الخطإ فيه أكثرَ مما يتحرَّزون من الخطإ في غيره. حتى إن كثيراً من عُلمائهم لا يكتُبُ شيئاً من القرآن وإن كان يُتقِنُ حِفظَهُ، إلا ناظِراً في المُصحَف لئَلاّ يُخالفَ خَطَّه فيأثَمَ. ومنهم مَن يستحضِرُ القواعدَ التي حَرَّرها الأشياخُ لخَطِّ المُصحَفِ حتى حَفِظَها كحِفظه للقُرآن، وأولئكَ يكتبُونَه مِن غير نَظَرٍ في المُصحَف. ثم إنَّ خطَّ السُّوقَيّين جُملةً، له مَزِيَّةٌ على غيره من الخُطوط التي ببلادهم فلكُلِّ جِيلٍ مِنَ الكُتّاب صورةٌ للخط تُخالفُ صورةَ غيرهم. لا يُشبهُ خطَّ العرب خطَّ الفُلاّن، ولا يُشبهان مُطلقاً خطَّ هاتَيْن، ولا يشبهُ جميعَها خطَّ السُّوقيّين. فإن أقربَ الخُطوط إلى خَطِّهم، خطُّ أهل المغربِ الذي تُكتَبُ به المصاحفُ المطبوعةُ في المغرب بقراءة وَرش. وهو بعَينِه خطُّ أسلافهم الأوَّلين كما رأيتُه في كُتُبهم وعلى ألواح قُبور أجدادهم الأقدَمينَ. ثم تَجَدَّدت فيه صَنعتُه في القرن الثاني عشَرَ، تَميَّزَ بها السُّوقيون على غيرهم من الكُتّاب. وأشَدُّهم إجادةً لتلك الصَّنعة ثلاثةُ أحياء: أهلُ تَبُرَق، وأهلُ تَكَلّتْ، وأهلُ تِكرَتِنْ. فقد اعترفَ لَهُم إخوانُهم في العصور الأخيرة بإحرازهم قَصَبَ السَّبق في تلك الصَّنعة. ثم صار الأمرُ إلى انفراد الأحياءِ الثلاثة بها من غير مُشاركةٍ ولا مُنازِع. مَن أرادَ من إخوانهم أن يَستَنسخ كتاباً طلَبَ من بعضهم أن يَكتُبَ له، فتارةً يُسعِفُه بذلك المطلوب مَجّاناً، وتارةً يعتذرُ له فيَسترضيه بالمال الجَزيل رغبةً في تلك الصَّنعة الجَيِّدة التي انفَردُوا بها. فكان بعضُهم يأخُذُ على كتابة الكِتاب الواحد عدَداًمن البَقَر، ومنهم من يأخُذ عدداً من الجمال. ومنهم مَن ليس له من الحِرفة إلا الخطَّ، يكتُبُ الكُتُبَ للناس فيُعطونه من أصناف المال حتى استَغنَى بذلك في مدة يَسيرة. وهذا قبل وُصُول الكُتُب المطبوعة إليهم التي لم تصل إليهم إلاّ في أوائل القرن الرابع عشرَ الهِجريِّ. فلما انتشَرت المطبوعاتُ فيهم، قَنَعَ بها بعضُهم لأن ثَمنَها أقَلُّ من ثَمَن المخطوطات. وبعضُهم رَضِيَ بالثَّمَن الغالي الذي يُحَصِّلُ به المخطوطَ رغبةً فيه، لأنه أجودُ الخُطوط التي رأيناها وأبقاها إلى أطول مدة. فتوانَى مَن عنده كثيرٌ من المطبوعات،

لكن لم يَستَغنِ به عن طلَب استنساخ نُسَخ عديدة بالخَطِّ السُّوقيِّ. وكثيرٌ من الكُتُب الموجودة في المطابع تُعمل فيه صناعة بالخط تُرغِّبُ فيه فوق الرغبة في نفس الكتاب. مثَلاً: "تفسيرُ الجَلالَين" يُكتَبُ في وَرَقٍ كبيرٍ جَيِّدٍ أضعافَ ما يُكتَب فيه مطبوعاً. ثم يُحَشَّى بكُتُبٍ كثيرة بعضُها في التفسير وبعضُها في الفقه، وبعضُها في الحديث، وبعضُها في فُنونٍ أُخرى. وتكون تلك الحواشي طُرَراً رقيقةً مُزَيِّنةً للكتاب لا يُحسِنُ صناعتَها كثيرٌ من الخُطَّاط المُجيدين فأَولى غيرُهم. وتلك الصناعةُ أصعبُ ما يَلقى الخَطّاطُ من جُهد الكتابة. ومَن ظَفَرَ بكتاب "تفسير الجَلالَين" مُحَشَّى بالصورة المذكورة، فكأنَّما ظَفَرَ بوَقْر جَمَلٍ من الكُتُب في شَتَّى الفُنون، لا سيما إن كان مصدرُه من المُعتَبَرين الذين يُكابِدون المَشاقَّ في رعاية المُناسبات واختيار الفوائد التي لا يستحضرُها جُلُّ الناس، ويستغرقون في ذلك جُلَّ أعمارهم، لا من الناقلين الذين يأخُذ أحدُهم كتاباً مُحَشّىً، فينقُلُ ما فيه إلى كتاب من غير مُعاناة أَيَّة مشقَّة إلا مجرَّدَ نقل الكلام. وهؤلاء، وإن كان لتصوير مَن قَبلَهُم فضيلةٌ على تصويرهم، لكِنَّ عملهم لا يُساويه عملٌ في تَكثيرٍ الفائدة العلمية، مع قلة المُجلَّدات. فكتابُ "تفسير الجلالين" مخطوطاً مُحَشّىً بالصورة المذكورة، لا يساوي المطبوعُ معشارَ عُشُر قيمته عند أهل البَلَد. وكذلك "كتاب الشِّفا" للقاضي عياض، يُبالغون في تكبير ورَقه وتجويد خَطِّه وتَحشيَّته حتى يكون مخطوطُه فوق مطبُوعه بنحو عشرة أضعاف. وكذلك "شرحُ السَّعد" التَّفتازاني للتلخيص. وكذلك "شرحُ كافية" ابن مالِك في النَّحو وشرحا عبد الباقي والشَّبرخيتي "لمختصر خليل"، وكثيرٌ من الكُتُب التي جرى عملُهُم بتجويد خطِّها وتحشيَّتها. ومن الكُتُب ما لا يَهتمُّون بتجويد خطه، بل يكفيهم تحصيلُه. وتلك لا يُفضِّلون مخطُوطَها على مطبوعها كالسابقة إلا من جهة أنَّ من أرادَ شراءَها يعرفُ أنَّ كاتبَها لا يُسلِّمها فيما تُسلِّمُ فيه المطبوعةُ، لأنه عانَى من المشاقِّ ما لا يعلمُ حقيقتَه إلا مَن ذاقَه، بخلاف مَن اشتَرى مطبوعاً ليَبيعه، فإنه لم يُعانِ مَشَقَّةً، بل متى استفاد أكثَرَ مما دفَعَ رضيَ به .

ومن الكتُب الموجودة في أَيديهم ما لا يُوجَد في المطبوعات أصلاً، وهي كثيرةٌ، منها تواليفُ للسُّوقيِّين وتواليفُ للكُنتيِّين وأهل تُنبُكتُ، وأَمثال هؤلاء من علماء أهل الصحراء الذين ليست لهم مطابع، ولم تُرسَل كُتُبُهم إلى الآفاق الطابِعة. ومنها كُتُبٌ توارَثُوها عن أَسلافهم مخطوطةً ولم يَظفَروا بها مطبوعةً. ولولا خِشيةُ الإطالة لعَدَدتُ الكثيرَ من هذا القسم ومن القسم الذي قبله، مع الاعتراف بالعَجز عن الإحاطة بها .

تَذييل في الكلام على عَمَلهم في المِداد والأَقلام

أما المِدادُ فيُلَوِّنونه بجميع الألوان، يجعلونه أَسودَ وأَحمرَ وأَصفرَ وأَخضرَ. أما الأصفرُ والأخضرُ فلا يكتبون بهما الكتابَ، بل يُزَيِّنون بهما، ويكتبون بهما بعضَ الكلمات قليلاً. وأما الأحمرُ فيكتبون به المُتُونَ المشروحةَ وبعضَ الكلمات من غير المَتن مثل أوائل الكلام. وأما الأسودُ فيكتبون به الشّرُوحَ والطُّرَرَ والألواحَ وسائرَ ما يكتبون سوى المذكورات.

وطريقتُهم في خطِّ المُصحَف أَن يُكتَب كُلُّه بالمداد الأسود، وتُكتَب هَمَزاتُه المُحقَّقة بالمداد الأصفر، وتُكتَب أَلِفاتُه بالأحمر، ويُشكَلُ به. ولهم كتُبٌ في آداب خطِّ المُصحف يَعتَنون بها ويستعملونها في كتابة المصحَف. أما اللَّوحُ فلا يتأَدبُون في كتابته كما يتَأَدَّبون في كتابة المَصاحِف، ولكن يكتبون فيه ما لا يكتبون في غيره من الكلام. وأما ما يُصنَع فيه مِدادُهم فكثيرٌ، وأَجودُه أن تُحرَقَ حِجارةٌ كانت في بلادهم تُسمَّى تَفِدَتْ، حتى تَسوَدَّ ثم تُخلَطُ بدقيق القَرَظ والعِلك، فيُجعَلُ في ذلك ماءٌ. فإذا اختلطت هذه الأشياءُ تَوَلَّدَ من اختلاطها ماءٌ مُنعَقِدٌ شَديدُ السَّواد، هو المِدادُ الأَسودُ. والأحمرُ يُصنَعُ من حجارة تَفِدَتْ أَيضاً، لكنْ يُبالَغُ في إحراقها حتى تحمَرَّ، ويُضافُ إليها العِلكُ، ولا يُجعَلُ فيه القَرَظُ لأَنَّ طبيعتَهُ التَّسويدُ.

وأما القَلَمُ فيَعمَلونه من قَصَبِ الثُّمام غالباً، ومن غيره نادراً. ولكنَّ تجويدَ الخَطِّ مَخصُوصٌ بقَلَم الثُّمام. وصُورتُهُ أن تُؤخَذَ القَصَبةُ فيُبرَى رأسُها، ثم يُشَقُّ المُبرَى نِصفَين، ثمَّ يُبرَى كلُّ شِقٍّ حتى يكون رأسُ القَصَبة رَقيقاً جداً، ثم يُحرِّفُه الكاتبُ على وَفقِ مُراده، وإنما تكلَّمتُ على صناعة الخطِّ مع الكلام على العُلوم، لكون تجويد الخطِّ من مُتَعَلِّقات العُلوم. فقد جُرِّبَ أنَّ صناعةَ الخَطِّ الجَيِّد من أَمارات بَقاء العلم في القبيلة. فإذا أَقبَلَت قبيلةٌ أو أَهلُ بيتٍ على العُلوم، كثُرَ فيهم الكُتّابُ المُجيدون. فإذا نَقَصَ فيهم العِلمُ نَقَصَ فيهمُ الاعتناءُ بالخَطِّ، فلا يزالون كذلك يَنحَطُّون من مرتبةٍ إلى أَسفَلَ منها حتى يَنعدِمَ فيهم الخَطُّ ويَبقَى فيهمُ التَّعلُّمُ، ويتَّخذون من غيرهم كُتّاباً يكتبون لهم، فإذا انقَرَضَ ذلك الجِيلُ، اقتَصَرَ مَن بَعدَهُم مِن العُلوم على مرتبةٍ أدونَ من مَرتبتهم. فلا يزالون يُسقِطون العُلومَ شيئاً فشيئاً، إلى أن يَبقى الخَلَفُ الذي لا شيءَ معهُ من الخَطِّ ولا من العُلوم، فيذهبُ رِيحُ تلك الأُمة لا يَعرفون أنَّ لهم سَلَفاً في التَّعلُّم، فرُبَّما بَقيَ شيءٌ من كُتُب أسلافهم بأَيديهم، وربما ضاعت الكُتُبُ حتى لا فرقَ بينَ مَن كانوا من أَهل العِلمِ أَصالةً وبين غيرهم مِمَّن ليس لهم أَصلٌ في التَّعلُّم».

مراجـــــع

١. محمد ضيف الله بطاينة: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين. ود/ علي محمد الصلابي: حركة الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي. ود/ طاهر راغب: موجز تاريخ المغرب.
٢. د/ طاهر راغب: موجز تاريخ المغرب، ص٤. بطاينة: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين.
٣. ابن خلدون: كتاب العبر: الفصل الثالث في ذكر ما كان لهذا الجيل قديمًا وحديثًا من الفضائل الإنسانية والخصائص الشريفة الراقية بهم إلى مراقي العز ومعارج السلطان والملك، ١٠٣/٦.
٤. ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها: ١٧٠، ١٧١. وابن يوسف الكندي: ولاة مصر: ٣٣. وابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/ ٤٥٩. والبلاذري: فتوح البلدان، ١/ ٢٦٤.
٥. د/ حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب.
٦. د/ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس.
٧. رياض النفوس للمالكي نقلاً عن تجديد الدولة الأموية.
٨. معجم البلدان (٦٠١/٢).
٩. وض المعطار ص١٤٤ نقلاً عن تجديد الدولة الأموية.
١٠. تقويم البلدان نقلاً عن تجديد الدولة.
١١. دائرة المعارف الإسلامية (٣٢/٦).
١٢. (تجديد الدولة الأموية).
١٣. البيان المغرب (٢٠/١) .
١٤. تاريخ ابن خلدون (١٨٦/٤).
١٥. مدرسة الحديث في القيروان (٥١/١).
١٦. اليعقوبي: تاريخه، ج٢. د/ محمد ضيف الله بطاينة: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين.
١٧. تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي.
١٨. الإدارة في العصر الأموي.
١٩. التطور الاقتصادي في العصر الأموي.
٢٠. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٨. د/ طقوش: تاريخ الدولة العباسية.
٢١. محمود شاكر: الدولة العباسية،ج٥.

٢٢. د/ إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري.
٢٣. د/ مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب.
٢٤. د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج٣
٢٥. د. الصلابي: الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين.
٢٦. محمود شاكر: العهد العثماني.
٢٧. د/ جمال عبد الهادي: المجتمع الإسلامي المعاصر (ب) إفريقيا.
٢٨. د/ عبد الله عبد الرازق: الإسلام وتحدي الاستعمار الأوروبي في إفريقيا.

١. محمد ضيف الله بطاينة: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص٢٦٧. ود/ علي محمد الصلابي: حركة الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي، ص١٥،١٦. ود/ طاهر راغب: موجز تاريخ المغرب، ص٣.
٢. د/ طاهر راغب: موجز تاريخ المغرب، ص٤. بطاينة: دراسة في تاريخ الخلفاء.
٣. الأمويين، ص٢٦٩.
٤. ابن خلدون: كتاب العبر: الفصل الثالث في ذكر ما كان لهذا الجيل قديمًا وحديثًا من الفضائل الإنسانية والخصائص الشريفة الراقية بهم إلى مراقي العز ومعارج السلطان والملك، ١٠٣/٦.
٥. الصلابي: حركة الفتح الإسلامي، ص٧٢.
٦. ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها: ١٧٠، ١٧١. وابن يوسف الكندي: ولاة مصر: ٣٣. وابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/ ٤٥٩. والبلاذري: فتوح البلدان، ١/ ٢٦٤.
٧. الصلابي: حركة الفتح الإسلامي، ص٧٥.
٨. د/ حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص١١٠.
٩. د/ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٧.
١٠. رياض النفوس للمالكي نقلاً عن تجديد الدولة الأموية ص٢٠٠.
١١. معجم البلدان (٦٠١/٢).
١٢. الروض المعطار ص١٤٤ نقلاً عن تجديد الدولة الأموية ص٢٠٠.
١٣. تقويم البلدان نقلاً عن تجديد الدولة ص٢٠٠.
١٤. دائرة المعارف الإسلامية (٣٢/٦.)
١٥. تجديد الدولة الأموية ص٢٠٠.
١٦. البيان المغرب (٣٨/١.)
١٧. المصدر نفسه (٣٨/١).
١٨. تجديد الدولة الأموية ص٢٠٣.

١٩. المصدر نفسه ص٢٠٣.
٢٠. البيان المغرب (١/٢٠).
٢١. المصدر نفسه (١/٢٣).
٢٢. تاريخ ابن خلدون (٤/١٨٦).
٢٣. مدرسة الحديث في القيروان (١/٥١).
٢٤. البيان المغرب (١/٢٧)، ومدرسة الحديث في القيروان (١/٥١).
٢٥. مدرسة الحديث في القيروان (١/٥٢).
٢٦. البيان المغرب (١/٤٢).
٢٧. المصدر نفسه (١/٤٢).
٢٨. اليعقوبي: تاريخه، ج٢، ص٣٢٤. د/ محمد ضيف الله بطاينة: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص٣١٥.
٢٩. تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ص١١٥، ١١٦.
٣٠. الإدارة في العصر الأموي ص٢٢٢.
٣١. التطور الاقتصادي في العصر الأموي ص٢٤٠.
٣٢. المصدر نفسه ص٢٤٠.
٣٣. محمود شاكر: الدولة العباسية، ج٥، ص٨٤.
٣٤. محمود شاكر: الدولة العباسية، ج٥، ص٨٧.
٣٥. محمود شاكر: الدولة العباسية،ج٥، ص١٢٦.
٣٦. اليعقوبي: تاريخه، ج٢، ص٣٥٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٥، ص١٠٩. د/ طقوش: تاريخ الدولة العباسية، ص٩٥.
٣٧. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص٣١٤. د/ طقوش: تاريخ الدولة العباسية، ص٩٥.
٣٨. محمود شاكر: الدولة العباسية،ج٥، ص١٦١.
٣٩. د/ إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص١٦٣.
٤٠. د/ مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، ص١٣٣.
٤١. محمود شاكر: الدولة العباسية،ج٥، ص١٣٤.
٤٢. محمود شاكر: الدولة العباسية،ج٥، ص١٦٠، ١٦١.
٤٣. د/ مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، ص١٣٦.
٤٤. محمود شاكر: الدولة العباسية،ج٥، ص١٦٢.
٤٥. د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج٣ ، ص١٦٩، ١٧١.
٤٦. محمود شاكر: الدولة العباسية،ج٥، ص١٦٤.
٤٧. د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج٢ ، ص١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨.

٤٨. د. الصلابي: الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، ص١١ ـ ١٦.
٤٩. د/ الصلابي: الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، ص١٤١ ـ ١٤٤.
٥٠. د/ الصلابي: الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، ص٢٢٧ ـ ٢٢٩.
٥١. محمود شاكر: العهد العثماني،ج٨، ص٥٢٣ ـ ٥٢٦.
٥٢. محمود شاكر: العهد العثماني،ج٨، ص٥١٠.
٥٣. محمود شاكر: العهد العثماني،ج٨، ص٥١١.
٥٤. محمود شاكر: العهد العثماني،ج٨، ص٥١٢.
٥٥. [54]محمود شاكر: العهد العثماني ٨ / ٥١٤ ـ ٥١٧.
٥٦. محمود شاكر: العهد العثماني ٨/ ٥١٨ – ٥٢٠.
٥٧. د/ جمال عبد الهادي: المجتمع الإسلامي المعاصر (ب) إفريقيا، ص٢٣.
٥٨. د/ عبد الله عبد الرازق: الإسلام وتحدي الاستعمار الأوروبي في إفريقيا، ص٢٥، ٢٦.
٥٩. د/ جمال عبد الهادي: المجتمع الإسلامي المعاصر (ب) إفريقيا، ص٥١.
٦٠. محمود شاكر: العهد العثماني،ج٨، ص٥١٧.
٦١. د/ جمال عبد الهادي: المجتمع الإسلامي المعاصر (ب) إفريقيا، ص٥٣.
٦٢. محمود شاكر: التاريخ المعاصر (بلاد المغرب)،ج١٤، ص١٧٠.
٦٣. د/ جمال عبد الهادي: المجتمع الإسلامي المعاصر (ب) إفريقيا، ص٥٥، ٥٦.
٦٤. د/ جمال عبد الهادي: المجتمع الإسلامي المعاصر (ب) إفريقيا، ص٥٧، ٥٨.
٦٥. محمود شاكر: التاريخ المعاصر (بلاد المغرب)،ج١٤، ص٢٩٥.
٦٦. د/ جمال عبد الهادي: المجتمع الإسلامي المعاصر(ب) إفريقيا، ص٦٤ ، ٦٥.
٦٧. ↑ أ ب التصّوف الإسلامي، مفهومه وأصوله فاطمة داود- جامعة مستغانم
٦٨. من كتاب حقائق عن التصوف، تأليف: عبد القادر عيسى، ص٢٥.
٦٩. (كتاب اللمع) ص ٤٦ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود طه عبد الباقي سرور ط دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٦٠ م.
٧٠. كان آل صوفة يجيزون الحاج من عرفات أي يفيضون بهم، ويقال لهم: آل صوفان وآل صفوان وكانوا يخدمون الكعبة ويتنسّكون ولعلّ الصوفية نسبوا إليهم تشبيهاً بهم في النسك والتعبد أو إلى أهل الصفة فقيل: مكان الصفية الصوفية بقلب إحدى الفاءين واواً للتخفيف أو إلى الصوف الذي هو لباس العباد وأهل الصوامع، أساس البلاغة، كتاب الصاد ٣، (٣٤ من ٦٠)

٧١. محمد عبد المنعم الخفاجي: الأدب في التراث الصوفي، دار غريب للطباعة، القاهرة ١٩٣٨، ص ٢٣-٢٤.
٧٢. القشيري : الرسالة القشيرية، ص ١٢٦.
٧٣. تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غني ترجمة عربية ص ٦٧، ٦٨.
٧٤. كشف المحجوب للهجويري ترجمة عربية دكتورة أسعاد عبد الهادي قنديل ص ٢٣٠ ط دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٠ م.
٧٥. الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري ج٢ ص ٥٥٠ دار الكتب الحديثة القاهرة.
٧٦. التصوف لمصطفى عبد الرزاق ص ٥٧ إلى ٦٢ ط دار الكتاب اللبناني بيروت
٧٧. على هامش الرسالة القشيرية ص٧.
٧٨. قواعد التصوف، تأليف: أحمد زروق، قاعدة ١٣ ص ٦.
٧٩. قواعد التصوف، تأليف: أحمد زروق، ص٢.
٨٠. النصرة النبوية، تأليف: مصطفى المدني ص٢٢.
٨١. نور التحقيق، تأليف: حامد صقر ص٩٣.
٨٢. معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تأليف: أحمد بن عجيبة الحسني ص٤.
٨٣. خطبة ما هو التصوف؟ الشيخ سيدي محمد سعيد الجمل.
٨٤. عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، مكتبة مدبولي القاهرة، ط١، ١٩٨٩-١٩٩١ ص ٢٨ – ٣٧.
٨٥. عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، مكتبة مدبولي القاهرة، ط١، ١٩٨٩-١٩٩١، ص ٢٨.
٨٦. حقائق عن التصوف، تأليف عبد القادر عيسى، ص٣٠.
٨٧. كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، تأليف: حاجي خليفة، ج١/ص٤١٤.
٨٨. الانتصار لطريق الصوفية، تأليف: محمد صديق الغماري، ص١٧ - ١٨.
٨٩. مجلة العشيرة المحمدية، عدد محرم ١٣٧٦هـ، من بحث: التصوف من الوجهة التاريخية، للدكتور أحمد علوش.
٩٠. انظر قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ١٠٥.

٩١. الصوفية في الكويت.. نبتة في بيئة سلفية إسلام ان لاين، تاريخ الولوج ٢٠٠٩/٠٧/٢٣.
٩٢. خلافات الصوفية والسلفية تؤخر قيام مرجعية موحدة للسنة بالبحرين العربية، تاريخ الولوج ٢٠٠٩/٧/٢٣.
٩٣. الأندلس حضارة غاربة وتاريخ عريق محيط، تاريخ الولوج ٢٠٠٩/٠٧/٢١.
٩٤. الباحث الصوفي المغربي لحسن السباعي الإدريسي في كتابه: "حول التصوف والمجتمع" (منشورات الإشارة، ٢٠٠٧).
٩٥. أ ب تصوف المغرب.. شيخٌ ومريد إسلام أون لاين.نت.
٩٦. الحسن السائح: دعوة الحق، ع ٢، ٣، السنة ١٩ مارس ١٩٧٨.
٩٧. صوفية المغرب.. رعاية رسمية ودعم أمريكي تاريخ الولوج ١٦-٠٤-٢٠٠٩.
٩٨. أ ب عن التصوف والصوفية في الجزائر *islamic-sufism.com.*،تاريخ الولوج ٢١-٠٤-٢٠٠٩.
٩٩. أول موسوعة إسلامية عن التصوف.. جزائرية إسلام ان لاين، تاريخ الولوج ٢٠٠٩/٠٧/٢٣.
١٠٠. »خريطة الحركات الإسلامية في مصر الطرق الصوفية، الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، تاريخ الولوج ٢٠٠٩/٠٧/٢٢
١٠١. مصر.. إطلاق أول فضائية صوفية مطلع ٢٠٠٩ إسلام ان لاين، تاريخ الولوج ٢٠٠٩/٠٧/٢٣
١٠٢. أ ب الصوفية في تركيا.
١٠٣. أ ب الصوفية ونشر الإسلام في ماليزيا إسلام ان لاين، تاريخ الولوج ١٥-٠٤-٢٠٠٩.
١٠٤. الصوفية المقاتلة إسلام ان لاين، تاريخ الولوج ٢٠٠٩/٠٧/٢٣.
١٠٥. صوفية مصر لا يؤيدون التظاهر لدعم غزة إسلام أن لاين، تاريخ الولوج ٢٠٠٩/٠٧/٢٣.
١٠٦. شافية شارن وآخران : الاحتلال الاستيطاني وسياسة الرومنة، منشورات المركز الوطني للدراسات والأبحاث، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٣٦.
١٠٧. محمد الصغير غانم واخران : المقاومة والتاريخ العسكري، ص ٢٩٩ .
١٠٨. شافية شارن وآخران : المرجع السابق، ص ٣٦ – ٣٨.

١٠٩. شافية شارن : " النتائج الاقتصادية للتوسع الروماني وموريتانيا القيصرية " حولية المؤرخ، ع ١، اتحاد المؤرخين الجزائريين، الجزائر، ٢٠٠٢، ص ٣٥ – ٣٦.

١١٠. رشيد الناضوري : المغرب الكبير، ج ١، ص ٢٨٨.

١١١. شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية، ص ١٤٦.

١١٢. محمد الهادي حارش : التاريخ المغاربي القديم، ص ١٨١ – ١٨٢.

١١٣. محمد الهادي الحارش : التاريخ المغاربي القديم، ص ١٨٢.

١١٤. محمد الصغير غانم : " بعض ملامح ثورات التحرير ضد الاستعمار الروماني خلال القرن الاول ميلادي "، حولية المؤرخ، ع ١، اتحاد المؤرخين الجزائريين، الجزائر، ٢٠٠٢، ص ٢٥ – ٢٦.

١١٥. محمد الهادي الحارش : المرجع السابق، ص ١٨٥.

١١٦. شارل اندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية، ص ١٥٠.

١١٧. شافية شارن : "النتائج الاقتصادية للتوسع الروماني "، ص ٣٥ – ٣٧

١١٨. المرجع نفسه : ص ٣٨.

١١٩. شارل أندري جوليان: المرجع نفسه، ص ١٥٤.

١٢٠. خطوط الليمس : هي عبارة عن خطين عسكريين، الخط الأول : أقامه الإمبراطور تراجانوس بنهاية القرن الأول (م) والثاني أقيم خلال منتصف القرن الثاني إلى غاية القرن الثالث ميلادي ضد قبائل المور والجيتول، (انظر : محمد البشير شنيتي : الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ص ١١٧ – ١١٩).

١٢١. محمد الهادي الحارش : المرجع السابق، ص ١٨٦ – ١٨٧ .

١٢٢. الجيتول : هي قبائل تقطن الصحراء وترتحل الى التل من اجل الكلأ للماشية بحكم ممارستهم للرعي، وامتد نفوذهم من المحيط غربا الى خليج سرت شرقا، (انظر : محمد الصغير غانم : المرجع السابق، ص٢٩)

١٢٣. محمد البشير شنيتي : الاحتلال الروماني لبلاد المغرب القديم – سياسة الرومنة (١٤٦ ق م – ٤٠ م) -، ط ٢، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ١٤١ – ١٤٣.

١٢٤. محمد إبراهيمي الميلي : الجزائر في ضوء التاريخ، دار البعث، قسنطينة، ١٩٨٠م، ص ١٥٠.

١٢٥. محمد البشير شنيتي : التغيرات الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب اثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص ٢٥٩.

١٢٦. شافية شارن وآخران : الاحتلال الاستيطاني وسياسة الرومنة، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٢٨ .
١٢٧. محمد خريسات وآخرون : تاريخ الحضارات الإنسانية، ط ١، دار الكندي، الأردن، ص ٥٢.
١٢٨. محمد الصغير غانم: الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، دار سالهدى، الجزائر ٢٠٠٥، ص ٢٢.
١٢٩. عثمان الكعاك : موجز التاريخ العام للجزائر – من العصر الحجري الى الاحتلال الفرنسي، ط ١، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ٢٠٠٣، ص٣٢.
١٣٠. محمد الصغير غانم : الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، دار الهدى، الجزائر ٢٠٠٥، ص ٢٢.
١٣١. عبد اللطيف محمود البرغوثي : التاريخ الليبي القديم من اقدم العصور الى الفتح الاسلامي، ج ١، ص ١٣٦،محمد الهادي حارش : التاريخ المغاربي القديم – السياسي والحضاري – منذ فجر التاريخ الى الفتح الاسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٢، ص ١٤٥.
١٣٢. محمد الصغير غانم : المرجع السابق، ص ٢٢.
١٣٣. عبد الحميد عمران : الحركة الدوناتية بين الانشقاق الديني والتحرر (٣٠٥ – ٤١١ م)، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، ٢٠٠٥، ص ٣٧.
١٣٤. محمد الصغير غانم : المرجع السابق، ص ٢٢.
١٣٥. عبد اللطيف محمدود البرغوثي : التاريخ الليبي القديم، ص ١٣٨.
١٣٦. المرجع نفسه : ص ١٣٥.
١٣٧. عبد العزيز الثعالبي : مقالات في التاريخ القديم – تاريخ شمال افريقيا – ط ١، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٧.
١٣٨. محمد الصغير غانم : المملكة النوميدية والحضارة البونية، ط ١، دار الامة، ١٩٩٨، ص ٢٠٦.
١٣٩. احمد بوساحة : أصول أقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص ٥٦ – ٦٠.
١٤٠. محمد الصغير غانم : الملامح الباكرة، ص ٨٧ – ٨٨.
١٤١. محمد العربي عقون : لاقتصاد والمجتمع، ص ٢١٢.
١٤٢. محمد الصغير غانم : المرجع السابق، ص ٨٧ – ٨٨.
١٤٣. محمد الصغير غانم : " علاقة نوميديا بالرومان "، مجلة التراث، ع ٣، مطبعة الشهاب، الجزائر، ١٩٨٨، ص ٢٤.

١٤٤. محمد العربي عقون : المرجع السابق، ص ٢١٢.

١٤٥. رشيد الناضوري : المغرب الكبير، ص ٢٠٩.

١٤٦. محمد الصغير غانم : المملكة النوميدية، ص ٢٠٧.

١٤٧. عبد العزيز الثعالب : مقالات في التاريخ القديم – تاريخ شمال افريقيا – ط ١، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٧.

١٤٨. خزعل الماجدي: المعتقدات الكنعانية، ط١، دار الشرق، الاردن، ص ١٥٥.

١٤٩. أندري ايمار، جانين ابوايبه : تاريخ الحضارات العام – روما وإمبراطوريتها ، تعريب : داغر اسعد و فريد أبو ريحانة، ط ٦، منشورات عديدات، بيروت – باريس – ٢٠٠٦، ص ٦٠ – ٦١.

١٥٠. محمد العربي عقون : الاقتصاد والمجتمع، ص ٢١٥.

١٥١. سعدون محمد الساموك : في مقارنة الأديان والمعتقدات، ص ٢٤٨.

١٥٢. انظر المزيد من حقبة العبيديين وعقائد الشيعة الإسماعيلية التي ينتسبون إليها: "الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية" – د. محمد عبد الله عنان أو ملخص الكتاب المنشور في العدد الثالث من الراصد، و"الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة طبعة سنة١٩٨٩ .

١٥٣. وقد توسعت في عقيدة المهدي بن تومرت في مقالتي المنشورة في موقع الألوكة بعنوان: "المهدي المنتظر بين الروايات التاريخية والأحاديث النبوية: تاريخ الغرب الإسلامي نموذجًا".

١٥٤. للتوسع في الموضوع يرجع لكتاب: أعز ما يطلب لمحمد بن تومرت المهدي، تقديم الدكتور عبد الغني أبو العزم مؤسسة الغني للنشر، الرباط، بدون تاريخ .

١٥٥. الشيخ الدكتور محمد بن عبد الرحمن المغراوي: الأسباب الحقيقية لحرق إحياء علوم الدين من قبل أمير المؤمنين ابن تاشفين، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م ص: ٢٢ .

١٥٦. تقي الدين المقريزي (توفي سنة٨٤٥هـ /١٤٤١م) مؤرخ مصر الشهير، كانت له موهبة كبيرة واطلاع واسع ومن أهم كتبه: "اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا" في هذا الباب استعان بكتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان"؛ خاصة ما يتعلق بتاريخ الفاطميين بالمغرب ...

١٥٧. ابن تاويت، "الوافي بالأدب العربي"، ج٢، ص.٤٠١ .

١٥٨. للتوسع في الموضوع يرجع إلى كتاب: الدكتور فريد الأنصاري: البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، منشورات ألوان مغربية، الطبعة الاولى١٤٢٤-٢٠٠٣م، والرسالة القيمة للدكتور أبو سفيان السجلماسي: تنبيه الوسنان إلى انحرافات صوفية هذا الزمان، رسائل في الفقه الدعوي، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

١٥٩. عبد السلام ياسين: المنهاج النبوي،ص: ٤١٨ .

١٦٠. الدكتور فريد الأنصاري نفس المرجع،ص:١٢٦ .

١٦١. عبد السلام ياسين: الإحسان للرجال ص: ٥٦ .

١٦٢. العلامة الشوكاني رحمه الله: قطر الولي ص:٢٣٤ .

١٦٣. لقد شيعني الحسين – إدريس الحسيني الاسم المستعار لزعيم الشيعة في المغرب (إدريس هاني) ص:٣٣٩-٣٤٠.نقلا عن حامد الإدريسي: مكفرون لا مفكرون، جريدة السبيل، العدد ٣٦- ٢٧جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ ص: ١٥ .

١٦٤. للتوسع في الموضوع يرجع إلى الدراسة القيّمة للدكتور طه حامد الدليمي بعنوان: "تحريف القرآن عند الشيعة: تهمة باطلة أم حقيقة ثابتة؟".